

تَعْرِيفُ عَامٍّ
بِدِينِ الْإِسْلَامِ

على الطنطاوى

تَعْرِيفُ عَامٍ
بِدِينِ الْإِسْلَامِ

كافة حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الحادية عشر ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الثانية عشر ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثالثة عشر ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الرابعة عشر ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

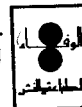
طبعة خاصة بدار الوفاء

بإذن خطي من المؤلف

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٢٤٢٧٢١ / ٢٠٦٢٢ / ٢٠٦٢٣

المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٢٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٢٠ تلس DWFA UN 24004



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة طبعة دار الوفاء بالمنصورة

كان من الحق عليّ لمصر أن تصدر الطبعة الأولى لهذا الكتاب عنها ، لأن أصلي منها ، من طنطا التي كانت تدعى (طنطا) جاء منها جدي أبو أبي سنة ١٢٥٥ هـ مع عمه الذي كان من العلماء الكبار ، ولأني نشرت أول ما نشرت في مصر سنة ١٣٤٨ هـ في (الفتح) وفي (الزهراء) عند خالي محب الدين الخطيب يوم كنت طالباً في (دار العلوم) ولم أكمل دراستي فيها ، ويوم كانت مصر كما يدعوها أهلها (أم الدنيا) ، أم الدنيا العربية ، ما كان لهم (جامعة) إلا الجامعة المصرية ، يؤمها الطلاب من أقطار العروبة كلها ، أما (الأزهر) فكان فحل الجامعات ، وكان مبعث النور حين خبت — أو كادت — مصابيح النور ، وكان مقصد طلاب العلم من بلاد المسلمين كلها ، لا يعدلون به غيره . الأزهر الذي عاش أكثر من ألف سنة ، كما عاش جامع القرويين في المغرب ، والزيتونة في تونس ، وإن لم يكن هما بعض ما كان له من الأثر . وكانت دور النشر الكبرى في مصر ، والكتاب الذي ينشر فيها ، ويصدر عنها يحمل جواز المرور فيصل إلى كل بلد عرى .

كان ذلك حقاً عليّ ، لكن الله لم ييسره لي ، فقد طبع الكتاب نحواً من عشرين طبعة قبل أن تصبّر هذه الطبعة في مصر . بعض هذه الطبعات كان بإذن مني ، وبعضها سرق سرقة — وسرقة الكتب إحدى الثمرات المرة لهذه الحضارة الجديدة ، التي يسّرت الوسائل ، ومهدت السبل ، لأهل الخير ولأهل الشر ، فمن لم يكن له دين يعصمه ، وخوف من الله يسدده ، أحكم السرقة حتى لا تكاد تكتشف ، وحتى إنك لو وضعت أمامك النسخة الأصلية من الكتاب والنسخة المسروقة ، لم تستطع أن تفرق بينهما ، فالورق هو الورق ، والحرف والحبر والتجليد — كل ذلك سواء في النسختين . ذلك لتعلموا أنه لا الحضارة ولا العلم ولا الأخلاق ، بالتي تغني عن الدين ، لأنها كلها للناس ، فإن لم ير صاحبها الناس ،

اعرض عنها وتناساها ، واتبع شهوته ومصلحته . أما صاحب الدين فيعلم أنه إن خلا بنفسه ، وغلق عليه الأبواب ، وأسدل الستائر ، واستخفى من الناس ، فإنه لا يستخفي من الله ، وهو معه يسمعه ويراه ، وإن أنكر شهدت عليه يده التي اقترفت بها الذنب ، ورجله التي مشى بها إليه ، وجلده الذي لا يستطيع أن يخلعه ، ويخرج منه ، كما يخرج من ثوبه ، ليلبس ثوباً غيره فلا يعرفه من يبصره .

ولقد حدثت مرة حديث مدرس ، جاءنا ونحن صغار فقال لنا : كيف تشهد اليد ، وتشهد الرجل ؟ هل لها لسان فتتطق ؟

فكاد يدخل علينا الشكوك في ديننا ، والزيف في عقيدتنا ، فكتب الله لنا أن نعيش حتى نسمع أسطوانة الحاكي (أي الفونوغراف) نتكلم ، وشريط المسجل يتكلم ، وصندوق الرائي (أي التلفزيون) يتكلم ... فرجع إلينا إيماننا ، وقلنا : أليس الذي علمنا كيف تنطق الأسطوانة والشريط والصندوق في الدنيا ، بقادر على أن يُنطق اليد والرجل في الآخرة ؟

وهذه الكشوف العلمية ، وهذه المخترعات تقوي الإيمان عند من كان من أهل الإيمان ، ويتخذها الشيطان وسيلة لتضليل من كان من أولياء الشيطان .

وبعد ، فأنا أكتب وأنشر من ستين سنة ، لا أحصي المقالات التي كتبتها ، ولا الجرائد والمجلات التي نشرت ما كتبت فيها ، ولي نحو من خمسين كتاباً ، ولكنني أرجو من الله بهذا الكتاب ما لا أرجوه من كل ما كتبت ، وأسأل الله أن يعينني على إتمامه ، وأن ينفع قارئه به ، ولا يحرمني الثواب عليه .

مكة المكرمة ٢٤ صفر ١٤٠٧ هـ

علي الطنطاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة هذا الكتاب

فى صدر الطبعات السابقة ، فصل عنوانه (قصة هذا الكتاب) أعدت النظر فيه اليوم ، فوجدت أنى لم أسرد فيه القصة من أولها .

ولعل أول القصة كان أيام الحرب الأولى (حرب سنة ١٩١٤) وهى الأيام التى بلغت فيها سنّ التمييز ، وأدركت ما يحيط بى ، فوجدت فى بيت أبى دروساً يلقيها على تلاميذه بعد الفجر ، وقبل العشاء ، وكانت دروساً تختلف عن دروس المدرسة التى كنت أذهب إليها ، وكان التلاميذ فيها مشايخ بعمائم ولحى ، لم يكونوا صغاراً كتلاميذ المدرسة ، فكنت أستمع إليها ولو لم أفهمها ، كما أستمع إلى دروس المدرسة . فكانت دراستى بذلك مزدوجة : درست فى المدارس إلى نهاية الجامعة ، وكنت مع ذلك ألتقى العلم عن العلماء . عن أبى (الشيخ مصطفى الطنطاوى) أولاً ، وكان من صدور الفقهاء فى الشام ، وكان أمين الفتوى عند المفتى الشيخ أبى الخير عابدين ، فلما توفي رحمه الله ، فى شعبان سنة ١٣٤٣هـ قرأت على غيره من العلماء ^(١) .

(١) ثم اتصلت بعدد لا أحصيه الآن من العلماء . منهم من قرأت عليه . ومنهم من حضرت دروسه ، ومنهم من جلست إليه واستفدت منه ، فى الشام ومصر والعراق .

من هؤلاء الشيخ بدر الدين الحسنى المحدث الأكبر ، وقرينه السيد محمد بن جعفر الكتانى ، صاحب الرسالة المستطرفة ، والشيخين المعمرين : الشيخ عبد المحسن الأسطواني ، والشيخ سليمان الجوخدار ، ومفتى الشام الشيخ عطا الكسم ، وخلفه المفتى الشيخ محمد شكرى الأسطواني ، وخلفه المفتى (الطبيب) الشيخ أبو اليسر عابدين ، والسيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وخالى المؤرخ العالم الكاتب محب الدين الخطيب ، والمربي الكبير الشيخ أبو =

فكنت أول من جمع في دمشق بين أسلوبَي الدراسة ، وكان العلماء يومئذ بين (شيخ) لا يعرف من علوم الدنيا الحديثة شيئاً ، وبين (أفندي) لا يفقه من علوم الدين شيئاً ، إلا شيئاً قليلاً لا يغني ولا يجزي .

فتنبهت مبكراً إلى ضرورة عرض الإسلام بأسلوب عصري ، وكتبت في ذلك مقالات ، ونشرت رسائل ، ذكرت منها من نحو خمسين سنة بعض الآراء التي أوردها اليوم ، في هذا الكتاب .

ففي كتابي (الإصلاح الديني ^(٢)) في الصفحة (١١) منه ، عند الكلام على ضرورة التدين ، قلت ما نصّه :

« هل يمكن للإنسان أن يعيش بلا دين ؟ »

= الخیر الميداني ، والعالم المحدث الراوية الشيخ صالح التونسي ، والعالم الأديب السلفي النظار الشيخ محمد بهجة البطار ، والعالم الشيخ توفيق الأيوبي ، والمربي العالم الشيخ أحمد النويلاتي ، والمفسر الشيخ عبد الله العلمي ، والعالم الواعظ الشيخ هاشم الخطيب ، وإمامي العربية وشيخي الأدب : الأستاذ سليم الجندي ، والشيخ عبد القادر المبارك ، وأستاذ الكتاب المؤرخ الكاتب محمد كرد علي منشئ المجمع العلمي في دمشق ، والشيخ المصنف الأديب الشيخ عبد القادر المغربي ، والأديب الراوية الأستاذ عز الدين انتوشي ، والكاتب العقري الأستاذ معروف الأرناؤوط ، والأستاذ الحقوقي العالم شاعر الحنبلي ، والحامي العالم الأستاذ سعيد محاسن ، والعالم المصنف الشيخ عبد القادر بدران الحنبلي ، والعالم المصنف الشيخ محمد الكافي المالكي ، والفقهاء الشيخ نجيب كيوان الحنفي ، والعلامة الشيخ أمين سويد ، والمربي المصنف الشيخ زيد زين العابدين التونسي ، والمربي الشيخ أحمد النويلاتي ، وشيخ علماء العراق الشيخ أمجد الزهاوي ، والعالم الحقوقي الحاج حمدي الأعظمي العراقي ، ومفتي بغداد الشيخ قاسم القيسي ، والفقهاء المؤرخ المحدث الشيخ زاهد الكوثري ، والعلامة الأديب الشيخ البشير الإبراهيمي الجزائري ، والمربي المصلح الشيخ كامل القصاب ، والشيخ عيد السفرجلاني ، وجودت القرآن على شيخ قراء الشام الشيخ محمد الحلواني ، والشيخ عبد الرحيم ديس وزيت ، وولده شيخنا (وتلميذ والدي) الفقيه الحنفي الشيخ عبد الوهاب ، والقارئ المبدع الشيخ عبد الله المنجد ، وخلق غيرهم كثير أسأل الله لهم الرحمة والغفران ، من ذكرت منهم هنا ، ومن غاب الآن اسمه عن ذاكرتي ، وأظن أنني لو عددتهم لأربي عددهم على المئة جزاهم الله خيراً .

(٢) المطبوع في دمشق سنة ١٣٤٨ هـ وهو الجزء الأول من (رسائل في سبيل الإصلاح) التي كان يصورها أصداء ، وألفت في الكلام عنها كتب ، منها كتاب (الإفصاح عن رسائل الإصلاح) للشيخ أحمد الصابوني الحلبي .

لا فرق بين هذا السؤال وبين قولك : « هل يمكن للإنسان أن يعيش بالمادة وحدها ، وينبذ كل ما وراءها حتى نفسه التي بين جنبيه ، وجهه الذي يجيش به صدره ، وشعوره بالطبيعة وجمالها ، والطيور وتغريدها ، والمقبرة ووحشتها ؟ » .

وبعد أن تحدثت عن عالم المثل الأفلاطونية ، واستشهدت بأقوال (كائت) و (أوغست كونت) و (باستور) و (نيوتن) و (باسكال) و (مالبرانش) و (هارفي) و (غوليه) و (هوكسلي) ذلك لأنني كنت حديث العهد بدراسة الفلسفة ، وكان مكتوباً على غلاف الكتاب (بقلم علي الطنطاوي بكالوريوس في الآداب وفي الفلسفة) .

قلت بعد ذلك ، في الرد على من يدعي أن هذا الكون وجد بالمصادفة ، ما نصّه : « إذا وضعنا في كيس أربع كرات بيضاء وواحدة حمراء ، وسحبنا واحدة منها ، كان احتمال خروج الحمراء واحداً من خمسة ، وإذا وضعنا تسعاً بيضاء وواحدة حمراء ، كان واحداً من عشرة ، فلو وضعنا مالا نهاية له (∞) من البيض كان الاحتمال واحداً من لانهاية ، ولا يقول عاقل إن الحمراء تخرج حتماً من السحب مرة أو مرتين أو مئة مرة .

وهذه الكواكب التي لا نهاية لها ، ليس لها إلا حالة واحدة ، تجعلها تسير بهذا النظام ، ويمتنع بينها الصدام ، فكيف نقول إن هذه الحالة حصلت بالمصادفة من غير مسير حكيم عليم ؟ » .

★ ★ ★

هذا ما قلته من نحو خمسين سنة في كتاب لي مطبوع موجود .

ثم صح العزم مني على إصدار كتاب في هذا الموضوع ، وجعلت عنوانه (لماذا أنا مسلم) ، وأعددت فصوله وأعلنت عنه ، ونشرت مقدمته في رسائل (سيف الإسلام) التي كنت أصدرها سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠) ، ولكن تعذر الطبع ، وضاعت الأصول ، ولم يصدر الكتاب .

ولما ذهبت إلى العراق سنة (١٩٣٦) مدرّساً للأدب العربي في الثانوية المركزية في بغداد ، وكلفت حيناً بتدريس الدين ، جعل الطلاب يسألونني عن كتاب واحد ، يفهمون منه الإسلام ، لا يريدون كتاب تجويد ، ولا كتاب توحيد ، ولا كتاب تفسير ، ولا فقه ولا أصول ، ولا حديث ، ولا مصطلح ، بل كتاباً في الإسلام ، يعرضه كما كان رسول الله ﷺ يعرضه ، على من يفد عليه من العرب (أو الأعراب) فيفهمونه في يوم واحد ، أو في بعض يوم .

فلم أكن أجد مثل هذا الكتاب ، فكتبت في الرسالة ، وكنت من كتابها عشرين سنة كاملة من سنة تأسيسها إلى سنة احتجابها .

كتبت مقالات أدعو فيها العلماء إلى تأليف هذا الكتاب ، وأعدت الدعوة ، فما استجاب لها أحد .

★ ★ ★

ومرت الأيام ، ورأيت الطريق الذي كنت أسلكه وحدي ، أو مع نفر من أمثالي ، منذ أربعين سنة (طريق الجمع بين الإمام بعلم الدين ، والإمام بعلم الدنيا) ، قد كثر بحمد الله سالكوه ، وصاروا عشرات ، ثم صاروا (بحمد الله مرة ثانية) مئات ، ونشأ فيهم من هو أكثر مني علماً ، وأفصح لساناً ، وأكثر إيماناً ، وأفضل في كل شيء ، وألفوا عشرات من الكتب الإسلامية الجيدة ولكن هذا الكتاب لم يؤلف .

وجاءت سنة (١٣٨٧ هـ) ، فنشرت مقالة في (مجلة رابطة العالم الإسلامي) ، عنوانها (تعريف عام بدين الإسلام) تنبّه لها صديقنا معالي الشيخ (محمد عمر توفيق) ، وزير الحج والأوقاف يومئذ ، فكتب للرابطة لتكليفني بتأليف كتاب في هذا الموضوع .

وتنبّه لها صديقنا الشيخ مصطفى العطار ، فكتب لمعالي وزير المعارف الشيخ (حسن بن عبد الله آل الشيخ) ووجدت منه ، ومن معالي الشيخ عبد

الوهاب عبد الواسع (وكان يومئذ وكيل وزارة المعارف) كل التشجيع .

وعملت الصيف كله ، والسنة الجامعية بعده ، لكنني كنتُ أدافع الكسل ، وأشتغل على ملل ، وتجمعت لديّ ثلاثة ظروف كبار ، فيها فصول كاملات ، وفيها قصاصات ومذكرات ، تحتاج إلى تصنيف ، وترتيب ، وعمل كثير .

وجاء الصيف الجديد ، وذهبت إلى عمان ، ومن خوفي على هذه الظروف حملتها بيدي ، وأذكر أنني خرجت من المطار ، ودخلت السيارة لتحملني إلى دار زوج بنتي ، وهي معي .

وشغلت بمتاعب الانتقال ، ومباهج الاستقبال ، ولقاء الأصحاب والآل ، فلم أذكرها إلّا بعد أسبوعين ، فبحثتُ عنها فلم أجدها ، ونفضتُ الدار نفصاً وسألت كل سائق سيارة ، وراجعتُ كل مخفر شرطة ، فلم أصل إلى شيء ، وبقيت أياماً ، وأنا ذاهل متألم ، لا أهنأ بطعام ، ولا أستغرق في منام ، حتى إذا هدأت نفسي ، ورجع لي عقلي ، قررت أن أستعين الله وأبدأ من جديد .

وكنْتُ أنزل في ضاحية من عمان : مكتبتي في دمشق ، وأورقي في مكة ، وما عندي إلا المصحف ، فقلت : لعل هذا هو الخير ، فما أولف هذا الكتاب للفقهاء والعلماء ، بل للشبان ، أعرفهم فيه ما الإسلام ، وكلما أقللت النقل عن الكتب ، وجئت بشيء جديد كان خيراً لهم .

وباشرتُ العمل وأنجزتُ هذا الجزء الأول ، وهو جزء العقيدة ، في عشرة أيام ، وحملتُ مخطوطته معي إلى مكة .

فطبع أولاً في (المدينة) والفضل في طبعه لله ، ثم للأستاذ (عثمان حافظ) . ثم نشرته وزارة المعارف الأردنية ، في عدد خاص من مجلتها (رسالة المعلم) ، وطبعت منه اثني عشر ألف نسخة ، وزعتها على جميع المعلمين والمعلمات ، في المملكة الأردنية ، وكان الفضل في ذلك لله ، ثم

لمعالي وزير المعارف والأوقاف السابق الدكتور (إسحاق الفرحان) وكان يومئذ مدير دائرة الكتب والمناهج في الوزارة ، ولمعالي وزيرها يومئذ الأستاذ بشير الصباغ ، وللأخ الدكتور الشيخ إبراهيم زيد الكيلاني ، والأخ الأستاذ سليم الرشدان ، ثم نشرته وزارة الدفاع الأردنية ، وكان الفضل في ذلك لمعالي الصديق اللواء (معن أبي نوار) سفير المملكة الآن في لندن ، والصديق أبي أنور العقيد (أحمد العبيدات) ، وقرأه أفراد الجيش الأردني .

ثم قامت مؤسسة الرسالة في بيروت بطبعه أولاً طبعة رخيصة ، ثم عادت فطبعته طبعة أنيقة . فهذه الطبعة التي أقدم لها هذه المقدمة هي في الواقع (الطبعة السادسة) من الكتاب .

أما الجزء الثاني والثالث اللذين أرجو أن أتكلم فيهما عن الإسلام ، وعن الإحسان (أي السلوك الإسلامي) ؛ فأنا والله في خجل من القراءة ، وعذري أن القلوب بيد الله ، والله هو باعث الهمم ، ومنشئ العزائم ، وقد والله ضعفت همتي ، ووهن العزم مني ، ولقد كنتُ في شبابي في توثب دائم ، أكتب وألتمس الناشر ، على قلة البضاعة ، وضحالة التفكير ، والآن حين نضج الفكر ، واختمرت المعلومات ، وكثر الناشرون ، لم أعد أقوى على العمل . فإن ألهم الله واحداً من القراء ودعا لي بظهر الغيب بأن يسهل الله عليّ كتابة الجزأين ، كتبتهما بتوفيق الله وعونه كما كتبتُ الأول في عشرة أيام .

ولكن متى تجيء هذه الأيام العشرة ؟ العلم عند الله .

★ ★ ★

ومن الإنصاف أن أذكر أن جماعة من إخواننا قد أَلَّفوا كتباً في تلخيص الإسلام ، منهم أخي وابن شيعي الأستاذ محمد المبارك ، الذي عمل على تدريس هذا التلخيص في الجامعات باسم مادة (نظام الإسلام) ، وشارك في وضع مناهجه ، وأَلَّف فيه كتباً ثلاثة .

وَأَلَّفوا كتباً في العقيدة ، كل كتاب له أسلوب ، وله طريقة ، منهم أخي

الأستاذ محمد القاسمي ، وأخي الأستاذ الدكتور سعيد ابن الملا رمضان البوطي ، وأخي الأستاذ عبد الرحمن ابن الشيخ حسن جنبكة حفظه الله وحفظ هؤلاء الإخوان ، وقواهم وأمدّهم بعونه .

هذا ، وأنا أرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب ، وأن يكون زاداً لي يوم لا زاد إلا التقوى وصالح الأعمال . ولقد ذكرت في مقدمة الطبعة السابقة ، أنني أكتب من نحو خمسين سنة (من سنة ١٣٤٧ هـ) ، والمطبوع مما كتبت يزيد على أحد عشر ألف صفحة ، وأن لي أكثر من أربعين كتاباً ما بين رسالة صغيرة وكتاب كبير ، وأني أحاضر في النوادي من سنة (١٣٤٥ هـ) ، وأتحدث في الإذاعات بلا انقطاع من يوم أنشئت محطة الشرق الأدنى في يافا ، قبل الحرب الثانية ، وأن لدي الآن أصول أحد عشر كتاباً لا تحتاج إلا إلى عمل قليل لتقدم للمطبعة .

وأنا أَرْضَى أن أنزل عن هذا كله . ويوفق الله إلى إكمال هذا الكتاب ، وإكمال كتاب (ذكريات نصف قرن) الذي أروي فيه خبر ما رأيت وما سمعت ، من تبدل الدول ، وتحول الأحوال ، ومن لقيت من الرجال ، فلقد شهدت في الشام حكم العثمانيين ، وحكم الشريف فيصل ، وحكم الفرنسيين ، وعهد الاستقلال وما بعده من العهود ، وعشت حيناً من عمري في مصر ، وفي العراق ، وفي لبنان ، وفي السعودية ، ورحلت أقصى المشرق حتى لم يبق بيني وبين (سيدني) في أستراليا ، إلا مرحلة ساعتين بالطيارة ، ورحلت إلى (فولندام) في أقصى الشمال من هولندا ، ورأيت حلواً ورأيت مراً ، وذقت الفقر وذقت الغنى ، ووجدت الوفاء ووجدت الغدر ، وتركت من التلاميذ في سوريا والعراق ولبنان والسعودية آفاً وآفاً ، منهم من صار رئيس جمهورية ، ومنهم من بلغ رئاسة الوزراء ، ومن كان وزيراً أو قاضياً كبيراً ، أو موظفاً أو سفيراً ، أو أستاذاً في الجامعة ، أو مقدماً في عالم المال والأعمال .

ولقد كنت في عمري كله بعيداً عن غمرة المجتمع معتزلاً الناس ، لكنني كنت أرى وأسمع كل شيء ، ولطالما وقفتُ مواقف كانت حديث الناس

وكانت حادث الساعة . وكنت فيها ملء الأسماع والأبصار ، وكان اسمي فيها
على كل لسان .

ولكن ذلك كله مضى ، وسيمضي العمر ، ويذهب الجاه والجمال ، كما
ذهب الشباب ، وينسى الناس كل ما عملت ، وعمل غيري ، ولا يبقى إلا الذي
يحملة معه العبد إلى آخرته ، هذا وحده الذي يبقى وكل ما سواه إلى زوال .

فيارب لا تجعل عملي يذهب سُدى ، واكتب لي بفضلك ورحمتك
بعض الثواب عليه . اللهم اجعل ما كتبت وما خطبت من العلم النافع الذي لا
ينقطع بانقطاع العمر .

اللهم إني استغفرك ، وأتوب إليك

وأسألك حسن الخاتمة ، والوفاء على الإيمان

مكة المكرمة (أجياد) ٢٣ جمادى الأولى ١٣٩٤ هـ

علي الطنطاوي

بَيْنَ يَدَيِ الْكِتَابِ

هذه خواطر ...

قدمتها بين يدي الكتاب .

وأعددت بها للقارئ الجو الذي يعينه

على الدخول فيه .

إذا كنت مسافراً وحدك فرأيت أمامك مفرق طريقين : طريقاً صعباً صاعداً في الجبل ، وطريقاً سهلاً منحدراً إلى السهل . الأول فيه وعورة وحجارة منثورة ، وأشواك وحفر ، يصعب تسلقه ، ويتعسر السير فيه ، ولكن أمامه لوحة نصبتها الحكومة ، فيها : إن هذا الطريق على وعورة أوله ، وصعوبة سلوكه ، هو الطريق الصحيح ، الذي يوصل إلى المدينة الكبيرة والغاية المقصودة .

والثاني معبد ، تظله الأشجار ذوات الأزهار والثمار ، وعلى جانبيه المقاهي^(٣) والملاهي فيها كل ما يلذ القلب ، ويسر العين ، ويشنف^(٤) الأذن ، ولكن عليه لوحة فيها : إنه طريق خطر مهلك ، آخره هوة فيها الموت المحقق ، والهلاك الأكيد .
فأي الطريقين تسلك ؟ .

لا شك أن النفس تميل إلى السهل دون الصعب ، واللذيد دون المؤلم ، وتحب الانطلاق وتكره القيود ، هذه فطرة فطرها الله عليها ، ولو ترك الإنسان نفسه وهواها ، وانقاد لها ، سلك الطريق الثاني ، ولكن العقل يتدخل ، ويوازن بين اللذة القصيرة الحاضرة يعقبها ألم طويل ، والألم العارض المؤقت تكون

(٣) أفهى : داوم على شرب القهوة .

(٤) الشنف القرط (الحلق) وهذا التعبير هنا على المجاز .

بعده لذة باقية ، فيؤثر الأول .

هذا هو مثال طريق الجنة ، وطريق النار ...

طريق النار فيه كل ما هو لذيق ممتع ، تميل إليه النفس ، يدفع إليه الهوى ، فيه النظر إلى الجمال ومفاته ، فيه الاستجابة للشهوة ولذاتها ، فيه أخذ المال من كل طريق ؛ والمال محبوب مرغوب فيه ، وفيه الانطلاق والتحرر ، والنفس تحب الحرية والانطلاق ، وتكره القيود .

وطريق الجنة فيه المشقات والصعاب ، فيه القيود والحدود ، فيه مخالفة النفس ، ومجانبة الهوى ، ولكن عاقبة هذه المشقة المؤقتة في هذا الطريق ، اللذة الدائمة في الآخرة . وثمرة اللذة العارضة في طريق النار ، الألم المستمر في جهنم . كالتلميذ ليالي الامتحان يتألم حين يترك أهله عاكفين على الرائي^(٥) ، يشاهدون ما يسر ويمتع ، وينفرد هو بكتبه ودفاتره ، فيجد بعد هذا الألم لذة النجاح . وكالمريض يصبر أياما على ألم الحمية عن أطيب الطعام فينال بعدها سعادة الصحة .

وضع الله الطريقين أمانا ، ووضع فينا ملكة نفرق بها بينهما ، نعرف بها الخير من الشر ، سواء في ذلك العالم والجاهل ، والكبير والصغير . كل منهم يستريح ضميره إذا عمل الخير ، وينزعج إذا أتى الشر ، بل إن هذه الملكة موجودة حتى في الحيوان : القط إذا ألقى إليه بقطعة اللحم أكلها أمامك ، متمهلاً مطمئناً ، وإذا خطفها ذهب بها بعيداً ، فأكلها على عجل ، وعينه عليك يخاف أن تلحق به ، فتزعمها منه ، أفليس معنى هذا أنه أدرك أن اللقمة الأولى حق له ، والثانية عدوان منه ؟ ..

أليس هذا تفريقاً منه بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ؟ .

والكلب إذا عمل حسناً تمسح بصاحبه ، كأنه يطلب منه المكافأة . وإذا

(٥) الرائي والرأي : كلمتان وضعتما للتلفزيون ، وهما (اسم فاعل) بمعنى (اسم المفعول) على المجاز العقلي ، كقوله تعالى : ﴿ فهو في عيشة راضية .. ﴾ ، أي : في عيشة مرضية .

أَذْنِبْ ذَنْباً نَأَى فَوْقَ بَعِيداً ، يَصْبُصُ بِذَنْبِهِ ، كَأَنَّهُ يَبْدِي الْمَعْذِرَةَ أَوْ يَتَوَقَّعُ الْعِقَابَ .

وهذا تأويل قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

وأقام الله على طريق الجنة دعاءً يدعون إليه ، ويدلّون عليه ، هم الأنبياء . كما قام على طريق النار ، دعاءً يدعون إليه ، ويرغبون فيه هم الشياطين . وجعل العلماء ، ورثة الأنبياء ، فاطمة بنت محمد ماورثت منه مالا ولا عقاراً ، والعلماء ورثوا منه هذه (الدعوة) ، فمن قام بها حق قيامها استحق شرف هذا الميراث .

وهذه (الدعوة) صعبة ، لأن النفس البشرية طبعت على الميل إلى الحرية ، والدين يُقيدها ، وعلى الانطلاق وراء اللذة ، والدين يُمسكها ، فمن يدعو إلى الفسوق والعصيان ، يوافق طبيعتها ، فتمشي معه مشي الماء في المنحدر . اصعد إلى خزان الماء في رأس الجبل ، فاثقبه بضربة معول ، ينزل الماء وأنت واقف حتى يستقر في قرارة الوادي ، فإذا أردت أن تعيده لم يعد إلا بمضخات ، ومشقات ، ونفقات بالغات . والصخرة الراسية في الذروة ، لا تحتاج إلا إلى زحزحتها وإمالتها ، حتى تندرج وتهوي ، تنزل بلا مشقة ولا تعب ، فإذا أردت أن ترجعها ، وجدت المتاعب والمشقات .

وهذا هو مثال الإنسان .

الرفيق الشرير يقول لك : ها هنا امرأة جميلة ترقص عارية فتميل إليها نفسك ، ويدفعك إليها هواك ، ويسوقك إليها ألف شيطان ، فلا تشعر إلا وأنت على بابها . فإذا جاء الواعظ ليصرفك عنها ، صعب عليك الاستجابة إليه ، ومقاومة ميل نفسك ، وهوى قلبك .

فدعاة الشر لا يتعبون ولا يبذلون جهداً ، ولكن التعب وبذل الجهد على دعاة الخير ، وعلى الواعظ . داعي الشر عنده كل ما تميل إليه النفس ، من العورات المكشوفة ، والهوى المحرم ، وكل ما فيه متعة العين والأذن ولذة

القلب والجسد ، أما داعي الخير ، فما عنده إلا المنع .

ترى البنت المتكشفة فتميل إلى اجتلاء محاسنها ، فيقول لك : غض بصرك عنها ، ولا تنظر إليها . ويجد التاجر الربح السهل من الربا ، يناله بلاكد ولا تعب ، والنفس تميل إليه ، فيقول له : دعه وانصرف عنه ، ولا تمد يدك إليه . ويبصر الموظف رفيقه ، يأخذ من الرشوة في دقيقة واحدة ما يعادل مرتبه عن ستة أشهر ، ويتصور ما يكون له بها من سعة ، وما يقضي بها من حاجات ، فيقول له : لا تأخذها ، ولا تستمتع بها .

يقول لهم : اتركوا هذه اللذات الحاضرة المؤكدة ، لتناولوا اللذات الآتية المغيبة . دعوا ما ترون وما تبصرون ، إلى ما لاترون الآن ولا تبصرون .. قاوموا ميل نفوسكم ، وهوى قلوبكم ، وذلك كله ثقل على النفس ، ولا تنكروا وصفي الدين بأنه ثقل ، فإن الله سماه بذلك في القرآن ، فقال : ﴿ سُلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ . وكل المعالي ثقلات على النفس ، ترك التلميذ الراني والإقبال على الدرس ثقل ، وترك العالم مجلس التسلية والاشتغال بالقراءة والإقراء ثقل ، وترك النائم فراشه والنهوض إلى صلاة الفجر ثقل ، وهجر الرجل زوجه وولده ومشيه إلى الجهاد ثقل .

لذلك تجد الطالحين أكثر من الصالحين ، والغافلين السادرين في الغي أكثر من الذاكرين السالكين سبيل الرشاد ، ولذلك كان أتباع الكثرة بلا بصر ولا دليل ، يُضِلُّ فاعله في أكثر الأحيان .. ﴿ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . ولولا أن القلة والندرة ، من صفات السموّ والرفعة ، ما كان الألماس ^(٦) نادراً ، والفحم كثيراً موفوراً ، ولا كان العباقره والنابقون ، والأبطال المتميزون ، قلة في الناس .

إن الأنبياء وورثتهم من صالحي العلماء هم الدعاة إلى طريق الجنة ،

(٦) الذي جاء في أكثر كتب اللغة : أن لامها أصلية ، وذلك خلافاً لما في (القاموس المحيط) للفيروز ابادي .

والشياطين وأعوانهم من الفاسدين المفسدين من الناس ، هم الدعاة إلى طريق النار . وقد جعل فينا — في داخلنا — أنصاراً لهؤلاء وأنصاراً لهؤلاء ، في داخلنا حزب هو مع الأنبياء ، وحزب هو حزب الشياطين في النفس الأمانة بالسوء .

تقولون : ما العقل وما النفس ؟ ولست أدعي أنني أضع لكل منهما حدوداً ظاهرة ، وأميزها تمييزاً واضحاً . فإن هذه الأمور ، لاتزال في ظلمات جهلنا بها ، لم يستطع العلم أن يضيء جوانبها . كلنا يقول : (قلت لنفسي) و (قال لي عقلي) ، فما أنت وما نفسك ؟ وما نفسك وما عقلك ؟ لم يتضح ذلك لنا بعد (٧) ، فلست أكشف هنا المجهول ، ولكن أذكر بمثال مشاهد معلوم :

تكون نائماً في ليالي الشتاء ، متمتعاً بدفء الفراش ، ولذة المنام ، فتسمع قرع المنبه يدعوك إلى الصلاة ، فتحسّ صوتاً من داخلك يقول لك : (قم إلى الصلاة) . فإذا جئت تقوم ، سمعت صوتاً آخر ، يقول لك : (نم قليلاً) . فيعود الصوت الأول يقول : (الصلاة خير من النوم) . فيقول الثاني :

(٧) إذا قلت (أنا) فإن جسدي جزء من الـ (أنا) ، ولكن ليس كل الـ (أنا) لأن المرء قد تبتر يده ورجلاه ولا تنقص الـ (أنا) بالنسبة إليه ، ونفسي — أي ميولي وعواطفني ولذاتي وآلامي — جزء من الـ (أنا) وليس كل الـ (أنا) ، لأن المشاهد أن الإنسان يبدل عواطفه وميوله ، وأن ما يلذني اليوم وأنا على عتبة السبعين ، ما كان يلذني وأنا شاب ، وما كان يؤلمني وأنا شاب ، لم يعد يؤلمني اليوم . فالجسد إذن يتبدل — حتى لا تبقى فيه خلية مما كان فيه قبل سنين — والنفس تتبدل آمالها وآلامها — فما الشيء الذي لا يتبدل في . والذي هو (أنا) على التحقيق ؟ هو الروح . وما الروح ؟

الله أطلعنا على كثير من وظائف أعضاء الجسم وأسرارها ، وأمراضها وعلاجها . وعلى كثير من أحوال النفس وعوارضها وأمراضها ، وقال لنا إن من النفوس : الأمانة بالسوء ، واللؤامة ، والمطمئنة ، وإن النفس ذائقة الموت ، ولكنه لم يطلعنا على شيء من أحوال الروح لأنها من أمر ربي . الروح لا تخضع لقيود الزمان والمكان . فقد ينالم النائم ربع ساعة أمامك ، فيرى أنه سافر إلى أميركا أو الهند ، وعاش عشرين أو ثلاثين سنة ، وأحس بأقصى السرور أو بعمتهى الألم . فكيف دخلت عشرون سنة في عشرين دقيقة ؟ كيف تداخل المكانان ؟ هذا مثال لعذاب القبر والنعيم . الروح لا يؤثر فيها المرض ولا الصحة ، الروح هي التي كانت موجودة قبل ارتباطها بهذا الجسد وبهذه النفس ، وستبقى بعد تحليل الجسد ، وفناء النفس — فأنا إذن الروح — وقد مدت لي هذه المعاني وأنا أعد الكتاب للطبعة الخامسة .

(النوم لذيد ، والوقت متسع ، فتأخر دقائق) . ولا يزال الصوتان يتعاقبان ، تعاقب دقات الساعة : (نم . قم . نم . قم ..)^(٨) . هذا هو العقل ، وهذه هي النفس . وهذا مثال يتكرر آلاف المرات ، في آلاف الصور ، كلما عرض للمرء مثل هذا الموقف فوقف أمام لذه محرمة تدعوه نفسه إلى غشيانها ، وكان في قلبه إيمان ، يدفع عقله إلى منعه منها ، وعلى مقدار ما يكون من انتصار العقل ، تكون قوة هذا الإيمان .

وليس معنى هذا أن ينتصر العقل دائماً ، وأن لا يقارب المسلم المعاصي أبداً . فالإسلام دين الفطرة ، دين الواقع ، والواقع أن الله خلق خلقاً للطاعة الخالصة ، ولمحض العبادة ، هم (الملائكة) ، ولم يجعلنا الله ملائكة ، وخلق خلقاً شأنهم المعصية والكفر هم (الشياطين) ، ولم يجعلنا كالشياطين ، وخلق خلقاً لم يعطهم عقولاً ولكن غرائز ، فلا يكلفون ولا يسألون ، وهم (البهائم والوحوش) ، ولم يجعلنا الله وحوشاً ولا بهائم .

فما نحن إذن ؟ ما الإنسان ؟

الإنسان مخلوق متميز ، فيه شيء من الملائكة ، وشيء من الشياطين ، وشيء من البهائم والوحوش ، فإذا استغرق في العبادة ، وصفا قلبه إلى الله عند المناجاة ، وذاق حلاوة الإيمان في لحظات التجلي ، غلبت عليه في هذه الحال الصفة الملكية ، فأشبه الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فإذا جحد خالقه ، وأنكر ربه ، فكفر به ، أو أشرك معه في عبادته غيره ، غلبت عليه في هذه الحال الصفة الشيطانية .

وإذا عصف به الغضب ، فأوتر أعصابه ، وألهب دمه ، وشد عضلاته ،

(٨) ويحس مثل ذلك من يريد القفز من فوق حفرة أو ساقية ، وهو يرجو الوصول ويخشى السقوط ، ويسمع من نفسه صوتين يتعاقبان : ثب .. ارجع ، ثب .. ارجع . فإن وثب عند قول : (ثب) ولم يتردد نجح . وإن تردد حتى جاء قول : (ارجع) ووثب .. سقط ، وهذا مجرب .

فلم يعد له أمنية إلا أن يتمكن من خصمه فيعضه بأسنانه ، وينشب فيه أظافره ، ويطبق على عنقه بأصابعه ، فيخنقه خنقاً ثم يدعسه دعساً ، غلبت عليه في هذه الحال الصفة الوحشية ، فلم يبق بينه وبين النمر والفهد كبير فرق ، وإذا عضه الجوع ، وبرّح به العطش ، وانحصرت آماله ، في رغبة يملأ معدته ، وكأس تبل صداه ، أو تملكته الشهوة ، وسيطرت على نفسه (الرغبة الجنسية) فعلا بها دمه ، واشتعلت بها عروقه ، وامتلأ ذهنه بخيالات الشبق وأمانيه ، غلبت عليه في هذه الحال الصفة البهيمية ، فكان كالفحل أو الحصان ، أو ماشئت من أصناف الحيوان .

هذه حقيقة الإنسان ، فيه الاستعداد للخير ، والاستعداد للشر ، أعطاه الله الأمرين ، ومنحه العقل الذى يميز به بينهما ، والإرادة التي يستطيع بها أن يحقق أحدهما ، فإن أحسن استعمال عقله فى التمييز ، وأحسن استعمال إرادته فى التنفيذ ، وتّمتى استعدادة للخير ، حتى تخلق به وأنجزه ، كان فى الآخرة من السعداء . وإن كانت الأخرى ، كان من المعذنين .

صحيح أن النفس مطبوعة على الحرية ، والدين قيد ، ولكن لابدّ من هذا القيد ، ولو تركناها تأتى الفواحش كما تشاء انطلاقاً من طبع الحرية فيها ، لصار المجتمع (مارستاناً) كبيراً ، لأن الحرية المطلقة للمجانين ، المجنون يفعل كل ما يخطر على باله ، يمشي فى الطريق عارياً ، ويركب على كتفي سائق السيارة العامة ، ويستحسن ثوبك فيأخذه من فوق كتفيك ، وتعجبه ابتكت فيطلبها منك بحق الغرام ، لا بشرعة الإسلام .

المجنون هو الحر الحرية المطلقة ، وأما العاقل ، فإن عقله يقيد حريته . وما العقل ؟ إنه قيد ، إن لفظه مشتق من الأصل الذى اشتق منه (العقل) ، أي الحبلى الذى يقيد به الجمل . والحكمة ، قريب المعنى ، من (حَكَمَة الدابة) وهي كذلك قيد ، والحضارة قيد ، لأنها لا تدعك تفعل ما تريد ، بل توجب عليك مراعاة حقوق الناس وأعراف المجتمع . والعدالة قيد ، لأنها تضع نهاية لحريتك ، حيث تبدأ حرية جارك .

ثم إن المعاصي لذيدة ، لأنها توافق طبيعة النفس ، إنك تجد لذة في سماع الغيبة والمشاركة فيها ، لأنها تشعر بك بأنك خير من هذا الذي يذكرونه بالسوء وأفضل ، والسرقة لذيدة لأن فيها امتلاك المال بلا كد ولا نصب ، والزنا لذيد لأن فيه إعطاء النفس هواها ، وإنالتهام مشتهاها ، والغش في الامتحان لذيد ، لأنه يوصل إلى النجاح بلا جهد ، والهرب من الواجب — مهما كان — لذيد على النفس ، لأن فيه الراحة والكسل .

ولكن الإنسان حين يفكر ويستعمل عقله ، يجد أن هذه الحرية المؤقتة لا تساوي ما بعدها من سجن في جهنم طويل ، وهذه اللذة المحرمة ، لا تعدل ما بعدها من العذاب .

من يرضى أن نجعل بيننا وبينه عهداً ، (اتفاقية عند الكاتب العادل) مدتها سنة ، نعطيه خلالها كل ما يطلب من مال ، ونسكنه في القصر الذي يريد ، في البلد الذي يختار ، ونزوجه بمن شاء من النساء ، مثنى وثلاث ورباع ، ولو طلق كل عشية واحدة ، وتزوج كل صباح أخرى ، ولا نمنع عنه شيئاً يريده ، ولكننا إذا انقضت السنة ، علقناه من عنقه على المشنقة حتى يموت ؟ ألا يقول : « تعساً وبعداً للذة سنة بعدها الموت ؟ » ألا يتصور نفسه ساعة يعلق على المشنقة ، فيرى أنه لم يبق في يده شيء منها ؟ مع أن ألم الشنق بضع دقيقة ، وعذاب الآخرة دهر طويل .

ليس منا أحد لم يقارف في عمره معصية ، ولم يجد لهذه المعصية لذة ، أقلها أنه أثر متعة الفراش مرة على القيام لصلاة الفجر ، فماذا بقي في أيدينا الآن من هذه اللذة التي أحسنا بها قبل عشر سنين ؟ وليس منا أحد لم يكره نفسه على أداء طاعة ، ولم يحمل لهذه الطاعة ألماً ، أقله الجوع والعطش في رمضان ، فماذا بقي في نفوسنا الآن ، من ألم الجوع في رمضان ، الذي جاء من عشر سنين ؟ لاشيء .

ذهبت لذات المعاصي وبقي عقابها ، وذهبت آلام الطاعات وبقي

ثوابها .

وساعة الموت ، ماالذي يبقى لنا — تلك الساعة — من جميع اللذائذ التي ذقناها ، والآلام التي حملناها ؟

إن كل مؤمن يريد أن يتوب ويرجع إلى الله ، ولكنه يؤجل ويسوف ، أنا كنت أقول : إذ حججت تبت وأنبت ، ثم رأيت أنني حججت وما تبت ، وكنت أقول : إذا بلغت الأربعين تبت ، فبلغتها وما تبت ، وجاوزت الستين وما تبت ، وشبت وما تبت ، ليس معنى هذا أنني مقيم على المحرمات ، مرتكب للفواحش ، لا وبحمد الله . ولكن معناه ، أن الإنسان يرجو لنفسه الصلاح ، ولكنه يسوف ، يظن أن في الأجل فسحة ، يحسب أن العمر طويل ، فيرى الموت قد طرقة فجأة . وقد رأيت أنا الموت مرتين ، وعرفت ما شعور الميت ، لقد ندمت على كل دقيقة أضعتها في غير طاعة ... إي والله . فلما نجوت ، بقيت على هذا الشعور شهوراً ، صرت فيها صالحاً ، ثم انغمست مرة ثانية في غمرة الحياة ، ونسيت .. نسيت الموت .

كلنا ننسى الموت ، نرى الأموات يمرون بنا كل يوم ، ولكن لا نتصور أننا سنموت . نقف في صلاة الجنازة ونحن نفكر في الدنيا ، يظن كل واحد منا أن الموت كتب على الناس كلهم إلا عليه ، مع أن الإنسان يعلم أن الدنيا مولية عنه ، وأنه مؤل هو عنها .

مهما عاش الإنسان فهو ميت ، ليعش ستين سنة ، ليعش سبعين ، ليعش مئة سنة ، ألا تنقضي ؟ ألا تعرفون من عاش مئة سنة ثم مات ؟ نوح لبث يدعو قومه تسعمئة وخمسين سنة . فأين نوح الآن ؟ هل بقيت له الدنيا ؟ هل سلم من الموت ؟ فلماذا لانفكر في الموت ، ونستعد له ، إن كان لابد منه ؟

من كانت أمامه سفرة لايعرف موعدها ألا يتهياً لها ، حتى يكون جاهزاً ، فإذا دعي أجاب ؟ رأيت (وكنت الصيف الماضي في عمان) المعلمين الأردنيين ، الذين تعاقدوا مع المملكة العربية السعودية للعمل فيها ، وقد خبروهم أن الطائرات تنقلهم تباعاً ، فليستعدوا ، فمن أنجز جواز سفره ،

وأكمل حزم متاعه ، وودع أهله ، ووضع إلى جنبه ثيابه ؛ فإنه يلبي في أي ساعة يدعى فيها ، فيلبس ثيابه ويمضي إلى المطار . ومن أهمل وأجل ، حتى إذا دعي قال لهم : أمهلوني حتى أنزل إلى السوق فأشتري متاعي ، وأذهب إلى القرية فأودع أهلي ، وأراجع الحكومة لاستخراج جوازي ؟ لم يمهله ، بل ذهبوا وتركوه . ولكن ملك الموت إذا جاء لا يتركه ويذهب ، بل يأخذه كرها ، يأخذه ولو كان آيياً ، لايمهله ساعة ، ولا دقيقة ، ولا لمحة ، ولا يملك أن يمهله . وليس يعرف أحد منا متى يأتي ليأخذه ملك الموت .

وما الموت ؟ ما حقيقته ؟ إن لحياة الإنسان مراحل ، فمرحلة وهو جنين في بطن أمه ، ومرحلة وهو في هذه الدنيا ، ومرحلة وهو في البرزخ بين الدنيا والآخرة ، من يوم موته إلى يوم القيامة ، والمرحلة الدائمة وهي الحياة الحقيقية ، مرحلة الآخرة . ونسبة كل مرحلة لما قبلها كنسبة ما بعدها إليها .

إن سعة هذه الدنيا بالنسبة لضيق بطن الأم ، كسعة البرزخ بالنسبة لهذه الدنيا ، وسعة الآخرة بالنسبة للبرزخ . إن الجنين يحسب دنياه هذا البطن ، ولو عقل وفكر ، وسئل وأجاب ، لقال بأن خروجه منه موت محقق ، ولو كان في البطن توأمان ، فولد أحدهما قبل الآخر ، ورآه نزل قبله ، ففارقه وقد كان معه ، لقال بأنه مات ، ودفن في الأعماق . ولو رأى المشيمة التي كانت من جسده ، ملقاة مع القمامة لظن بأنها هي أخوه ، وبكى عليها ، كما تبكي الأم حين ترى جسد ولدها الذي كانت تخشى عليه مس الغبار قد أودع التراب ، لاتدري أن هذا الجسد كالمشيمة ، قميص توسخ وألقي ، ثوب انتهى وقته ، وانقضت الحاجة إليه .

هذا هو الموت ، إنه (ولادة جديدة) ، خروج إلى مرحلة أطول وأرحب من مراحل الحياة ، وما هذه الدنيا إلا طريق ، حياتنا فيها كحياة المهاجر إلى أميركا ، إنه يحسن اختيار غرفته في الباخرة ، ويحرص على راحته فيها ، ويهتم بها ، ولكن هل ينفق ماله كله على تجديد فرشها ، ونقش جدرانها ، حتى لا يبقى معه شيء فيصل إلى أميركا مفلساً خالي الوفاض ؟ أم يقول : إن مدة

بقائي في هذه الغرفة أسبوعاً ، فأنا أَرْضَى فيه بما تيسر ، وأمشي فيه الحال ، وأدخر المال لإعداد الدار التي سأسكنها في أميركا ؛ لأن فيها المقام ؟

أتعرفون مامثال الدنيا والآخرة ؟ أعلنت أميركا مرة عن تجربة ذرية تجريها في جزيرة صغيرة من جزر البحر الهادي ، وكان ذلك من خمس عشرة سنة (أو نحوها) ، وكان في الجزيرة بضع مئات من السكان من صيادي الأسماك ، فطلبت إليهم إخلاء مساكنهم ، على أن تعوضهم عنها وعما فيها ، بيوت مفروشة ، في أي بلد يريدون من البلدان ، على أن يعلنوا استعدادهم لإخلائها ، وإحصاءهم لما فيها ، قبل موعد كذا (وحددت لهم موعداً) ، ثم تأتي الطيارات فتحملهم من الجزيرة .

فمنهم من أعلن الاستعداد للإخلاء ، وقدم الإحصاء قبل الموعد ، ومنهم من أهمل وأجل حتى قرب الموعد ، ومنهم من قال هذا كله كذب . مافي الوجود مكان اسمه أميركا ، وما الدنيا إلا هذه الجزيرة ، ولسنا نتركها ، ولا نرضى أن نفارقها ، ونسي أن الجزيرة ستسف كلها فتكون أثراً بعد أن كانت عيناً .

هذا مثل الدنيا ، والأول مثل المؤمن الذي يفكر في آخرته ، ويستعد بالتوبة والطاعة دائماً للقاء ربه ، والثاني مثل المؤمن المقصر العاصي ، والثالث مثل المادي الكافر ، الذي يقول : إنما هي حياتنا الدنيا ، لا حياة بعدها ، وإن الموت نوم طويل ، وراحة دائمة ، وفناء محقق .

وليس معنى هذا أن الإسلام يطلب من المسلم أن يزهد في الدنيا مرة واحدة ، وينفض أصابعه منها ، ولا أن يسكن المساجد فلا يخرج منها ، ولا أن يأوي إلى مغارة يمضي حياته فيها ، لا ... بل إن الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا في الحضارة الخيرة سادة المتحضرين ، وفي المال أغني الأغنياء ، وفي العلم — العلم كله — أعلم العلماء ، وأن يعرف كل مسلم حق جسده عليه بالغذاء والرياضة ، وحق نفسه بالتسلية والإجمام والمتعة بغير الحرام ، وحق أهله

بالرعاية وحسن الصحبة ، وحق ولده بالتربية والتوجيه والعطف ، وحق المجتمع بالعمل على كل ما يصلحه . كما يعرف حق الله بالتوحيد وبالطاعة .

يجمع المال ولكن من الحلال ، ويستمتع بالطيبات المباحة ، ويكون في الدنيا على أحسن ما يكون عليه أهلها ، بشرط أن يبقى صحيح التوحيد ، لا يداخل إيمانه شرك ظاهر أو خفي ، صحيح الإسلام ، يدع المحرمات ، ويأتي الفرائض ، وأن يكون المال في يده لا في قلبه ، لا يكون اعتماده عليه ، بل يكون اعتماده على ربه ، وأن يكون رضا الله هو مقصده ومبتغاه .



دين الإسلام

ما الإسلام ؟

قلت مرة لتلاميذي : « لو جاءكم رجل أجنبي ، فقال لكم : إن لديه ساعة من الزمن ، يريد أن يفهم فيها ما الإسلام ، فكيف تفهمونه الإسلام في ساعة » . قالوا : « هذا مستحيل ، ولا بد له أن يدرس التوحيد والتجويد ، والتفسير والحديث والفقه والأصول ، ويدخل في مشكلات ومسائل ، لا يخرج منها في خمس سنين » . قلت : « سبحان الله أما كان الأعرابي يقدم على رسول الله ﷺ ، فيلبث عنده يوماً أو بعض يوم ، فيعرف الإسلام ويحمله إلى قومه ، فيكون لهم مرشداً ومعلماً ، ويكون للإسلام داعياً ومبلغاً ؟ وأبلغ من هذا ، أما شرح الرسول الدين كله (في حديث سؤال جبريل) بثلاث جمل ، تكلم فيها عن : الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ؟ فلماذا لا نشرحه اليوم في ساعة ؟ .. » .

فما الإسلام ؟ وكيف يكون الدخول فيه ؟

كل نحلة من النحل الصحيحة والباطلة ، وكل جمعية من الجمعيات النافعة والضارة ، وكل حزب من الأحزاب الخيرة والشريرة ، لكل ذلك (مبادئ) وأسس فكرية ، ومسائل عقائدية ^(٩) ، تحدد غايته وتوجه سيره ، وتكون كال دستور لأعضائه وأتباعه .

ومن أراد أن ينتسب إلى واحد منها ، نظر أولاً إلى هذه (المبادئ) ،

(٩) تجوز النسبة إلى الجمع إذا جرى مجرى العلم ، فتقول : (حقوق دولية) ، و (قوانين عمالية) ، و (مظاهرات طلابية) ، و (مسائل عقائدية) . كما قالوا كذلك : (عالم أصولي) ، و (رجل أنصاري) ، و (مائدة ملوكية) ، و (رسائل إخوانية) ..

فإن ارتضاها واعتقد صحتها ، وقبل بها بفكره الواعي وب عقله الباطن ، ولم يبق عنده شك فيها ، طلب (الانتساب) إلى الجمعية ، فانتظم في سلك أعضائها ومتبعيها ، ووجب عليه أن يقوم بالأعمال التي يلزمه بها دستورها ، ويدفع رسم الاشتراك الذي يحدده نظامها ، وكان عليه (بعد ذلك) أن يدل بسلوكه على إخلاصه لمبادئها ، فيتذكر هذه المبادئ دائماً ، فلا يأتي من الأعمال ما يخالفها ، بل يكون بأخلاقه وسلوكه ، مثلاً حسناً عليها ، وداعية فعلياً لها .

فالعنصرية في الجمعية هي : (علم) بنظامها ، و (اعتقاد) بمبادئها (إطاعة) لأحكامها ، و (سلوك) في الحياة موافق لها . هذا وضع عام ، ينطبق على الإسلام . فمن أراد أن يدخل في دين الإسلام عليه (أولاً) أن يقبل أسسه العقلية ، وأن يصدق بها تصديقاً جازماً ، حتى تكون له (عقيدة) . وهذه الأسس تلخص في أن يعتقد أن هذا العالم المادي ليس كل شيء ، وأن هذه الحياة الدنيا ليست هي الحياة كلها . فالإنسان كان موجوداً قبل أن يولد ، وسيظل موجوداً بعد أن يموت ، وأنه لم يوجد نفسه ، بل وجد قبل أن يعرف نفسه ، ولم توجد هذه الجمادات من حوله ، لأنه عاقل ولا عقل لها ، بل أوجده وأوجد هذه العوالم كلها من العدم إله واحد ، هو وحده الذي يحيي ويميت ، وهو الذي خلق كل شيء ، وإن شاء أفناه ، وذهب به ، وهذا الإله لا يشبه شيئاً مما في العوالم ، قديم لا أول له ، باق لا آخر له ، قادر لا حدود لقدرته ، عالم لا يخفى شيء عن علمه ، عادل ولكن لا تقاس عدالته المطلقة بمقاييس العدالة البشرية ، هو الذي وضع نواميس الكون التي نسميها (قوانين الطبيعة) ، وجعل كل شيء فيها بمقدار ، وحدد من الأزل جزئياته وأنواعه ، وما يطرأ عليه (على الأحياء وعلى الجمادات) من حركة وسكون ، وثبات وتحول ، وفعل وترك ، ومنح الإنسان عقلاً يحكم به على كثير من الأمور ، التي جعلها خاضعة لتصرفه ، وأعطاه عقلاً يختار به ما يريد ، وإرادة يحقق بها ما يختار ، وجعل بعد هذه الحياة المؤقتة حياة دائمة في الآخرة ، فيها يكافأ المحسن في الجنة ، ويعاقب المسيء في جهنم .

وهذا الإله واحد أحد ، لا شريك له يعبد معه ، ولا وسيط يقرب إليه ويشفع عنده بلا إذنه ، فالعبادة له وحده خالصة ، بكل مظاهرها .

له مخلوقات مادية ظاهرة لنا ، تدرك بالحواس ، ومخلوقات مغبية عنا ، بعضها جماد وبعضها حي مكلف ، ومن الأحياء ماهو خالص للخير المحض ، (وهم الملائكة) ، ومنها ما هو مخصوص بالبشر المحض (وهم الشياطين)^(١٠) ، وماهو مختلط ، منه الخير والشرير ، والصالح والطالح (وهم الإنس والجن) . وأنه يختار ناساً من البشر ، ينزل عليهم الملك بالشرع الإلهي ليلغوه البشر ، وهؤلاء هم الرسل .

وأن هذه الشرائع تتضمنها كتب وصحائف أنزلت من السماء ، ينسخ المتأخر منها ما تقدمه أو يعدله . وأن آخر هذه الكتب هو القرآن ، وقد حرفت الكتب والصحف قبله ، أو ضاعت ونسيت ، وبقي هو سالما من التحريف والضياح ، وأن آخر هؤلاء الرسل والأنبياء هو محمد بن عبد الله العربي القرشي ، ختمت به الرسائل ، وبدينه الأديان ، فلا نبي بعده .

فالقرآن هو دستور الإسلام ، فمن صدق بأنه من عند الله ، وآمن به جملة وتفصيلا ، سمي (مؤمنا) . والإيمان بهذا المعنى ، لا يطلع عليه إلا الله ، لأن البشر لا يشقون قلوب الناس ، ولا يعلمون مافيهما ، لذلك وجب عليه ليعده المسلمون واحداً منهم ، أن يعلن هذا الإيمان بالنطق بلسانه بالشهادتين .

وهما : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله »

فاذا نطق بهما صار مسلماً ، أي : (مواطناً) أصيلاً في دولة الإسلام ، وتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلم ، وقبل بالقيام بجميع الأعمال التي يكلفه بها الإسلام .

وهذه الأعمال (أي العبادات) قليلة ، سهلة ، ليس فيها مشقة بليغة ،

(١٠) والشياطين من الجن .

وليس فيها حرج .

أولها : أن يركع في الصباح ركعتين يناجي فيهما ربه ، يسأله من خيره ، ويعوذ به من عقابه ، وأن يتوضأ قبلهما أي يغسل أطرافه ، أو يغسل جسده كله (إن كانت به جنابة) .

وأن يركع في وسطه أربعاً ، ثم أربعاً ، وأن يركع بعد غياب الشمس ثلاثاً ، وفي أول الليل أربعاً .^(١١)

هذه هي الصلوات المفروضة ، لا يستغرق أداؤها كلها نصف ساعة في اليوم ، لا يشترط لها مكان لا تؤدي إلا فيه ، ولا شخص معين (أي رجل دين) لا تصح إلا معه ، ولا واسطة فيها (ولا في العبادات كلها) بين المسلم وربه .

الثاني : أن في السنة شهراً معيناً ، يقدم فيه المسلم فطوره ، فيجعله في آخر الليل بدلاً من أن يكون في أول النهار ، ويؤخر غداءه إلى ما بعد غروب الشمس ، ويمتنع في النهار عن الطعام والشراب ومعاشرة النساء ، فيكون من ذلك شهر صفاء لنفسه ، وراحة لمعدته ، وتهذيب لحُلقه ، وصحة لجسده ، ويكون هذا الشهر مظهراً من مظاهر الاجتماع على الخير ، والتساوي في العيش .

الثالث : أنه إذا فضل عن نفقات نفسه ، ونفقات عياله ، مقدار من المال مخلود ، بقي سنة كاملة لا يحتاج إليه ، لأنه في غنى عنه ، كلف أن يخرج منه بعد انقضاء السنة ، مبلغ (٢٥٠) في المئة ، للفقراء والمحتاجين ، لا يحس هو بثقلها ، ويكون منها عون بالغ للمحتاج ، وركن وطيد للتضامن الاجتماعي ، وشفاء من داء الفقر ، الذي هو من شر الأدواء .

الرابع : أن الإسلام رتب للمجتمع الإسلامي ، اجتماعات دورية .

اجتماع بمثابة مجالس الحارات ، يعقد خمس مرات في اليوم ، مثل

(١١) وتحديد وقتها وبيان كيفيتها يكون بعد

حصص المدرسة ، هو صلاة الجماعة ، يوثق كل عضو فيه عبوديته لله بالقيام بين يديه ، ويكون من ثماره أن يعين الأقوياء الضعيف ، ويعلم العلماء الجاهل ، ويسعف الأغنياء الفقير . ومدة انعقاده ربع ساعة . فلا يعطل عاملاً عن عمله ، ولا تاجراً عن تجارته ، وإذا تم الاجتماع وتخلف عنه مسلم فصلى في بيته ، لم يعاقب على تخلفه ولكن فاتته ثواب حضوره .

واجتماع لمجالس الأحياء . يعقد مرة في الأسبوع ، هو (صلاة الجمعة) ، ومدة انعقاده أقل من ساعة . وحضوره واجب على الرجال .

واجتماع كمجالس المدينة ، يعقد مرتين في السنة ، وهو (صلاة العيد) . وحضوره ليس على سبيل الإلزام . ومدة انعقاده أقل من ساعة . واجتماع ، هو كالمؤتمر الشعبي العام ، يعقد كل سنة في مكان معين ، هو في الحقيقة دورة توجيهية ورياضية وفكرية ، يكلف المسلم بأن يحضره مرة واحدة في العمر ، إذا قدر على حضوره . وهو (الحج) .

هذه هي (العبادات) الأصلية التي يكلف بها .

ومن العبادات أن يمتنع عن أفعال معينة ، أفعال يجمع عقلاء الدنيا على أنها شر ، وأن الواجب الامتناع عنها ، كالقتل بلا حق ، والتعدي على الناس ، والظلم بأنواعه ، والمسكر الذي يغيب العقل ، والزنا الذي يذهب الأعراض ، ويخلط الأنساب ، والربا ، والكذب ، والغش ، والغدر ، والفرار من الخدمة العسكرية التي يراد منها إعلاء كلمة الله ، ومنها (بل من أشدها) عقوق الوالدين ، والحلف كاذباً ، وشهادة الزور . وأمثال ذلك من الأعمال القبيحة الشريفة ، التي تجتمع العقول على إدراك قبحها وشرها .

وإذا قصر المسلم في القيام ببعض الواجبات ، أو ارتكب بعض المنوعات ، ثم رجع (وتاب) وطلب العفو من الله ، فإن الله يعفو عنه ، وإن لم يتب فإنه يبقى مسلماً معلوداً في المسلمين ، ولكنه يكون (عاصياً) يستحق العقاب في الآخرة ، ولكن عقابه مؤقت ، لا يدوم دوام عقاب الكافر .

أما إذا أنكر بعض المبادئ ، أي العقائد الأصلية ، أو شك فيها ، أو جحد واجبا مجمعاً على وجوبه ، أو حراما مجمعاً على حرمة ، أو أنكر ولو كلمة واحدة من القرآن ، فإنه يخرج من الدين ، ويعتبر مرتداً تنزع عنه الجنسية الإسلامية ، والردة أكبر جريمة في الإسلام ، فهي كالخيانة العظمى في القوانين الحديثة ، جزاؤها (إن لم يرجع عنها ، ويتنصل منها) الموت .

قد يترك المسلم بعض الواجبات ، أو يأتي بعض الممنوعات ، وهو معترف بالوجوب والحرمة ، فيبقى مسلماً ، ولكنه يكون (عاصياً) ، أما الإيمان فلا يتجزأ ، فلو آمن مثلاً بتسع وتسعين عقيدة ، وكفر بواحدة فقط ، كان كافراً .

وقد يكون المسلم غير مؤمن ، كمن انتسب إلى حزب أو جمعية ، وحضر اجتماعاتها ، ودفع اشتراكاتها ، وقام بواجب العضو فيها ، ولكنه لم يقبل بمبادئها ، ولم يقتنع بصحتها ، بل دخل فيها للتجسس عليها ، أو إفساد أمرها .

وهذا هو (المنافق) الذي ينطق ^(١٢) بالشهادتين . ويؤدي العبادات ظاهراً ، ولكنه غير مؤمن بالحقيقة ولا ناج عند الله ، وإن كان عند الناس معتبراً من المسلمين ، لأن الناس لهم الظواهر ، والله وحده يطلع على السرائر والقلوب .

فإذا آمن الإنسان بالأسس الفكرية للإسلام ، وهي التصديق المطلق بالله ، وتنزيهه عن الشريك والوسيط ، وبالملائكة ، وبالرسل ، وبالكتب ، وبالحياة الأخرى ، وبالقدر ، ونطق الشهادتين ، وصلى الفرائض ، وصام رمضان ، وأدى زكاة ماله ؛ إن وجبت عليه الزكاة ، وحج مرة في العمر إن

(١٢) النفاق هو إظهار الإيمان . وإبطان الكفر . وليس منه قوله ﷺ : « آية المنافق ثلاث الخ .. » فمن أخلف الوعد ، وكذب القول ، أو خان الأمانة ، لا يعتبر بهذا وحده كافراً ، وإنما هو نفاق اجتماعي ، غير النفاق الأصلي ، نفاق العقيدة الذي ذكرناه .

استطاع ، وامتنع عن المحرمات المجمع على حرمتها ؛ فهو مسلم مؤمن .
ولكن ثمرة الإيمان لا تظهر منه ، ولا يحس بحلاوته ، ولا يكون مسلماً كاملاً .
حتى يسلك في حياته مسلك المسلم المؤمن . وقد لخص رسول الله ﷺ ،
منهاج هذا السلوك ، بجملة واحدة ، كلمة من جوامع الكلم ، ومن أبلغ مانطق
به بشر .

كلمة تجمع الخير كله ، خير الدنيا ، ومافي عقبه من خير الآخرة .

هي : أن يتذكر المسلم في قيامه وقعوده ، وخلوته وجلوته ، وجده
وهزله ، وفي حالاته كلها ، أن الله مطلع عليه ، وناظر إليه ، فلا يعصيه وهو
يذكر أنه يراه ، ولا يخاف أو يئس وهو يعلم أنه معه ، ولا يشعر بالوحشة وهو
يناجيه ، لا يحس بالحاجة إلى أحد ، وهو يطلب منه ويدعوه ، فإن عصي —
ومن طبيعته أنه يعصي — رجع وتاب ، فتاب الله عليه .

كل ذلك من قوله ﷺ ، في تعريف (الإحسان) : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

هذا هو دين الإسلام بالقول المجمل ، وتفصيله يأتي : (العقيدة) في
هذا الجزء ، و (الإسلام) و (الإحسان) في الأجزاء التالية إن شاء الله .



تعريفات

لا بد لي في هذا الفصل الذي أعرف فيه (العقيدة) من أن أعرض إلى توضيح بعض المصطلحات التي يكثر دورانها على ألسنة العلماء ، وورودها في كتب العقائد ، وهي : (الشك) ، و (الظن) ، و (العلم) ، لأصل منها إلى تعريف (العقيدة) .

(ديكارت) في منهجه المشهور ، ومن قبله (الغزالي) في (المنقذ من الضلال) ، بدأ بالشك ليصلا منه إلى اليقين ، شك ديكارت ، ليتخذ من الشك سبيلا للتحقق ، فما هو الشك ؟

إذا كنت في مكة مثلا ، وسألك سائل : هل في الطائف الآن مطر ؟ لاتستطيع أن تقول : (نعم) ، ولاتستطيع أن تقول : (لا) . لأن من الممكن أن يكون في الطائف في تلك الساعة مطر ، ومن الممكن أن يكون الجو فيها صحوا لامطر فيه ، إمكان وجود المطر خمسون في المئة مثلا ، وإمكان عدمه خمسون ، تساوى الطرفان فلا دليل يرجح الوجود ، ولا دليل يرجح العدم . وهذا هو الشك .

فإن نظرت فأبصرت في جهة الشرق ، (والطائف شرقي مكة) غيوما تلوح على حواشي الأفق من بعيد ، رجح عندك رجحانا خفيفا أن في الطائف مطرا . وهذا الرجحان الخفيف لإمكان الوجود ، هو مايسمونه (الظن) ، فأنت تقول : أظن أن في الطائف الآن مطرا ، فالظن ستون في المئة مثلا (نعم) ، وأربعون (لا) .

فإن رأيت الغمام قد ازداد وتراكم ، واسود وتراكم ، وخرج البرق يلعب

من خلاله ، وازداد ظنك بنزول المطر في الطائف ، فصار لـ (نعم) سبعون أو خمس وسبعون في المئة ، كان هذا ما ينسبه علماءنا بـ (غلبة الظن) ، فأنت تقول لسائلك : يغلب على ظني أن في الطائف الآن مطرا ، فإن أنت ذهبت إلى الطائف ، فرأيت المطر بعينك ، وأحسست به على وجهك ، أيقنت بنزوله ، وعلمائنا يسمون هذا اليقين (علما) .

فصار لكلمة (العلم) معانٍ : (العلم) المطلق الذي يقابل الجهل ، (والعلم) الذي يقابل الفن والفلسفة . فالكيمياء علم ، والفيزياء علم . أما الرسم فهو فن ، والشعر فن . والعلم بهذا المعنى هو الذي تكون غايته الحقيقة ، وأداته العقل ، ووسيلته المحاكمة ، والتجربة ، والاستقراء . والفن هو الذي تكون غايته الجمال ، وأداته الشعور ، ووسيلته الذوق .

(والعلم) الذي يجيء بمعنى اليقين ، ويقابل الشك والظن ، هو الذي نقصده في هذا البحث^(١٣) .

العلم الضروري والعلم النظري :

العلم الذي يحصل بالحس والمشاهدة ، لا يحتاج إلى دليل . الجبل الذي تراه أمامك لا يحتاج إلى إقامة الدليل على وجوده ، إنك تعلم — ضرورة — بأنه موجود ، وكل من يراه (من العقلاء) يعلم أنه موجود .

وهذا ما يسمى (العلم الضروري) ، أما العلم بأن مربع الوتر (في المثلث القائم الزاوية) يساوي مجموع مربعي الضلعين القائمين ، فيحتاج إلى دليل عقلي ، فالعالم أو طالب العلم الذي يصل إلى الدليل ، يعلم هذه الحقيقة ، أما العامي الجاهل فلا يعلمها ، ولا يصدق بها ، مادام لم يطلع على هذا الدليل .

(١٣) أما العلم بالمعنى الخاص : كقولنا (علم النحو) ، و (علم الكيمياء) . فلعلمائنا فيه تعريفات كثيرة ، ولكن أوضح تعريف وأبعده عن التعقيد ، هو ما عرفه به (سارتون) بقوله : « العلم هو مجموعة معارف محققة ومنظمة ... » . فيقوله (معارف) خرجت المشاعر والخيالات ، وبقوله (محققة) خرجت النظريات والفروض ، وبقوله منظمة خرجت المعارف المبعثرة المتفرقة .

ولو رأى المثلث أمامه ، ولو أقيم على كل ضلع منه ، مربع له . وهذا ما يسمى به (العلم النظري) ، وهو الذي لا يحصل إلا بالدليل العقلي .

البديهية والعقيدة :

ومن العلم النظري ، ما يحتاج في الأصل إلى دليل ، ولا يدرك بمجرد الحس والملاحظة ، ولكنه يعم ويشتهر ، حتى يدركه العالم والجاهل ، والكبير والصغير ، وحتى يصير أقرب إلى (العلم الضروري) . مثاله : العلم بأن (الجزء أصغر من الكل) ، الرغيف الناقص أصغر من الرغيف الكامل ، هذه حقيقة هي في الأصل من العلم النظري الذي يحتاج إلى دليل ، ولكنك لا تجد من يشك فيها ، ويطلب الدليل عليها ، فالطفل إذا أخذت منه كف (الشكلاطة) الكامل ، وأعطيته كفا ناقصا لا يقبله ، وإذا حاولت إقناعه بأن هذا أكبر لم يقنع ، لأن كون (الجزء أصغر من الكل) بديهية .

و (مقولة الهوية) — أي كون الشيء هو نفسه — بديهية ، ولو قال لك قائل : « أثبت لي أن هذا القلم الذي تحمله بيدك ليس ملعقة شاي » . تقول له : « هذه بديهية ، لا تحتاج إلى إثبات لأن القلم قلم .. » .

فالبديهيات^(١٤) هي الحقائق العقلية التي يقبلها الناس جميعا ، ولا يطلب أحد عليها دليلا ، فإذا دخلت البديهية العقل الباطن ، واستقرت فيه ، وأثرت في الحدس والشعور ، ووجهت الإنسان في تفكيره (عقله الواعي) ، وفي أعماله ، سميت : (عقيدة) ، وسمي الاعتقاد بها : (إيمانا) .

ولكننا نعرف أن الإنسان يعتقد الحق أحيانا ، ويعتقد الباطل حيناً ، ونشاهد في هذه الأيام ، من أتباع المذاهب المنحرفة ، و (المبادئ) الباطلة ، من امتزج بها قلبا وقالبا ، وتمسك بها ظاهرا وباطنا ، وبذل ماله ونفسه

(١٤) القياس : أن نقول في النسبة إلى البديهية (بدهي) ، ولكن علماءنا استعملوا من القديم كلمة (بدهي) و (طبيعي) ، كما يستعملها جمهور الناس اليوم ، وأنا أؤثر أن استعمل العامي الفصح ، تنبيها على فصاحته ، وقد نهت في حواشي كتبي إلى عشرات وعشرات من هذه الكلمات .

في نصرتها وحمايتها ، فهل نسمي هؤلاء (مؤمنين) ؟

أما إطلاقاً فلا ، ولكن يمكن أن نطلق عليه اسم الإيمان مضاف إلى الباطل الذي يؤمنون به ، على نحو قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْثُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ ؟.

ويمكن إطلاق اسم الإيمان مقيداً بالوصف ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ .

أما (الإيمان) بالمعنى الخاص ، الذي لا ينصرف إذا أطلق إلا إليه ، ولا يدل إلا عليه ، المعنى الذي يراد كلما ورد ذكر الإيمان ومشتقاته ، في الكتاب والسنة ، وعلى ألسنة العلماء ، فهو :

الاعتقاد بالله رباً واحداً .

— ومالكا مختاراً متصرفاً .

— وإلهاً مفرداً بالعبادة ، لا يشرك معه غيره في كل ما هو من جنس العبادة .

— والاعتقاد بكل مألوحى به إلى نبيه ، من : خبر الملائكة ، والرسل ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

وصاحب هذا الاعتقاد هو (المؤمن) ، فإن نقص (شيئاً منه ، أو رده ، أو تردد في تصديقه ، أو شك فيه ، فقد صفة الإيمان ، ولم يعد يعد مع المؤمنين .



(١٥) نقص شيئاً منه بمعنى أنقص .

قواعدُ العقائد^(١٦)

القاعدة الأولى :

مأدركه بحواسي لأشك في أنه موجود .

هذه بديهية عقلية مسلمة ، ولكن المشاهد أني أمشي في الصحراء ساعة الظهيرة ، فأرى بركة ماء ، تلوح ظاهرة للعين ، فإذا جئتها لم أجد إلا التراب لأن الذي رأيته سراب . وأضع القلم المستقيم في كأس الماء ، فأراه منكسرا ، وهو لم ينكسر .

ويكون المرء في سهرة ، الحديث فيها عن الجن والعفاريت ، ثم يذهب إلى داره ، فإن كان الطريق خاليا مظلما ، وكان مخلوع القلب ، واسع الخيال ، رأى أمامه جنيا أو عفريتاً ، فشاهده وأحس بوجوده ، وما ثمة شيء مما

(١٦) استأذن قارئ كتابي : أن أمهد لذكر هذه القواعد بكلمة ليست من موضوع هذا الكتاب ، ولكنها تبين قصتها ، وكيف وصلت إليها . وتفصيل ذلك :

أنني كنت أدرس الأدب العربي في بغداد قبل الحرب الثانية ، فكلفت في النصف الثاني من العام أن أدرس معه الدين ، وكان منهج الدين سورا من تفرآن تفسر وتشرح .. فقبلت ودخلت فإذا الفصل في هرج ومرج ، وكان عهدي به درس الأدب هادئا ساكنا ، وإذا الطلاب يتخلون من درس الدين مسلاة ومضيعة للوقت ، وأدركت أن سبب ذلك ضعف الإيمان في نفوسهم ، فقلت لهم : ارفعوا المصاحف واسمعوا ، وألهمني الله إلهاما مفاجئا ، بلا إعداد سابق بحثا جديدا في الإيمان ، وضعت فيه بعض هذه القواعد ، ونشرت خلاصته في الرسالة سنة (١٩٣٧) أو سنة (١٩٣٨) ، وهو في كتابي : (فكر ومباحث) . ولما كلفت وضع مناهج مدارس الأوقاف في سورية (أيام الوحدة) ، ووضعتها كلها وحدي ، وطبقت كما وضعتها ، أدخلت هذه القواعد في المنهج ، ودللت على ما كتبت ليكون مرجعا . فأخذ أحد المؤلفين في العقائد وادعاه لنفسه ، ووضعه في كتابه ، ولكن لم يهتد إلى ما أريده منه . فمشى في أول الطريق وضاع في آخره . فلما أحلت على المعاش (وكنت مستشار محكمة النقض) ، ذهبت إلى الرياض ، ثم إلى مكة ، أدرس في كلية التربية فيها سنة ١٣٨٤ ، رجعت إلى هذه القواعد ، وزدت فيها حتى بلغت ثمانيا قواعد ، هي التي أذكرها هنا .

رأى ، والسحرة والمشعوذون يعرضون غرائب تراها ولا حقيقة لها .

فالحواس إذن تخطيء ، وتخدع ، وتتوهم ، أو يتوهم صاحبها . فهل أشك لهذا في وجود ما أحس به ؟

لا ، لأنني إن شككت فيما أرى وأسمع وأحس ، تداخلت لدي الحقائق والخيالات . وصرت أنا والمجنون سواء .

ولكن أضيف شرطاً آخر لحصول العلم (أي اليقين) بوجود ما أحسه — هو ألا يحكم العقل بالتجربة السابقة أن الذي أحس به وهم أو خداع حواس ، والعقل يخدع أول مرة ، فيحسب السراب ماء ، فإذا رآه مرة أخرى أدرك أنه سراب . والعقل يحكم بعد أن رأى القلم منكسراً أول مرة ، أنه لا يزال مستقيماً كما كان ، وإن بدا للعين منكسراً ، والأمور التي تخطيء فيها الحواس أو تخدع ، أمور محدودة معلودة معروفة ، لا تبطل القاعدة ولا تؤثر فيها ، ومنها عمل سحرة فرعون ، وما يعمله سحرة (السيرك) في هذه الأيام .

القاعدة الثانية :

هناك أشياء ماشاهدناها ولا أحسنا بها ، ولكننا نوقن بوجودها كما نوقن بوجود ما نشاهده ونحس به ، نوقن بوجود الهند والبرازيل ، ولم نزرهما ولم نرها ، ونوقن بأن (الاسكندر المقدوني) فتح بلاد فارس ، (والوليد بن عبد الملك) بنى الجامع الأموي ، ولم نحضر حروب الاسكندر ، ولا شهدنا بناء الجامع الأموي .

ولو نظر كل واحد منا في نفسه لرأى أن ما يوقن بوجوده من الأشياء التي لم يرها ، أكثر من (الأشياء) التي رآها من الممالك والبلدان ، ومن حوادث التاريخ الذي كان ، ومما يقع الآن .

فكيف أيقن بوجود هذه الأشياء وهو لم يدركها بحواسه ؟

أيقن به حين نقله جماعات عن جماعات ، لا يتصور إمكان اتفاقهم (في

العادة) على اختراع هذه الأخبار ، ونقلها كذبا .

فالقاعدة الثانية : أن اليقين كما يحصل بالحس والمشاهدة ، يحصل بالخبر الذي نعتقد صدق صاحبه .

إساعده الثالثة :

مامدى العلم الذي تبلغه الحواس ؟ وهل تستطيع أن تصل إلى إدراك كل موجود ؟

إن مثل النفس والحواس مع الموجودات ، كمثل رجل سجنه الحاكم في برج القلعة ، وسد عليه الأبواب والنوافذ ، ولم يترك له إلا شقوقا في جدار البرج ، شقا يطل منه على النهر يجري في الشرق ، وشقا على الجبل الذي يقوم في الغرب . وشقا على القصر الذي يجثم في الشمال ، وشقا على الملعب الذي يقع في الجنوب .

السجين هو النفس ، والقلعة الجسد ، وهذه الشقوق هي الحواس ، حس النظر يشرف منه على عالم الألوان ، وحس السمع على عالم الأصوات ، وحس الذوق على عالم الطعوم ، وحس الشم على عالم الروائح ، وحس اللمس على عالم الأجسام .

١ — والسؤال الآن : هل أدرك بكل حاسة من هذه الحواس كل ما في العالم الذي تشرف عليه ؟ السجين عندما ينظر من شق النهر ، لا يرى النهر كله ، ولكن جزءاً منه ، وكذلك العين حين تشرف على عالم الألوان . لا تراه كله بل ترى بعضه .

أنا لا أرى نملة تمشي على بعد ثلاثة أميال ، مع أن النملة موجودة ، ولا أرى الجراثيم والحوينات^(١٧) في كأس الماء الصافي ، مع أن في الكأس الملايين

(١٧) حوین تصغیر حیوان ، وهذا ما يسمى في علم الصرف (تصغیر الترخیب) ويكون بعد حذف الزوائد من الاسم .

من هذه الجراثيم . ولا أرى الكهارب التي تدور وسط الذرة ، دوران الكواكب في فضاء الأفلاك . وإن لهذه النملة صوتا ، ولكنني لا أسمعه ، لأن أذني تلتقط الهزات من خمس إلى عشرين ألفا ، فما نقص لاتسمعه ، وما زاد ثقب طبلة الأذن فبطل بذلك السمع . وأنا لأشم للسكر رائحة ، مع أن النملة والذباب يشمه ويسرع إليه . فالحواس إذن لاتدرك من العوالم التي سلطت عليها إلا جزءا منها .

٢ — ثم ألا يمكن أن يكون بين عالم الألوان الذي تشرف عليه العين ، وعالم الأصوات الذي تطل عليه الأذن عالم آخر ، لا أدركه أصلا لأنه ليس عندي الحاسة لإدراكه ؟

ألا يمكن أن يكون بين النهر وبين الجبل بالنسبة لسجين البرج بستان عظيم ، لم يره ولم يعلم به ، لأنه لا يجد شقا يطل منه عليه ؟ فهل يحق له أن ينكره لأنه لا يراه ؟

الأكمه (الذي ولد أعمى) قد يستطيع بالسماع معرفة أن البحر أزرق ، والمرج أخضر ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك ما هي الزرقة وما هي الخضرة . والأصم ، قد يعرف بالتعلم أن في الأنغام : البيات ، والرصد ، والسيكا . ولكنه لا يستطيع أن يدرك حقيقة النغم ، فهل يحق للأعمى أن ينكر وجود الخضرة ، وللأصم أن يجحد حقيقة النغم لأنه لا يدركها ؟

إن الغرفة التي تبدو لك ساكنة سكونا عميقا ، فيها — في جَوْها — جميع الأغاني والأصوات التي تذاق الآن ، من جميع الإذاعات . أنت لا تحس بها لأنها ليست لونا تراه بعينك ، ولا صوتا تسمعه بأذنك . إنها اهتزازات من نوع آخر ، فيها صوت ولكن لاتدركه الأذن ، فإذا جئت بالتراد^(١٨) الذي يدها عليك ، سمعتها .

الضغط الجوي لاتحس باختلافه القليل ، لأنه ليس لديك حاسة تدركه

(١٨) الراد : اسم فاعل من رد وضعتها لـ (الراديو) . لأنه يرد الصوت الذي يرسله المذياع .

بها ، فإذا جئت بـ (البارومتر) أدركته به . الهزات الخفيفة لا تدركها ، ولكن (الرادار) يدركها ، ففي الوجود أشياء كثيرة لا تدخل في نطاق الحواس ؛ لأنها ليست لونا يرى ، ولا صوتا يسمع ، ولا جمادا يلمس ، ولا رائحة تشم ، ولا طعما يذاق ، فهل يحق لي أن أنكرها ، لأن حواسي المحدودة لا تدركها ؟

٢ — والحواس هل هي كاملة ؟ كان الأقدمون يحصرونها في خمس حواس فقط ، لا يتصورون إمكان الزيادة عليها . ولكن كشفت في الإنسان الآن حواس أخرى أودعها الله فيه ، وما يقبل الزيادة يوصف بالنقصان .

أنا أغمض عيني ، وأبسط يدي أو أقبضها ، فأحس بأنها مبسوطة أو مقبوضة ، لم ألمسها ولم أرها ، فبأي حاسة أحسست بها ؟ بما يسمى (الحس العضلي) ، وأحس بالتعب والوني ، وبالغثيان ، وبالانبساط أو الانقباض ، وما أحسست بذلك بواحدة من الحواس الخمس ، بل (بالحس الداخلي) . وأمشي قلا أميل ، مع أن الطفل أول مشيه يميل ، وراكب الدراجة ، ولاعبو (السرك) ، الذين يأتون بالعجائب ، بأي حاسة ضبطوا توازنهم ؟

إن هناك حاسة ثامنة هي (حاسة التوازن) ، وأذكر أنهم كشفوا موضعها ، الذي وضعها الله فيه ، في الأذن الداخلية مادة سائلة قليلة ، بها يكون التوازن ، وأذكر أنهم (في تجاربهم) استخرجوها من أرنب ، فصارت تمشي الأرنب مترنحة كأنها سكرى .

فالقاعدة الثالثة : هي أنه لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا .

القاعدة الرابعة :

قلنا إن الحواس محدودة المدى ، فأنا لا أستطيع أن أرى يبصرى كل مرئي ، وهذا صحيح ، ولكن الله أعطانا (ملكة) نتم بها نقص الحواس ، هي الخيال . أنا إن لم أستطع أن أرى داري في دمشق وأنا في مكة ، أستطع أن أتخيلها فكأنني أراها ، فالخيال يكمل الحواس . فهل للخيال حدود ، أم أنه

مطلق غير محدود ؟ هل أستطيع أن أتخيل شيئاً لم أدركه بالحواس ؟

الخيال عند علماء النفس خيالان : خيال مرجع ، كتخيلي الدار في دمشق ، وأنا في مكة ، وخيال مبدع ، هو خيال الشعراء والقصاصين والرسميين ، وسائر أهل الفنون . فانظروا إلى خيالات هؤلاء الفنانين ، هل جاؤوا بشيء غير ما في الواقع ؟ الذي نحت تمثال (فينوس) جاء بصورة لم نر من يماثلها تماماً ، ولكن هل كانت جديدة ، أم أخذ أجزاء من الواقع ، فألف بينها ؟ أخذ أجمل أنف رآه ، وأجمل فم ، وأجمل جسم ، فجمع هذا إلى ذاك ، فجاء بجديد ، ولكن هذا الجديد مؤلف من أجزاء قديمة .

وتمثال الثور المنجنح الآشوري في متحف باريس ، ما فيه إلا أن ناحيته أخذ رأس رجل فوضعه على جسد ثور ، ووضع له أجنحة طائر . صورة جديدة ، ولكنها مؤلفة من أجزاء قديمة .

وكذلك الحيوان العجيب الذي تخيله القزويني ، وخيالات الشعراء مهما أوغلت في باب الاستعارة والتشبيه والكناية والمبالغات العجيبة ، لا تخرج عن كونها جمعا بين أجزاء متفرقة في الواقع .

بل إننا إذا أوغلنا في الإغراب في جمع هذه الأجزاء ، نجد الخيال نفسه قد عجز عن الإلمام بهذا الجمع ، خلوا — مثلاً — جزءاً من عالم اللون ، وجزءاً من عالم الصوت : فقولوا إن فلانا المغني قد غنى نغمة معطرة يعطر الورد ، أو أن العطر الفلاني له رائحة لونها أحمر ، واعرضوا هذه الصورة على خيالكم ، تجدلوا أنكم لم تستطيعوا أن تتخيلوها ، مع أنها جميعاً ما خرجت عن عالم الواقع .

فنحن لا نستطيع أن نتخيل نغمة عطرة ، ولا رائحة حمراء ، ولا نتصور إلا الأبعاد الثلاثة (الطول والعرض والارتفاع) ، لا نستطيع أن نتصور بعداً رابعاً^(١٩) ، ولا دائرة ليس لها محيط ، ولا مثلثا ليس له زوايا . فكيف (إذن)

(١٩) المقصود البعد الحقيقي ، أما ما ذهب إليه (انشتاين) من اعتبار الزمان بعداً رابعاً ، فهو شيء اعتباري لا حقيقي .

نتخيل الآخرة وما فيها ، وهي عالم يختلف عن عالمنا ؟ إن الآخرة بالنسبة لهذه الدنيا ، كالدنيا بالنسبة لبطن الجنين ، لو أمكن أن نتصل بالجنين ونسأله وأمكن أن يجيب ، وقلنا له : ما الكون ؟ لقال ، إن الكون هو هذي الأغشية التي تغشاني ، وهذه الظلمات التي تحيط بي .

ولو قلنا له : إن هاهنا كونا آخر فيه شمس وقمر ، وليل ونهار ، وبر وبحر ، وسهل وجبل ، وصحارى قاحلة ، وجنات عارشات ؛ لما فهم معنى هذا الكلام ، ولو فهمه لما استطاع تخيل حقيقته .

ومن هنا قال ابن عباس : « مافي الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء » . فلا خمر الآخرة كخمرة الدنيا ، ولا حورها كنسائها ، ولا نار جهنم كنارها ، ولا الصراط المملود على جهنم كالجسور المملودة على الأودية والأنهار . فالقاعدة الرابعة ، أن الخيال البشري لا يستطيع أن يُلم إلا بما أدركته الحواس .

القاعدة الخامسة :

لما أبصرت العين العود المستقيم أعوج ، وهو في كأس الماء ، لم ينخدع العقل بما رأت العين ، بل عرف أنه لم يزل مستقيماً ، ولما رأت التراب ماء في الصحراء ، عرف العقل أنه سراب ، وأنه ليس ماء ولكنه تراب . ولما أبصرنا ساحر (السيرك) يخرج من فمه مئة منديل ، ومن كفه عشرين أرنباً أدرك العقل أنها خدعة . فالعقل أصبح حكماً ، وحكمه أبعد مدى ، ولكن هل يحكم على كل شيء ، ويمتد مداه إلى غير ما نهاية ؟

إن العقل لا يستطيع أن يدرك شيئاً ، حتى يحصره بين اثنين : الزمان والمكان ، فما لم ينحصر بينهما ، لم يدركه العقل بنفسه . فلو قال لك مدرس التاريخ ؛ إن حرباً وقعت بين العرب والفرس ، ولكنها لم تقع قبل الإسلام ولا بعده ، ولم تقع في زمن من الأزمان ، ولكنها وقعت فعلاً ، لم تدرك ذلك ولم تصدقه ، ولم تقبله . ولو قال لك مدرس الجغرافية ؛ إن بلدة ليست في سهل ولا جبل ، ولا في بر ولا بحر ، ولا في أرض ولا سماء ، ولا في مكان من

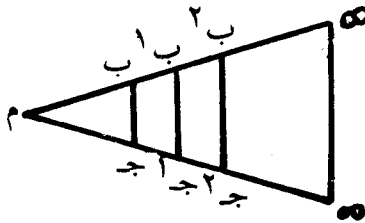
الأمكنة ، ولكنها موجودة — لم تدرك ذلك ، ولم تصدقه ، ولم تقبله .

فالعقل لا يحكم إلا في حدود الزمان والمكان . فما كان خارجا عنهما من مسائل الروح ، وأمور القدر ، وآلاء الله وصفاته ، فلا حكم للعقل عليه .

ثم إن العقل محدود ، لا يحكم على غير المحدود ، ولا يستطيع أن يحيط به . تصور خلود المؤمنين في الجنة ! إن عقل المؤمن موقن بأنه حقيقة ، وقد جاءه هذا اليقين من الخبر الصادق . ولكن انظر هل يحيط عقلك بالخلود ؟ ركز فكرك فيه ، تجد أنك تتصور بقاءهم في الجنة قرنا وقرنين ، ومئة قرن ، ومليون وألف مليون ، ثم تجد عقلك يقف عاجزا ، ويسأل : وبعد ؟ إنه يريد أن يضع لذلك نهاية . إنه لا يدرك ال (لا نهاية) ، وإذا افترض الوصول إليها وقع في التناقض الذي يقول ببطلانه .

إن للفيلسوف الألماني (كانت) كتابا مشهورا ، في إثبات أن العقل لا يستطيع أن يحكم إلا على عالم المادة وحده . ولكن ما قال به (كانت) قاله علماؤنا من قبل ، ورددوه وأثبتوه ، حتى صار كالبديهة المسلّمة ، وصار الكلام فيه كالحديث المعاد . حتى (متناقضات كانت) المشهورة ، سبق إليها علماؤنا ، وبينوا بالأدلة الرياضية أن (الدور والتسلسل) باطل .

من أقرب أدلتهم هذا الدليل ، وهو أن تخرج من نقطة (م) مثلا (في الشكل) شعاعين ، أي خطين مستقيمين متباعدين ، وتفرض مدّ كل خط إلى ما لا نهاية له (∞) وتصل بين الخطين على أبعاد متساوية خطوطا : (ب ج) و (ب' ج') و (ب'' ج'') وهكذا ، حتى تصل إلى الخط ($\infty \infty$) هل هذا الخط محدود ، أم هو غير محدود ؟



إذا قلت إنه محدود يردّ عليك أنه بين لا نهائيتين ، فكيف يكون محدوداً ؟ وإن قلت إنه غير محدود ، ردّ عليك بأنه بين نقطتين ، فكيف يكون غير محدود ؟ فهو محدود ، وغير محدود ، وهذا تناقض !

فثبت أن العقل يختل ميزانه إن حاول الحكم على غير المحدود ، ويقع في التناقض المستحيل ، إذا بحث فيما لا ينتهي .

فالعقل إذن لا يستطيع أن يحكم ، ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية المحدودة . أما (ما وراء المادة) ، أي عالم الغيب (الميتافيزيك) ، فلا حكم للعقل عليه . وهذا الذي أثبتته (كانت) في كتابه ، وقاله علماؤنا من قبل ، موجود في كتاب شرح المواقف للسيد ، ورسالة (المقصد الأسنى) للغزالي^(٢٠) وسائر كتب علم الكلام .

القاعدة السادسة :

إن الناس جميعاً ، المؤمن منهم والكافر ، والناشئ في صوامع العبادة ، والمتربي في مخادع الفسوق ، إذا ألّمت بهم ملّة ضاقوا بها ذرعاً ، ولم يجدوا لها دفعاً ، لم يعوذوا منها بشيء من هذه الكائنات ، وإنما يعوذون بقوة وراء هذه الكائنات ، قوة لا يرونها ولكنهم يشعرون بأرواحهم وقلوبهم ، وكل عصب من أعصابهم بوجودها ، وبعظمتها وجلالها . يقع هذا لكثير من الطلاب أيام الامتحان ، وكثير من المرضى عند اشتداد الألم ، وعجز الطبيب . كلهم

(٢٠) بقيت هذه الرسالة (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) في مكتبتى أكثر من ثلاثين سنة ، لم أجد دافعاً إلى قراءتها ، ثم أخذتها فوجدت فيها شيئاً عجيباً من عبقرية الغزالي . فهو يتكلم عن الاسم والمسمى والصلة بينهما ، ويربط بين أسماء الله وسلوك المسلم بأسلوب جديد وطريقة مبتكرة ، وهذا شأن الغزالي في كل موضوع يكتب فيه ، وإن كان في كتابه العظيم (الإحياء) كثير من الصوفيات المخالفة للسنة ، وكان فيه كثير من الأحاديث التي لا أصل لها ، وكان أثره في نفس قرائه العزلة والخمول ، والبعد عن روح المغامرة والجهاد . مع أنه ألف في عهد الحروب الصليبية ، التي وجب فيها الجهاد على الرجال والنساء ، كما هو واجب الآن ، لإخراج الكافر من أرض المسلمين التي يحتلها . وأنا أقول بأن الغزالي أعظم مفكر إسلامي ، ولكنه ليس بمعصوم — والإنصاف العلمي يستوجب ذكر عيوبه المملوءة — وكفى المرء نبلاً أن تعدّ معاييه .

يعودون إلى ربهم ، ويقبلون على عبادته . فهل سألتهم أنفسكم ، ما السبب في هذا وأمثاله ؟ لماذا نجد كل من وقع في شدة يرجع إلى الله ؟ نذكر جميعاً (٢١) أيام الحرب الماضية ، والتي قبلها ، كيف كان الناس يقبلون على الدين ، ويلجئون إلى الله . الرؤساء والقواد يؤمنون المعابد ، ويدعون الجنود إلى الصلاة .

ولقد قرأت في مجلة (المختار) المترجمة عن مجلة (ريدرز دايجست) ، مقالة نشرت أيام الحرب ، لشاب من جنود المظلات (يوم كانت المظلات والهبوط بها شيئاً جديداً) يروي قصته فيقول : إنه نشأ في بيت ليس فيه من يذكر الله أو يصلي ، ودرس في مدارس ليس فيها دروس للدين ، ولا مدرس متدين ، نشأ نشأة (علمانية) مادية ، أي مثل نشأة الحيوانات التي لا تعرف إلا الأكل والشرب والسفاد ، ولكنه لما هبط أول مرة ، ورأى نفسه ساقطاً في الفضاء قبل أن تفتح المظلة ، جعل يقول : يا الله يا رب . ويدعو من قلبه ، وهو يتعجب من أين جاءه هذا الإيمان ؟ .

وبنت (ستالين) نشرت من عهد قريب مذكراتها ، فذكرت فيها كيف عادت إلى الدين ، وقد نشأت في غمرة الإلحاد ، وتعجب هي نفسها من هذا المعاد . وما في ذلك عجب ، فالإيمان بوجود إله ، شيء كامن في كل نفس ، إنه فطرة (غريزة) من الفطر البشرية الأصلية ، كغريزة الجنس ، والإنسان (حيوان ذو دين) .

ولكن هذه الفطرة ، قد (تغطيها) الشهوات والرغبات والمطامع ، والمطالب الحيوية المادية ، فإذا هزتها المخاوف والأخطار والشدائد ، ألفت عنها غطاءها فظهرت ، ولذلك سمي غير المؤمن (كافراً) ، ومعنى الكافر في لسان العرب (الساتر) ، ومن العجيب أنني وجدت تأييد هذه الفكرة في

(٢١) أعني الكهول والشيخوخ الذين أدركوا الحرب الأخيرة : سنة (١٩٣٩) ، ومن قبلها الحرب الأولى : سنة (١٩١٤) ، وقد أدركهما وقلت ما قلت عنهما ، عن مشاهدة وعيان .

كلمتين متباعدتين ، في الزمان والمكان والظرف والقصد ، ولكنهما متقاربتان في المعنى .

كلمة لعابدة مسلمة تقية معروفة هي (رابعة العلوية^(٢٢)) ، وكلمة لكاتب فرنسي ملحد معروف هو (أناتول فرانس) . وأناتول فرانس يقول في معرض كفره وإلحاده : « إن المرء يؤمن إذا ظهر بنتيجة فحص البول أنه مصاب بداء السكري ، (يوم لم يكن قد عرف الأنسولين) ... » . ورابعة ، قيل لها : « إن فلانا أقام ألف دليل على وجود الله » ، فضحكت وقالت : « دليل واحد يكفي » قيل : « وماهو ؟ » ، قالت : « لو كنت ماشياً وحدك في الصحراء ، وزلت قدمك فسقطت في بئر ، لم تستطع الخروج منها ، فماذا تصنع ؟ » قال : « أنادي يا (الله) .. » قالت : « وذاك هو الدليل .. » .

في قرارة نفس كل إنسان الإيمان بإله ، هذه حقيقة نعرفها نحن المسلمين ؛ لأن الله خبرنا أن الإيمان فطرة فطر الناس عليها . وقد عرفها الإفرنج من جديد ، (دوركايم) أستاذ الاجتماع الفرنسي المشهور^(٢٣) له كتاب في أن الإيمان بوجود إله بديهية . لا يمكن أن يعيش الإنسان ويموت من غير أن يفكر في وجود إله لهذا الكون ، ولكن ربما قصر عقله فلم يهتد إلى المعبود بحق ، فعبد من دونه أشياء ، عبدها على توهم أنها هي الله ، أو أنها تقرب إلى الله

فاذا جد الجد ، وكانت ساعة الخطر ، رجع إلى الله وحده ، ونبذ هذه المعبودات . مشركو قریش ، كانوا يعبدون (هبل) ، و (اللات) . و (العزی) ، حجارة وأصنام ، (هبل) صنم من العقيق ، جاء به (عمرو بن لحي) من عندنا ، من (الحمة)^(٢٤) ، قالوا له : إنه إله عظيم قادر ، فحمله على جمل

(٢٢) ظهرت من سنوات قصة غنائية مصورة ، زعموا أنها تمثل حياة رابعة العلوية ، مع أنها لا تمثل إلا ما في نفس مؤلفها من خيالات وتهاويل ، وما فيها من حقائق التاريخ إلا القليل .

(٢٣) دوركايم أستاذ الاجتماع الفرنسي : هو يهودي مثل (فرويد) الذي أفسد عقول الناس حيناً من الدهر .

(٢٤) الحمة ذات الينابيع المعدنية التي أخذها اليهود من سورية بعد حرب الأيام الستة .

وجاء به ، فسقط على الطريق فانكسرت يده ، فعملوا له يدا من ذهب . إله تنكسر يده ! وكانوا مع ذلك يعبدونه !! يعبدونه في ساعات الأمن ، فإذا ركبوا البحر ، وهاجت الأمواج ، ولاح شبح الغرق ، لم يقولوا : يا (هبل) ، بل قالوا : يا الله .

وهذا مشاهد إلى اليوم عندما تغرق السفن ، أو تشب النيران ، أو يكون الخطر ، أو يشتد المرض ، تجد الملحدين يرجعون إلى الدين .

لماذا ؟ لأن الإيمان غريزة ، أصدق تعريف للإنسان أنه (حيوان متدين) . وانظروا إلى هؤلاء الملحدين الماديين ، عندما يأتيهم الموت ، هل تظنون أن (ماركس) أو (لينين) لما أيقن بالموت ، دعا (وسائل الإنتاج) التي يؤلّوها ، أم دعا الله ؟ ثقوا أنهما لم يموتا حتى دعا الله ، ولكن حين لا ينفع الدعاء ، و (فرعون) تكبر وتجبّر ، وقال ، أنا ربكم الأعلى ، فلما أدركه الغرق ، قال : (آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ..) .

وفي عاطفة الحب التي يحس بها المحبون دليل على أن الإيمان فطرة في النفوس ، الحب صورة مصغرة للإيمان ، ونوع من أنواع العبادة . والفرنسيون لما غلب عليهم ترك الدين ، استعملوا كلمة (العبادة) في الحب (٢٥) . وقلدهم في ذلك بعض المتفرنجين منا ، فصاروا يقولون في قصصهم : (يحبها ويعبدها) ، و (أحبها حتى العبادة) ، وما ذلك إلا لأن العبادة هي المظهر الفطري للاعتقاد بالإله ، ولأن في الحب شبها من الإيمان .

المحب يطيع محبوبه ، وينفذ كل رغبة له ، وكذلك يكون المؤمن مع الله ، والمحب لا يبالي أن يسخط عليه الناس كلهم إن رضي المحبوب ، وكذلك يكون المؤمن مع الله . والمحب يخاف المحبوب ، ويخشى غضبه ، ويرضى بكل ما يكون منه وكذلك المؤمن مع الله . فالحب (أي العشق) دليل على أن الإيمان فطرة في النفوس .

(٢٥) كلمة العبادة هي في اللغة الفرنسية : (Adorer) .

ضيق الألفاظ :

وليس معنى هذا أن حب الله ، من جنس حب المعشوق ، لا . فالعاشق يطيع معشوقه ويخشاه ، ويرضى بكل ما يجيء ذكرها ويؤثر رضاه على رضى الناس ، للذته به ، فهو يحب فيه نفسه ، ولو أن (ليلى) أصابها الجذام فشوه وجهها ، وأكل أنفها وعينها لما دنا منها (قيس) ، ولما مال عليها ، بل لفرّ منها ، ونأى عنها ، هذا هو فرق ما بين حب المخلوق وحب الخالق .

إنهما نوعان مختلفان ، ولكن اللغات البشرية لضيقها عن استيعاب المعاني الروحية ، تستعمل اللفظ الواحد ، في معان كثيرة ، فنحن نقول : « فلان يحب مناظر الجبال » ، و « فلان يحب علم التاريخ » ، و « فلان يحب الرزق باللحم » ، « والوالد يحب ولده » ، و « والمجنون يحب ليلى » ، و « المؤمن يحب الله » ، وكل حب (منها) ، يختلف عن الآخر . ومثل ذلك كلمة : (الجمال) ، نستعملها وهي لفظ واحد ، للدلالة على ألف معنى . ومن ذلك قولنا : ﴿ الله سميع بصير ﴾ ، و « فلان سميع بصير » ، أي : ليس أصم ولا أعمى . وسمع الله وبصره لا يشبه سمع العبد ولا بصره ؛ لأن الله لا يماثل شيئاً من المخلوقات ولا يماثله شيء ، وجميع آيات الصفات جاءت من هذا الباب والله ليس كمثله شيء .

القاعدة السابعة :

هي أن الإنسان يدرك بالحدس أن هذا العالم المادي ليس كل شيء ، وأن وراءه عالماً روحياً مجهولاً ، يدرك منه لمحات تدل عليه ، ذلك أن الإنسان يرى اللذات المادية محدودة ، إذا هي بلغت غايتها ووصلت إلى حدها ، لم تعد اللذة لذة ، ولكن صارت (عادة) ، فذهب طعمها ، وبطل سحرها ، وصارت كالنكتة المحفوظة ، والحديث المعاد .

يبصر الفقير سيارة الغني تمر به ، وعمارة الغني يمر بها ، فيحسب أنه يحوز الدنيا إن حاز مثلها ، فإن صارت له ، لم يعد يشعر بالمتعة بها . ويسهر

المحب يحلم بوصل الحبيب ، يظن أن متع الدنيا كلها بحبه ، والأمني كلها في قربه ، فإذا تزوج التي يحب ، ومر على الزواج سنتان ، اضمحلت تلك الأمني ، وماتت تلك المتع ، ولم يبق له منها إلا ذكرها ، ويمرض المريض ويتألم ، فيتصور اللذة كلها في ذهاب الألم والشفاء من المرض ، فإذا عاودته الصحة ، ونسي أيام المرض ، لم يعد يرى في الصحة شيئاً من تلك اللذات . ويتمنى الشاب « الشهرة » ، ويفرح إن أذاعت الإذاعة اسمه ، ونشرت الصحف رسمه ، فإذا هو اشتهر وصار اسمه ملء السمع ، وشخصه ملء البصر ، صارت له الشهرة أمراً معتاداً .

ثم يجد أنه يسمع الأغنية الحالمة ، في الليلة الساجية ، قد خرجت من قلب مغن عاشق ، فهزت من سامعها حبة القلب ، وأطلت على عالم الروح . ويقرأ القصة العبقريّة ، للأديب البار ، فيحس كأنها تمشي به في مسارب عالم مسحور ، فيه مع السحر شعر وعطر ، فإذا انتهت القصة رأى كأنه كان في حلم لذي فتان ، وصحا منه ، فهو يحاول عبثاً أن يعود إلى لذته وفنونه .

ويعيش في لحظات التجلي ، حين تصفو النفوس بالتأمل فتتخفف من انتقال المادة ، فتعلو بجناحين من الصفاء والتجرد ، حتى تصل إلى حيث ترى الأرض ، وما عليها ، أصغر من أن ينظر إليها ، لما تجد من لذة الروح التي لا تُعَدِّلُها لذة الطعام للجائع ، ولا لذة الوصال للمحروم ، ولا لذائد المال والجاه للفقير المغمور .

وإذا بالنفس تشوق أبداً إلى هذا (العالم الروحي) العلوي ، العالم المجهول ، الذي لا تعرف منه إلا هذه اللحظات ، التي لا تكاد تبدو لها حتى تختفي ، وهذه النفحات التي لا تهب حتى تسكن ، فيعلم أن اللذات المادية محدودة ، وأن اللذات الروحية أكبر منها كبراً ، وأعمق في النفس أثراً . ويُوقن (بالحدس النفسي ، لا بالدليل العقلي) ، أن هذه الحياة المادية ليست كل شيء ، وأن العالم المجهول ، المختبئ وراء عالم المادة ، حقيقة قائمة ، تحنُّ إليها الأرواح ، وتحاول أن تطير إليها ، ولكن هذا الجسد الكثيف يحجبها

عنها ، ويمسكها عن أن تنطلق وراءها ، وهذا هو الدليل النفسي على وجود العالم الآخر .

القاعدة الثامنة :

الاعتقاد بوجود الحياة الأخرى ، نتيجة لازمة للاعتقاد بوجود الله — وبيان ذلك أن الإله لا يكون إلا عادلاً ، والعدل لا يقرّ الظلم ، ولا يدع الظالم بغير عقاب ، ولا يترك المظلوم من غير إنصاف ، ونحن نرى أن في هذه الحياة من يعيش ظالماً ويموت ظالماً لم يعاقب ، ومن يعيش مظلوماً ويموت مظلوماً لم ينصف ، فما معنى هذا ؟ وكيف يتم هذا مادام الله موجوداً ، وما دام الله لا يكون إلا عادلاً ؟ معناه أنه لا بد من (حياة أخرى) يكافأ فيها المحسن ، ويعاقب المسيء .

وأن (الرواية) لا تنتهى بانتهاء هذه الدنيا ، ولو أنه عرض (فلم) في الرائي (التلفزيون) ، فقطع من وسطه وقيل (انتهى) ، لما صدق أحد من المشاهدين أنه انتهى ، ولنادوا ماذا جرى للبطل ؟ وأين تمة القصة ؟ ذلك لأنهم ينتظرون من المؤلف أن يتم القصة ، ويسدد حساب أبطالها . هذا والمؤلف بشر ، فكيف يصدق عاقل ، أن (قصة) الحياة تنتهي بالموت ؟ كيف ؟ ولم يسدد بعد الحساب ، ولا اكتملت الرواية ؟ فأيقن العقل من هنا ، أن لهذا الكون رياءً ، وأن بعد الدنيا آخرة . وأن ذاك العالم المجهول ، الذي لحت الروح ومضة من نوره في الأغنية الحاملة ، والقصة البارعة ، واستروحت نفحة من عطره ، في ساعة التجلي ، ليس عالم المثل (٢٦) الذي كان خيالاً صاغه أفلاطون ، ولكنه عالم الآخرة ، الذي هو حقيقة أبداعها خالق أفلاطون . ورأى الإنسان أن أكبر لذائذ الدنيا ، لذة الوصال ، لا تدوم إلا نصف دقيقة ، فعلم أنها ليس إلا مثالا من لذات الآخرة ، إنها لقمة من الطعام تذوقها ، فإن أعجبك اشترت منه فأكلت حتي شبع ، إنها

(٢٦) المثل العليا : نظرية لأفلاطون معروفة (Idé alisme) ، ومنها جاء قولهم : « شيء مثالي » وهو (idéal) .

نموذج تجاري^(٢٧) تراه ، فإن ارتضيته طلبت البضاعة . إن هذه اللذة التي لا تدوم إلا نصف دقيقة ، مثال مصغر للذات العالم الآخر ، التي تدوم أبداً ، والتي لا حد لها تقف عنده ، والتي تبقى (لذة) دائماً ، ولا تصير (عادة) ، كما تصير اللذات في الدنيا عادات .



(٢٧) النموذج التجاري : هو تعريف للاصطلاح الفرنسي : (Echantillon) وتلفظ : (اشانتيون) .

الإيمان بالله

الإيمان بالله يتضمن أربع قضايا ، هي : أن الله موجود بلا موجد ، وأنه رب العالمين ، وأنه مالك الكون المتصرف فيه ، وأنه الإله المعبود وحده ، لا يعبد معه غيره .

وجود الله :

قلنا في القاعدة السادسة : إن الاعتقاد بوجود الله من الأمور البديهية التي تدرك بـ (الحدس) النفسي قبل أن تقبل بالدليل العقلي ، فهي لا تحتاج إلى دليل ، وإن كانت الأدلة على صحتها ماثلة في كل شيء ، ولست أعرض هذه الأدلة فهي أكثر من أن تستقصى ، والعالم الدمشقي الشيخ جمال الدين القاسمي ذكر منها الكثير الكثير ، في كتابه (دلائل التوحيد) مع أنه ألف من أكثر من نصف قرن ، ومع أنها قد جددت اليوم أدلة أظهرها العلم الحديث ، الذي لم يكن معروفاً قبل خمسين سنة ، ومن نظر في كتاب : (الله يتجلى في عصر العلم) ، وقد كتبه ثلاثون من علماء الطبيعة والفلك ، ممن انتهت إليهم الرئاسة في هذه العلوم ، ومثله كتاب : (العلم يدعو للإيمان) ، يجد أن العالم الحقيقي لا يكون إلا مؤمناً ، والعامي لا يكون إلا مؤمناً ، وأن الإلحاد والكفر إنما يبدوان من أنصاف العلماء ، وأرباع العلماء ، ممن تعلم قليلاً من العلم ، فحسر بذلك (الفطرة) المؤمنة ، ولم يصل إلى العلم الذي يدعو إلى الإيمان ، فوقع في الكفر .

في هذين الكتابين مقالات ، هي ثمرة ما وصل إليه تفكير هؤلاء العلماء ، من أمثال (فرنك ألن) الذي أثبت أن القول بقديم العالم — كما كان يقول فلاسفة اليونان — مستحيل ، وأن العلم كشف أن لكل شيء عمراً ، أي أن له بداية ، تنفي كونه قديماً ، و (فرنك ألن) هذا ، من أكبر علماء الحياة (البيولوجيا) . وأمثال (روبرت موريس بدج) مكتشف الرادار ، وعالم

الكيمياء (جون كليفلاند كوثران) ، و (جون هربرت بلوند) أستاذ الفيزياء ،
وأنا أرجو أن تقرأوا هذين الكتابين وأمثالهما ... وأمثالهما كثير .

أنا لا أحب أن أعيد سرد الأدلة القديمة على وجود الله ، أدلة علماء
الكلام ، ولا الأدلة الحديثة التي جاء بها هؤلاء العلماء ، ولكن أشير إلى دليل
واحد من الأدلة القرآنية ، وأدلة القرآن : واضحة ، صريحة ، حاسمة ، تأتي
بالحجة الضخمة ، في العبارة القصيرة ، التي يفهمها العامي ، وتمتلىء نفس
العالم الذي يدرك مغزاها . إعجابا منها ، وعجبا من قوتها ودقتها ووضوحها ،
وكلاهما (العامي والعالم) لا يملك إلا أن يقول : صحيح !

نبهنا الله في القرآن بكلمة واحدة ، على أن الدليل فينا ، « في أنفسنا » ،
فكيف ننكر قضية قد سطر على جباهنا ما يشعر بصدقها ، قال تعالى : ﴿ وَفِي
أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟! ﴾ فنحن نشعر — من أعماق قلوبنا — بأنه
موجود ، نلجأ إليه في الشدائد والمللمات ، بفطرتنا المؤمنة ، بغريزة التدين
فينا ، ونرى الأدلة عليه فينا ، وفي العالم من حولنا ، فالعقل الباطن يؤمن بوجوده
بالحدس ، والعقل الواعي يؤمن بوجوده بالدليل .

فكيف لعمرى يجحد الله الجاحد ، وهو — نفسه — الدليل على
وجوده ؟! إنه كمن يحمل مالك بيده ، ويدعي أنه لم يأخذه ولم يلمسه ، ومن
يلبس ثيابه مبتلة يقطر منها الماء ، ويدعي أنه لم يقرب الماء . هذه حقيقة
الحقائق ، ولكن لماذا نجد أكثر الناس لا ينتبهون إليها ؟!

الجواب : لأنهم لا يفكرون في أنفسهم ، ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ
أَنْفُسَهُمْ ﴾ . إنهم يفرون منها ، يخافون الانفراد بها ، لا يستطيع أحدهم أن
يبقى وحيداً ، خالياً بنفسه بلا عمل ، لذلك يشتغل عنها بحديث فارغ ، أو
كتاب تافه ، أو عمل يشغل نفسه ، ويصرم فيه عمره ، كأن نفسه عدو له
يكرهه ، وينفر منه ، وكأن عمره — وهو رأس ماله — حمل على عاتقه ، يرمي
به ليتخلص منه .

انظر إلى أكثر الناس تجدهم يأكلون ويشربون ، وينامون ويستيقظون .
يحرصون على اللذة ، ويتبعون عن الألم ، يبتغون الخير في الدنيا لأنفسهم
وأهلهم ومن يحبون ، يصبح الواحد منهم فينظف جسده ، ويرتدي ثيابه ،
ويتناول طعامه ، ويدخل إلى عمله ، يعمل لجمع المال ويستزيد من الربح ، ثم
يعود إلى داره ، فيتغذى ويستريح ، ثم يعود إلى العمل ، أو يعمد إلى التسلية .
يفتش عما يملأ به الفراغ ، ويضيع به الوقت ، ويقطع به العمر ، حتى يعاوده
الجوع فيأكل ، أو يدركه النعاس فينام . ثم يستقبل يوماً جديداً ، فيعيد فيه
(برنامج) اليوم الذي مضى . يذكر ماضيه ، وما ماضيه إلا الأيام التي أحس أنه
عاشها في هذه الدنيا ، ويفكر في مستقبله ، وما مستقبله إلا الأيام التي يقدر أنه
يعيشها في هذه الدنيا .

أما المسلم ؛ فلا يكتفي من الحياة بأن يأكل ويشرب ويعمل ويتسلى ،
بل يسأل نفسه ، من أين جئت ؟ وإلى أين أسير ؟ ما المبدأ ؟ وما المصير ؟
ينظر فيجد أن حياته لم تبدأ بالولادة حتى تنتهي بالموت ، يرى أنه كان جنينا في
بطن أمه قبل أن يولد ، وكان حُويئاً منوياً في ظهر أبيه قبل أن يَسْتَجِنَ ، وكان
قبل ذلك دماً يجري في عروق هذا الأب . وهذا الدم جاء مما تناول من الغذاء .
وهذا الغذاء كان نباتاً نبت من الأرض ، أو حيواناً تغذى من النبات .. أطوار مرّ
بها قبل الولادة لا يعرف عنها شيئاً ، سلسلة طويلة ، فيها حلقات قليلة واضحة ،
وباقها يحجبها عن عيوننا الظلام ، فكيف يوجد نفسه بعقله وإرادته وقد كان
موجوداً قبل أن يكون له عقل وإرادة ؟

إن الواحد منا لا يعرف نفسه قبل بلوغه الرابعة من عمره ، لا يذكر أحد
منا مولده . من يذكر مولده ؟ من يذكر لمّا كان في بطن أمه ؟ فإذا كان
موجوداً قبل أن يعلم بوجوده ، فهل يمكن أن يقال إنه هو الذي أوجد نفسه ؟
سل هذا الكافر الملحد — إن لقيته — وقل له : هل خلقت أنت نفسك بإرادتك
وعقلك ؟ هل أنت الذي أدخلت نفسك في بطن أمك ؟ وهل أنت الذي اختار
هذه المرأة لتكون له أما ؟ وهل أنت الذي ذهب بعد ذلك فجاء بالقابلة لتخرجه

من هذا البطن ؟ فهل خلق إذن من العدم بلا فاعل ولا خالق ؟ هذا مستحيل .
فهل خلقتة إذن هذه الموجودات التي كانت من قبله ؟ الجبال والبحار
والشمس والكواكب ؟

(ديكارت) لما جرّب مذهب الشك الذي اشتهر به ^(٢٨) وشك في كل شيء ، وصل إلى نفسه ، فلم يستطع أن يشك فيها ، لأنه هو الذي يشك ولا بد في الشك من شاك ، لذلك قال كلمته المشهورة (أنا أفكر فأنا موجود) ^(٢٩) ، موجود لاشك في وجوده ، فمن أوجده ؟ هل أوجده هذه الكائنات المادية ؟ إنها جمادات لا عقل لها ، وهو عاقل ، فهل يمنح العقل من ليس بعاقل ؟ هل يعطي الشيء فاقدته ؟

وهذا هو موقف إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام ، لما رأى أباه (وكان مثلاً) ينحت الأصنام بإزميله ، يعمل من الحجر صورة ، فيتخذها هو وقومه آلهة ! حجر تصنعه يد الإنسان ثم يعبد ؟ إله أخلقه وأطلب منه أن يخلق لي ما أريد ؟! هذا أمر لا يقبله العقل . فأين هو الإله الحق إذن ؟ .

وذهب يبحث ويفكر ، وأدركه الليل ، وطلع عليه النجم برّاقا لامعا عاليا ، لم يخرج من الأرض كالصخرة التي تصنع منها التماثيل . لم يعمله الإنسان بيده ثم يعبد ، وظن أنه وجد الإله الذي يبحث عنه ، وإذا بالقمر يطلع فيختفي النجم ، ويرى القمر أكبر في النظر وأضوأ ، فيؤمن بأن القمر هو الإله ، ويرقبه الليل كله ، فإذا بالشمس تطلع فتطفئ شعلة القمر ، وتفيض النور على الأرض ، فيقول هذا هو الإله . ولكن الشمس تأفل (تذهب) تدع الأرض في الظلام ، فما هذا الإله الذي يمضي ، ويتخلى عن ملكه ؟ .. كلا ليست الشمس إلهاً. خلقتني ، ولا هذه الموجودات آلهة ، ولا أنا الإله . أنا ما خلقت نفسي ،

(٢٨) مذهب ديكارت في الشك : لم يكن جديداً ، فهو مسبق إليه . راجع (المنقذ من الضلال ، للغزالي .

(٢٩) (Je Pense donc Je suis)

ولا خلقت من غير شيء ، فلم يبق إلا احتمال واحد ، هو الصحيح ، هو الحق وما عداه الباطل : هو أن وراء هذه الجمادات كلها ، إلها قادراً عظيماً هو الذي أوجدها وأوجدني وأوجد كل شيء .

هذا الدليل هو الذي عرض له القرآن في جملة واحدة ، هي معجزة من معجزات البيان الرباني ، ضربة قاضية على من يخضع للعقل ، ويحترم التفكير من الملحدين ، هي قوله تعالى :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ !!

كان السخفاء من الملحدين ، من أرباع المتعلمين ، يقولون : (الطبيعة) ، الطبيعة أوجدت الإنسان ، الطبيعة وهبت العقل للإنسان . وكان من المعلمين من يقول لنا هذا ونحن صغار ، في أيام الحرب الأولى وفي أعقابها ، من المعلمين الذين شموا رائحة التمدن الجديد ، من (اسطنبول) أولاً (وباريس) ثانياً ، فحسبوا أنهم صاروا يعدون بذلك من (المنورين) ، وكانت كلمة (المنورين) في تلك الأيام ، مثل كلمة (التقدميين) الآن . ولكل زمان ألفاظ يضحكون بها علينا ، كما كانوا يضحكون على ذقون الهنود الحمر في أميركا بالخرز والثياب الملونة ، ليأخذوا بدلا منها بلادهم .

وكبرنا بعد ، وسألنا : ما (الطبيعة) ؟ إن كلمة الطبيعة في اللغة على وزن (فعيلة) وهي بمعنى (مفعولة) ، فإذا كانت مطبوعة فمن (طبعها) ؟ . قالوا : الطبيعة هي المصادفة .. قانون الاحتمالات .

قلنا : هل تعرفون ما مثال هذا الكلام ؟

مثاله : اثنان ضاعا في الصحراء ، فمرا على قصر كبير ، عامر ، فيه الجدران المزخرفة المنقوشة ، والسجاد الثمين ، والساعات والثريات .

قال الأول : إن رجلاً بنى هذا القصر وفرشه .

فرد عليه الثاني وقال : أنت رجعي متأخر ، هذا كله من عمل الطبيعة !!

قال : كيف كان بفعل الطبيعة ؟

قال : كان هنا حجارة فجاءها السيل ، والريح والعوامل الجوية

فتراکمت ، وبمرور القرون بالمصادفة ، صارت جدارا .

قال : والسجاد .

قال : أغنام تطايرت أصوافها ، وامتزجت وجاءتها معادن ملونة ،

فانصبغت وتداخلت فصارت سجادا !!

قال : والساعات ؟

قال : حديد تأكل بتأثير العوامل الجوية ، وتقطع دوائر وتداخل ،

وبمرور القرون ، صار على هذه الصُورة .

ألا تقولون إن هذا مجنون ؟ هل المصادفات هي التي جعلت الخلية من خلايا الكبد التي لا ترى إلا بالمجهر تقوم بأعمال كيميائية تحتاج إلى آلات تملأ بهواً كبيراً ، ثم لا تستطيع أن تقوم إلا بجزء منها ؟! هذه الخلية تحول السكر الزائد في الدم إلى مولد سكر العنب (كليكوجين) ، لنستعمله عند الحاجة بعد أعادته إلى (كليكوز) ، وتفرز الصفراء ، وتعطل (الكولسترول) في الدم ، وتصنع الكريات الحمر ، ولها بعد أعمال أخرى !

والمصادفات جعلت في اللسان تسعة آلاف عقدة صغيرة كلها تصلح للتذوق ، وفي كل أذن مئة ألف خلية للسمع ، وفي كل عين مئة و ثلاثين مليون خلية كلها تصلح لاستقبال الضوء . والأرض بما فيها من العجائب والأسرار ، والهواء الذي يحيط بها ، وما يحمله من أحياء لا ترى ولا تدرك ، والأشكال العجيبة لذرة الثلج التي تسقط ، خلقها بهذه الدقة ، وأودع فيها هذا الجمال الذي لم نره إلا من عهد قريب .

انظر إلى هذه الأرض وما فيها من معادن ، وما أودع فيها من أسرار ، وإلى أنواع حيوانها ونباتها ، وما فيها من الصحارى الشاسعة ، والبحار الواسعة ، والجبال السامقة ، والأودية العميقة .. ثم وازنها بالشمس ترها صغيرة ضئيلة إلى جنب الشمس وعظمها ، والشمس التي تكبر الأرض بمليون مرة ، هي بالنسبة لكوكب من هذه الكواكب حبة رمل في الصحراء الكبرى .

والشمس التي تبعد عنا بأكثر من مئة مليون كيل (كيلو متر) ، إذا قدرنا

بعدها بالزمن الضوئي ، وسرعة الضوء ثلاثمئة ألف كيل في الثانية الواحدة ، يبلغ بعدها عنا ثمانى دقائق . فماذا يكون بعد النجوم التي يصل ضوءها إلينا في مليون سنة ضوئية ؟ السنة الضوئية تعدل عشرة آلاف مليار كيلو متر (٣٠) . فكم كيلو متر في مليون سنة ؟

وهذه الكواكب ، ومنها كواكب المجرة ، التي لا يعرف علم الفلك عنها أكثر من أنها بقعة مضيئة ، فيها من الكواكب ما لا يعلمه إلا الله ، هذه الكواكب على ضخامتها التي يعجز العقل عن تصورها ، تسير بسرعة هائلة ، سرعة تتخطى حدود الأرقام ، فكيف لا يقع فيما بينها اصطدام ؟

قرأت لأحد علماء الفلك ، أن احتمال اصطدامها ، كاحتمال اصطدام ست نحلات لو أطلقت في الفضاء المحيط بالأرض . إن سعة فضاء الأرض بالنسبة لست نحلات ، كذلك الفضاء بالنسبة لهذه الكواكب التي لا تعد ولا تحصى . .

وهذا الفضاء كله وسط كرة هائلة هي السماء الدنيا ، كرة من جرم حقيقى ليست هواء ولا فضاء (٣١) ، ولا خطأ وهميا هو مدار الكواكب كما تصور بعض المحدثين من المفسرين ، كرة محيطة بهذا الفضاء وما فيه ، ومغلقة عليه وهو في داخلها . كرة محفوظة لها أبواب تفتح وتغلق ، جعلها الله (سقفا محفوظا) لهذا الفضاء ، وجعل هذه الكواكب فيها كالمصابيح التي تزين السقف ، لها سَمَك ، وبعدها فضاء !.. الله أعلم بسعته . ربما كان كهذا الفضاء أو أكبر منه ، تحيط به كرة أخرى ، أكبر وأضخم ، ثم فضاء ثالث ، ثم كرة ثالثة . ثم فضاء رابع ثم كرة رابعة . ثم فضاء خامس ، ثم كرة خامسة . ثم فضاء سادس ، ثم كرة سادسة ، ثم فضاء سابع ثم كرة سابعة . ثم تأتي أجسام

(٣٠) أذكر في معرض هذا الحديث أن أبوللو (٩) التي وصلت إلى القمر ، قطعت في الذهاب والإياب أربعمئة ألف كيل (كيلو متر) ، أى : مدة ثانية وثلاث فقط بالزمن الضوئي ! .

(٣١) هذا الذي قلته عن السماء : شيء فهمته من آيات الكتاب ، وسن الله في الفلك التي كشفها العلماء ، ولم أجد من قال به ، وقد فصلت القول فيه في غير هذا الكتاب .

* ملاحظة : متوسط بعد القمر عن الأرض هو ٣٨٤ ألف كيلو متر .

غاية في الكبر والعظم ، هي العرش ، والكرسي ، وما أخبر الله عنه ، من هاتيك العوالم .

ومن أعجب العجب ، ومن أظهر الأدلة على الله ، أن هذا الفضاء بكل ما فيه موجود بصورة مصغرة ، بحيث لا يدرك العقل دقتها وصغرها — كما أنه لا يدرك سعة الفضاء ورحبه — موجود في الذرة .

(*)

الذرة التي لا ترى ولا بالمجهر الإلكتروني . الذرة التي كان يسميها العلماء والفلاسفة الأقدمون الجوهر الفرد (الجزء الذي لا يتجزأ) ، الذرة التي قال العلماء إنه لو صف أربعون مليوناً منها جنباً إلى جنب ، كان طولها (طول الأربعين مليوناً) معشاراً واحداً (سائتي متر) ، وسط هذه الذرة فضاء فيه نواة ، تدور حولها أجسام صغيرة^(٣٢) كدوران الكواكب في الفضاء ، ونسبة النواة للذرة ، كنسبة حبة القمح للقصر العظيم ، والنواة يزيد وزنها وحدها عن وزن (١٨٠٠) من هذه الكهارب ، فهل هذا كله من عمل (المصادفات)^{(٣٣)؟}

وإن الذي يثلج صدر المؤمن ، أن هذه المقالات التافهة كالطبيعة والمصادفات وأمثالها ، قد انقطع ورودها على ألسنة العلماء ، ولم يبق من قائل بها إلا أشباه العوام ، ممن يدعون العلم وليسوا من العلماء .

الله رب العالمين :

هذه هي القضية الثانية من قضايا الإيمان بالله ، وهي : أن تعتقد أن الله (وحده) هو الذي أوجد هذه العوالم كلها ، عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الأفلاك . العوالم الظاهرة لنا ، والمغيبة عنا ، أوجدتها من العدم ، ووضع

(٣٢) هذه الأجسام الصغيرة : يسمونها الكهارب (الإلكترونات) .

(٣٣) كتبت هذا الجزء كما قلت في المقدمة وما تحت يدي ولا قريباً مني كتاب أرجع إليه . فكنت أكتب ما خطر على بالي ، وأمدتني به ذاكرتي ، فكانت هذه الأمثلة ، ومن أراد أمثلة أدق وأحق وجدها في كتاب صدر قريباً اسمه (الطب محراب للإيمان) جيد جداً .

(٣٤) جاءت هذه الجملة في الطبقات السابقة (إلا بالمجهر الإلكتروني) والصواب ما أثبت هنا .

لها هذه النواميس العجيبة ، التي لم نكتشف إلى الآن في الكيمياء والفيزياء والطب والفلك ، إلا الأقل الأقل منها ، وهو (وحده) الذي يعلم دقتها وجليلها ، كم ورقة في كل شجرة ، وشكل كل ورقة ، ووضعها ، وكم (جرثومة) في الدنيا ، وطولها وعرضها وأجزائها التي ركبها منها ، وما في كل ذرة من الكهارب الثابتة والمتحركة ، وعددها ، وما يطرأ على كل منها من عوارض ، وما تتصف به من حركة وسكون ، وتطور وتحول ، كل ذلك مسجل عنده في كتاب .

هذه العوالم كلها ، هو ربها ، هو الذي أوجدها ، وهو يحفظها ، وهو الذي يحولها من حال إلى حال ، وهو الذي جعل في كل ذرة منها ، ما يدل العاقل عليه ، ويرشده إليه .

هذه القضية الثانية من قضايا الإيمان بالله ، قضية لا بد منها ، ولكن هل يكفي الإيمان بها ليكون الإنسان مؤمناً ؟
إذا جاءك من يقر بأن الله هو الخالق ، وهو الرب ، فهل تعتبره بهذا وحده من المؤمنين ؟

لا .. إن ذلك وحده لا يكفي ، لأن أكثر الأمم القديمة كانت تقول به ، كفار قريش ، الذين بعث محمد ﷺ لإنكار شركهم ، وتسفيه عقائدهم ، وكلف بحربهم ، كانوا إذا سئلوا عنه اعترفوا به ولم ينكروه .

بل إن إبليس — وهو شر الخلق — ما أنكر أن الله ربه ، تنبّهت إلى هذا من قوله :

﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي .. ﴾ وقوله : ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي .. ﴾ .
فهو مقرر بأن الله ربه !

الله مالك الكون :

والقضية الثالثة : أن الله هو مالك الكون ، يتصرف فيه تصرف المالك الحر بملكه ، يحيي ويميت . هل تقدر أن تدفع عن نفسك الموت ، وتمنعها

في الدنيا الخلود ؟ يمرض ويشقي ، هل تقدر أن تشفي من حرمة الله الشفاء ؟
يمنح المال ويبتل بالفقر ، يبعث السيول ويصيب بالجفاف ، كان في السنة
الماضية فيضانات في شمالي إيطاليا ، جرفت المدن ، ودمرت العمران ، وكان
في ذلك الوقت في الهند جفاف ييس معه الزرع ، وهلكت الماشية ، وصار
توزيع الماء بالبطاقات .

فمن زاد الماء على هؤلاء حتى شكوا منه ، وحرمة أولئك حتى تمنوه ؟
من يعطي هذا بنات وهذا بنين ، ويجعل من يشاء من الناس عقيما ؟ هل يستطيع
من رزق البنات أن يحولهن إلى بنين ، ومن كان عقيما أن ينجب الولد ؟

هو يكتب الموت على ناس وهم أطفال ، ويمد في عمر ناس حتى
يصيروا شيوخا ، يبعث موجة البرد والصقيع على بلد ، ويبعث موجة الحر على
بلد ، ويصيب بلدا بالزلازل . أمور مشاهدة ، لا يملك الإنسان لها دفعا ولا منعا .

الإله المعبود :

لذلك يقر أكثر الناس بأنه هو مالك الملك ، المتصرف بالكون ، ولكن
هل يكفي هذا ليكون مؤمنا ؟

لا .. بل لابد معها من القضية الرابعة ، وهي أنه وحده الإله المعبود . إذا
اعترفت بأن الله موجود ، وأنه رب العالمين ، وأنه مالك الملك ، فلا تعبد معه
غيره ، ولا تقابل غيره بأي صورة من صور العبادة ، وقد أراني الله معنى لسورة
الناس ، فيه رد على من يقر بوجود الله وبربوبيته وملكه ، ولكنه لا يوحد
توحيد الألوهية ، معنى لم أجد من المفسرين من ذكره ، وأرجو أن يكون
صوابا .

يقول الله عز وجل :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

فلماذا كرر لفظ الناس ؟ وعمد إلى الإظهار بدلا من الإضمار ، ! فلم يقل

مثلا : « رب الناس ، وملكهم ، وإلههم .. ؟! » . الذي ظهر لي : كأن ربنا (والله أعلم) يقول لهم : « هذه ثلاث قضايا ، متماثلة متكاملة ، كل قضية مستقلة بنفسها ، مع ارتباطها بأختها . فهو : ﴿ رب الناس ﴾ أي خالقهم وحافظهم ، وهو : ﴿ مَلِكُ الناس ﴾ أي مالِكهم المتصرف فيهم . وهو : ﴿ إِلَه الناس ﴾ أي المستحق وحده لعبادتهم ، ولا يجوز أن يكون له شريك فيها .. » . ومقتضى ذلك أن تصدقوا بالقضايا الثلاث ، أو أن تنكروا القضايا الثلاث ، فما بالكم : تصدقون بالأولى والثانية ، وترفضون الثالثة ؟ كيف تفرقون بين المتماثلات ؟ فتقبلون بعضا وتأبون بعضا ؟ والثلاث سواء في الثبوت ، لا سبيل إلى التفريق بينهما في الحكم ؟ .



توحيد الألوهية

الإيمان بأن الله رب العالمين ، وأنه مالك الكون ، عمل من أعمال القلب ، عقيدة يعتقد بها الإنسان ، أما الإيمان بأنه الإله ، فلا يقتصر على الاعتقاد ، بل يتعداه إلى السلوك والعمل ، وإلى القيام بالعبادة ، وإفراد الله بها ، فإن استكف عن عبادته ، أو عبد معه غيره لم يكن مؤمناً ، وإن صدق واعتقد أن الله هو رب العالمين ، ومالك الكون ؛ فما هي العبادة ؟ أول ما يدير إلى الذهن ، أن العبادة هي الذكر والصلاة والصيام وتلاوة القرآن وأمثال ذلك مما يقرب إلى الله ، وهذا حق . ولكن لعبادة لا تقتصر على هذا ، بل إن كل عمل نافع ، لم يمنعه الشرع ، يعمل به المؤمن ابتغاء ثواب الله ، يكون عبادة .

يأكل ليتقوى على الطاعة فيكون أكمله بهذا القصد عبادة ، وينكح ليعف نفسه وأهله ، فيكون نكاحه عبادة ، وبمثل هذا القصد يكون كسبه المال عبادة ، وإنفاقه على أهله عبادة ، وتحصيله العلم والشهادات عبادة ، وشغل المرأة بأعمال بيتها ، وخدمة زوجها ، ورعاية أولادها عبادة ، وكل عمل مباح إن قصد فاعله قصداً فيه رضا الله كان عبادة ، فالعبادة يتسع معناها حتى يشمل كل أعمال الإنسان النافعة ، ويحيط بها كلها ، ولعل هذا هو المعنى المقصود بقوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .. ﴾ .

روح العبادة :

والعبادة لها روح ولها جسد ، فروحها العقيدة التي دفعت إليها ، والغاية التي عملت من أجلها ، وجسدها عمل الجوارح ، من لفظ اللسان ، وحركات الجسم . الصلاة مثلاً سرركات وألفاظ ، قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وتلاوة وذكر وتسييح ، ولكن هذا كله جسد الصلاة ، فإن لم يكن الدافع إليه توحيداً صحيحاً ، وعقيدة سليمة ، ولم يكن المقصود به امتثال أمر الله ، وطلب رضاه ، كانت الصلاة جسداً ميتاً لا روح فيه .

الأساس في توحيد الألوهية :

الأساس أن نعتقد أن الله وحده هو النافع وهو الضار ، ولا بد لهذا من شيء من البيان : الله خالق كل شيء ، أوجد العوالم ، وبث فيها من كل شيء ، وأعطانا العقول وقال لنا : فكروا بعقولكم في هذه الأشياء التي خلقتها ، وانظروا ماذا في السموات والأرض ، فنظرنا فوجدنا أن الله الذي خلق هذه الأشياء ، قد سلط بعضها على بعض ، فالنار إذا مست الشجرة اليابسة أحرقتها ، والماء إذا صب على النار أطفأها ، والبعوضة^(٣٤) إذا لدغت الإنسان أصابته بالبرداء (الملاريا) ، والمادة التي في قشور شجرة (الكينا) إذا دخلت جسد المريض شفته من البرداء .

وأنه جعل بين هذه الأشياء روابط ، وجعل اجتماعها بمقادير قدرها ، وامتزاجها بنسب عينها ، ينتج عنه أشياء جديدة ، ف (الكلور) وهو مادة مؤذية ، و (الصوديوم) وهو مادة مؤذية ، إذا اجتماعا كان منهما مادة نافعة لا بد للإنسان منها ، ولا يستغنى عنها وهي ملح الطعام .

— ووجدنا أن الروابط والعلاقات ، تتبع كلها قواعد ثابتة ، وأساليب معينة ، لا تتبدل ولا تتغير هي سنن الله في الكون ، التي اصطللحنا على تسميتها (قوانين الطبيعة) .

٢ — وأن هذه الروابط بين الأشياء التي سمينها قوانين الطبيعة ، ليست كلها كالعلاقة الظاهرة بين النار والخشب الذي نحرقه ، والنار والماء الذي يطفئها ، ليست كلها بهذه (البساطة)^(٣٥) وهذا الظهور ، بل إن أكثرها أدق وأعمق .

الله وضع في هذا الكون دواء لكل داء ، ولكن لم يضع الدواء في مكان

(٣٤) أعني النوع المعروف منها .

(٣٥) البساطة في اللغة السعة ولكنني قصدت بها المعنى العامي .

باد للعين ، ولم يجعله (جاهزاً) معداً للاستعمال ، بل جعله (تعالت حكمته) مخبوءاً في أوضاع عجيبة ، وفي أماكن لا يظن أنه موجود فيها ، ف (البنسلين) الشافي ، وضعه ربنا في العفن الأخضر ، الذي يبدو أنه سم مميت ، كما وضع أجمل العطور ذوات الروائح العبقة ، وأبدع الأصبغة ذوات الألوان الزاهية ، في أقبح مادة ريحا وأبشعها شكلاً ، المادة السوداء القبيحة التي اسمها القطران ، ومنها تستخرج العطور والألوان ! .

ولم توضع وضعاً قريباً ، بل إن العنصر المؤثر المطلوب ، جعله ربنا ممزوجاً بمواد أخرى ، متداخلاً معها ، يحتاج استخلاصه منها إلى عمليات وتجارب وجهود ، ومن قرأ كتاب (التلميذة الخالدة)^(٣٦) ، علم كيف احتاج استخراج (غرام الراديوم) ، إلى تصفية ركام هائل كالتل الصغير ، من مواد مختلفة ، وإجراء العمليات المتعاقبة عليها ، التي استمر إجراؤها سنين .

٣ — ولم نكتشف إلى الآن من هذه (النواميس) الكونية التي وضعها خالق الكون إلا قطرة من بحر ، رأينا فيها العجب العجاب ، وصنفنا هذا القليل الذي كشفناه في زمر وأصناف سميناتها (علومنا) ، فكان منها علم الحياة ، وعلم الكيمياء ، وعلم الفيزياء ، وعلم الجسم (الفسيولوجيا) ، وعلوم الطب ، وسائر العلوم ، وانقطع إلى كل علم منها ناس منا ، تفرغوا لفهم قوانين الله فيه ، وكشف المزيد منها ، فكان منهم علماء الحياة ، وعلماء الكيمياء ، وسائر العلماء .

٤ — ووجدنا أن في الكون أشياء تضرنا وأشياء تنفعنا ، وأن النفع والضرر على نوعين . منه ما يكون بسبب ظاهر ، تطبيقاً لقانون من قوانين الطبيعة ، التي كشفناها وأدخلناها في نطاق علومنا ، كمن يقف قلبه بتناول مادة سامة عرفناها ، وعلمنا — بالتجربة — تأثيرها في القلب ، ومنه ما يكون

(٣٦) قصة مدام كوري وزوجها . وأرجو أن يقرأ الطلاب هذا الكتاب ، ليروا كيف يكون الصبر على تحصيل العلم . وفي سير علمائنا الأولين مئات الأمثلة على مثل هذا الصبر ، وعلى الإخلاص للعلم والجد فيه .

بغير سبب ظاهر ، ولا يستند إلى قانون معروف ، كمن يكون قوي الجسد ، صحيح الجسم فيقف قلبه فجأة ، بسكتة قلبية لا نعرف سببها ، وكلا النوعين من الله ، فالله وحده هو النافع ، وهو الضار .

٥ — والله قد فطر الإنسان على جلب النفع ، فهو يتخذ لجلبه كل وسيلة ، وفطره على كره الضرر ، فهو يستعمل لدفعه عنه كل حيلة ، ويستعين على ذلك بكل طاقة ممكنة ، وهذه الاستعانة منها ما يجوزها الدين ، ومنها ما يمنعه ، ويراه منافياً للإيمان . فما هي الاستعانة المشروعة ، وما هي الاستعانة الممنوعة ؟

إذا مرض ولدك ، وكان الطبيب إلى جوارك يسمع كلامك (فدعوته) ، ففحص عن المرض ، ووصف له الدواء ، كانت هذه استعانة مشروعة ؛ لأنك استعنت على الشفاء بالقانون الطبيعي ، الذي وضعه خالق الكون ، وبالرجل العالم بهذا القانون ، ولكن إن دعوت دجالاً أو ساحراً ، ليعمل على شفائه بلا علم ، ولا قانون ، بل بقوى غيبية يزعم الاتصال بها ، لم يثبت وجودها بالعلم الحسي ، ولا بالدليل السمعي^(٣٧) كانت استعانة ممنوعة .

وإن جئت قبر الطبيب بعد موته ، فدعوته وهو لا يقدر أن يفحص المريض ، وأن يصف الدواء ، كانت استعانة ممنوعة . وإن عجز العلم ولم ينفع الدواء ، فتوسلت إلى الشفاء بالدعاء ، أو بالصدقة ، أو طلبت من رجل صالح أن يدعو لك ، كانت هذه استعانة مشروعة ، وإن وقفت على قبر الرجل الصالح ، فاستعنت به وهو لا يملك تحريك لسانه بالدعاء لك ، ولا يقدر من عند نفسه على شفاء مريضك ، كانت هذه استعانة ممنوعة .

وتوسلك إلى الشفاء بسقي المريض الدواء الذي وصفه له الطبيب مشروع ، ولكن إن أخذت الوصفة فجعلتها (حجاباً) علقته بعنق المريض ، أو نقعتها وسقيته ماءها ، واعتقدت أن ذلك يشفيه فذلك ممنوع ، وطلبك النفع

(٣٧) الدليل السمعي : هو آية من كتاب الله تعالى ، أو حديث ثابت من أحاديث رسول الله ﷺ .

بأشياء لم يجعلها الله سبباً ظاهراً له ممنوع ، فالمرأة العاقر التي تشتهي الولد ، إذا استعانت بطب الأطباء ، وبالأدوية التي أنزلها الله ، المستخرجة وفق قوانين العلم ، لم تأت أمراً ممنوعاً ولم تخالف الدين ، ولكن إذا اعتقدت (كما كان يعتقد عجائز الشام^(٣٨)) : أن قرع حلقة (جامع الحنابلة) في جبل قاسيون أول جمعة من رجب ، يسبب لها الحبل ، أو توسلت إلى ذلك بربط خرقة على شباك أحد القبور ، تكون قد ارتكبت ممنوعاً ، وخالفت عقيدة التوحيد .

فتبين من هذا أن الاستعانة بقوانين الطبيعة ، والرجوع إلى الرجل العالم بها ، واتخاذ الأسباب المعتادة لحصول النفع ، كل ذلك جائز مشروع ، على أن نذكر أن النافع في الحقيقة هو الله تعالى وحده دون سواه . وأن الاستعانة بقوة غيبية مزعومة ، لم يؤيدها العلم التجريبي ولم يثبتها الدليل السمعي ، إنما هي استعانة ممنوعة ، منافية لعقيدة التوحيد .

التحليل والتحریم لله وحده :

وهذه المنافع التي نصل إليها بتطبيق قوانين الطبيعة منافع دنيوية ، لأن الله سلط عقولنا على كشف هذه القوانين ، ولم يسلطها على كشف ما وراء المادة ، ولا على جلب المنافع الأخروية ، فنحن نعمل على جلب النفع ، ودفع الضرر ، في حدود المادة ، وفي هذه الدنيا ، ولا نملك لأنفسنا في العالم الآخر نفعاً ولا ضرراً .

ولما كان الله قد جعل للنفع الأخروي سبباً ، وهذا السبب هو عمل الواجب، وجعل للضرر الأخروي سبباً ، وهذا السبب هو فعل الحرام ، كان التحريم والتحليل ، الذي يترتب عليه الثواب والعقاب لله وحده ، وليس لأحد أن يقول برأيه ، هذا حلال وهذا حرام . وليس لأحد أن يوجب أمراً لم يوجبه الله ، أو يحرم أمراً لم يحرمه الله ، ومن أعطى حق التحليل والتحريم لغير الله ،

(٣٨) وكما تعتقد نساء إيطاليا ، أن من تتناول بكلتا يديها إلى نافذة ضريح أحد القديسين ، يزول عقمها إذا كانت عقيماً . ولنساء أوربا وأميركا اعتقادات أغرب من هذا .

يكون قد عبده من دونه ، أو شاركه معه في عبادته (٣٩) ؟

حب الله وخشية الله :

الإنسان يحب ويكره ، يحب الطعام اللذيذ ، ويحب المنظر الجميل ،
ويحب الرجل المرأة ، وقد يبالغ في هذا الحب (أي : العشق) ، فيفيض
عليه — كما قدمنا — بعض مظاهر العبادة ، ولكنه يبقى مع ذلك مقيدا محدودا
ككل حب بشري .

فنحن نحب المنفعة التي ننالها من الشيء الذي نحبه ، أو اللذة التي نحس
بها بقرب الشخص الذي نعشقه ، فإذا أصيب المحبوب بمرض مشوه تتساقط
منه الجوارح ، ويذهب معه الجمال ، أو فسد الطعام وركبه العفن ، أو تبدل
المنظر وذهب منه الجمال ، انتهى هذا الحب ، بل ربما تحول إلى كره .

أما حب الله الذي يحسه المؤمن فهو حب مطلق غير مقيد ولا محدود ،
بل إن ما نحبه في الدنيا ، إنما نحب فيه الخالق الذي خلقه وأوجده ، وسخره
لنا وأقدرنا على الانتفاع به ، أو التلذذ بمرآه أو ملمسه .

والإنسان يخشى كثيرا من المخلوقات ، يخشى النار المشتعلة ، والوحش
المفترس ، والسم المميت ، والظالم القوي . ولكنها خشية محدودة مقيدة ،
هي البعد عن الضرر الكامن في المخوف ، أو الناشئ عنه ، فإذا أمن الضرر
ذهب من نفسه الخوف ، أما خوف الله فمطلق غير مقيد ولا محدود .

وحب الله والخشية منه ، هما من أسس التوحيد ، وهما روح العبادة ،
ولا بد من التنبيه على أن حب الله ليس معناه نظم قصائد الغزل بالله كما فعل ابن

(٣٩) ولو أن مسلماً شرب الخمر وهو معتقد حرمها معترف بذنبه ، وآخر ادعى أن شراب الليمون —
مثلا — حرام ، لكان ذنب من حرم الحلال بلا دليل ، أكبر من ذنب من ارتكب الحرام بلا إنكار لحرمته ..
ولقد قرن ذلك في القرآن بالشرك : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا
آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ .

الفارض ، ولا تسميته بالعشق الإلهي كما نسبوا إلى رابعة العدوية .

وخوف الله ليس معناه الفزع المؤدي إلى الكره ، ولا الجزع الموصل إلى الاختلال ، بل إن حب الله بطاعته وإيثار مرضاته على شهوات النفس ووساوس الشيطان ، واتباع رسوله ﷺ فيما جاء له : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي .. ﴾

فالاتباع هو مقياس الحب ، وخوفه باجتناب محرماته ، وإيثار لذة الثواب في الآخرة ، على لذة المعصية في الدنيا .

ثم إن الطاعة لله ليست كالطاعة لمخلوقاته ، فنحن نطيع بعض البشر إما امتثالاً لأمر الله كطاعة الرسول ، أو استجابة للدواعي الطبع ، أو خوفاً من الخطر . فالشغب يطيع الحاكم ، والولد يطيع الوالد ، والمرأة تطيع الزوج ، والإنسان يطيع من أحسن إليه إذا أمره بما لا يضره ، وقد يكره أحدنا على الطاعة فيطيع خوفاً من الأذى ، ولكن هذه كلها (عدا طاعة الرسول فهي من طاعة الله) كلها طاعة محدودة ، ليست الطاعة المطلقة التي لا حد لها ، لأن الطاعة المطلقة لله ، والطاعة في كل شيء ، الطاعة فيما يسرنا ويسوؤنا ، فيما نفهم حكمته وما لا نفهم حكمته ، وهذه الطاعة هي ثمرة حب الله ، وهي الدليل عليه .

آيات الصفات

لقد اجتنبت في هذا الكتاب الخوض في المسائل الكلامية ، وأعرضت عن سرد اختلافات المتكلمين ، ولكن مسألة (آيات الصفات) قد طال فيها المقال ، وكثر الجدل ، ولا بد من بعض البسط للكلام فيها .

لقد وصف ربنا نفسه في القرآن بألفاظ موضوعة في الأصل للدلالة على معاني أرضية ، ومقاصد بشرية ، مع أن الله ليس كمثله شيء ، وهو الرب الخالق ، تعالى على أن يشبه المخلوقين ، ولا يمكن أن تفهم هذه الألفاظ حين إطلاقها على الله ، بالمعنى نفسه الذي تفهم به حين إطلاقها على المخلوق .

فنحن نقول فلان عليم ، وفلان بصير ، ونقول إن الله عليم ، بصير ، ولكن الكيفية التي يعلم بها العبد ويبصر ، ليست هي التي يعلم بها ربنا ويبصر . وعلم العبد وبصره ليس كعلم الله وبصره ، كذلك نقول استوى المعلم على منبر الفصل ، ونقول استوى الله على العرش ، ونحن نعرف معنى الاستواء (القاموسي) ونطبقه على المعلم ، ولكن هذا المعنى لا يمكن أن يكون هو بذاته المقصود حين نقرأ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ .

هذا كله متفق عليه بين العلماء ، فهم جميعا مقرّون بأن آيات الصفات هي كلام الله . فإذا قال الله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ . لم يستطع أحد أن يقول : ما استوى .

وهم جميعا معترفون بأن المعنى القاموسي البشري لكلمة (استوى) ليس هو المراد من قوله ﴿ استوى على العرش ﴾ . ولكنهم مع ذلك اختلفوا اختلافا كبيرا ، في المراد المقصود ، بعد اتفاقهم على ترك التعطيل والتشبيه ، تساءلوا : هل هذه الآيات حقيقة أم مجاز ؟ وهل تؤوّل أم لا تؤوّل ؟

أما الذين أوّلوا فقالوا بأن الحقيقة هي استعمال اللفظ بالمعنى الذي وضع له . وهذا هو تعريف الحقيقة عند عامة علماء البلاغة ، ولاشك أن اللسان العربي الذي نزل به القرآن ، وضعت فيه هذه الألفاظ قبل نزول القرآن ، ووضعت لمعانٍ أرضية مادية ، حتى إنها لتعجز عن التعبير عن العواطف والمشاعر البشرية ، فضلا عن التعبير عن صفات الله خالق البشر ، فإن مظاهر الجمال وأشكاله لا حدّ لها ، وما عندنا لها كلها إلا كلمة (جميل) ، وأين جمال المنظر الطبيعي ، من جمال القصيدة الشعرية ، من جمال العمارة المزخرفة ، من جمال الغادة الحسنة ، وفي النساء ألف لون من ألوان الجمال ، وما عندنا لها كلها إلا هذا اللفظ الواحد ، فاللغات تعجز عن وصف الشعور بالجمال .

وكذلك القول في الحب ، في تعداد أنواعه ، واختلاف مشاعره ، وضيق ألفاظ اللغة عن وصف هذه الأنواع ، ونعت هذه المشاعر ، فكيف تحيط بصفات الله وتشرح كيفياتها ؟

وإذا كانت الحقيقة هي (استعمال اللفظ فيما وضع له) ، وكانت ألفاظ : استوى — وجاء — وخادع — ويمكر — ونسيهم إنما وضعت للمعاني الأرضية البشرية المادية ، وكان استعمالها في القرآن في قوله ﴿ استوى على العرش ﴾ ﴿ وجاء ربك ﴾ ﴿ وهو خادعهم ﴾ ﴿ ويمكر الله ﴾ وقوله ﴿ فنسيهم ﴾ في غير هذا المعنى المادي الأرضي البشري الذي وضعت له ، لم تكن إذن (حقيقة) بمقتضى تعريفهم هذا للحقيقة .

ومن ينكر أنها مجاز ، ومنهم ابن تيمية ، يعرف (الحقيقة) تعريفاً آخر خاصاً به ، غير التعريف الذي جرى عليه البلاغيون ، ويقول ما معناه : إن تأويل هذه الألفاظ ، أي تفسيرها تفسيراً مجازياً ، والعزم بأنه هو المراد مردود ، لأن المعاني المجازية هي أيضاً معاني بشرية . ولقد نظرت فوجدت أن هذه الآيات على ثلاثة أشكال :

١ - آيات وردت على سبيل الإخبار من الله ، كقوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ . فنحن لا نقول : « إنه ما استوى » ، فنكون قد نفينا ما أثبتته الله . ولا نقول إنه استوى على العرش ، كما يستوي القاعد على الكرسي ، فنكون قد شبهنا الخالق بالمخلوق ، ولكن نؤمن بأن هذا هو كلام الله ، وأن الله مراداً منه لم نفهم حقيقته وتفصيله ، لأنه لم يبين لنا مفصلاً ، ولأن العقل البشري (كما قدمنا) يعجز عن الوصول إلى ذلك بنفسه .

٢ - آيات ، وردت على الأسلوب المعروف عند علماء البلاغة بالمشاكلة ، والمشاكلة هي كقول القائل :
قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

وقول أبي تمام في وقعة عمورية ، يرد على المنجمين الذين زعموا أن النصر لا يجيء إلا عند نضج التين والعنب :
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
والآيات الواردة على هذا الأسلوب كثيرة ، كقوله تعالى :
﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ .

فكلمة (نسوا) جاءت على المعنى (القاموسي) للنسيان . وهو غياب المعلومات عن الذاكرة . ولكن كلمة (فَنَسِيَهُمْ) جاءت مشاكلة لها ، ولا يراد منها ذلك المعنى ، لأن الله لا ينسى :
﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ .

ونقول بعبارة أخرى :

إن كلمة (نسوا) استعملت بالمعنى الذي وضعت له . وكلمة (فَنَسِيَهُمْ) استعملت بغير هذا المعنى .
ومثلها قوله ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ اتفق الجميع على أنها معية علم لا معية ذات ، لأن صدر الآية ينص على أن الله استوى على العرش .
ومثلها قوله ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ ، وقوله ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ ، وقوله ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ .
كل هذه الآيات لا يجوز فهمها بالمعنى القاموسي ، المادي ، بل بمعنى يليق به جلّ وعلا .

٣ — آيات دلت على المراد منها آيات أخرى . كقوله تعالى :
﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدِّ اللَّهُ مَغْلُولَةً ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .
تدل على المراد منها آية :
﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ .
ويفهم منها أن بسط اليد يراد به الكرم والجود ، ولا يستلزم ذلك ، (بل

يستحيل) أن يكون لله تعالى يدان كأيدي الناس والحيوان ، تعالى الله عن ذلك .

وقد جاء في القرآن قوله :

﴿ يَنْ يَدَيَّ رَحْمَتِهِ ﴾ ، و﴿ يَنْ يَدَيَّ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . والقرآن ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾
وليس للرحمة ولا للعذاب ولا للقرآن ، يدان حقيقتان .

المحكم والمتشابه :

بين الله في القرآن ، أن فيه آيات محكمات ، واضحة المعنى ، صريحة اللفظ ، وآيات وردت متشابهات ، وهي التي لا يَضِحُ^(٤٠) المعنى المراد منها تماما ، بل تكثر أفهام الناس لها ، وتشابه تفسيراتها حتى يتعسر أو يتعذر معرفة المراد منها ، وآيات الصفات منها ، وأن على المؤمن ، أن لا يطيل الغوص في معناها ، ولا يتبعها فيجمعها ، ليفتن الناس بالبحث فيها^(٤١).

موقف المسلمين منها وكيف فهموها :

المسلمون الأولون ، وهم سلف هذه الأمة ، وخيرها وأفضلها ، لم يتكلموا فيها ، ولم يقولوا إنها حقيقة ، ولم يقولوا إنها مجاز ، ولم يخوضوا في شرحها ، بل آمنوا بها كما جاءت من عند الله على مراد الله .

فلما انتشر علم الكلام ، وأوردت الشبه على عقائد الإسلام ، وظهرت طبقة جديدة من العلماء ، انبرت لرد هذه الشبه ، تكلم هؤلاء العلماء في آيات الصفات ، وفهموها على طريقة العرب ، في مجاوزة المعنى الأصلي للكلمة إذا لم يمكن فهمها به إلى معنى آخر ، وهذا ما يسمى : (المجاز) ، أو

(٤٠) يضح : هي الفعل المضارع من الفعل الماضي (وضع) . ومثلها : وعظ — يعظ .

(٤١) ومن جمعها كلها ، وألقاها على التلاميذ ، فقد جانب طريقة السلف ، لا سيما إذا ضم إليها أحاديث الآحاد المروية في مثلها ، والتي لا تعتبر دليلا قطعيا في أمور العقائد .

وهو موضوع نزاع بين العلماء طويل . والحق أن هذه الآيات نزلت من عند الله ، من أنكر شيئاً منها كفر . وأن من عطلها تماماً ، فجعلها لفظاً بلا معنى كفر . ومن فهمها بالمعنى البشري ، وطبقه على الله ، فجعل الخالق كالمخلوق كفر . والمسلك خطر ، والمفازة مهلكة ، والنجاة منها باجتناب الخوض فيها ، واتباع سنن السلف ، والوقوف عند حد النص ، وهذا ما أدين الله به ، وما اعتقده .

مظاهر العبادة

القلب الذي يؤمن بأن النفع والضرر كله من الله ، وأن التحليل والتحريم لله ، وأن الحب المطلق والخوف المطلق والطاعة المطلقة لله ، يمتلىء بتعظيم الله ، ويستشعر معنى (الله أكبر) ، فيصغر معه كل شيء في جنب الله .

ولما كان في أعمال الإنسان ما يدل على التعظيم المطلق ، كالدعاء والصلاة ، والركوع والسجود ، والنذر والذبح ، والتسبيح والتهليل ، فإن المؤمن لا يصنعها إلا لله ، فلا يصلي لسواه ، ولا يركع ولا يسجد إلا له ، ولا يقول لأحد غيره : سبحانك ، ولا يطلب غفران الذنوب إلا منه ، لأن هذه كلها من مظاهر التعظيم المطلق ، الذي هو سرّ العبادة .

ومن أعظم مظاهره الدعاء ، والدعاء في اللغة النداء ، والشرع لا يمنع أن تدعو (أي تنادي) إنساناً حياً يسمع صوتك ، ليعينك بعلمه أو قوته ، على جلب النفع لك ، وليس هذا هو الدعاء الذي نتكلم عنه ، بل الدعاء الذي

(٤٢) التأويل : من آل الأمر إلى كذا أي : صار ، وأوله إليه (على وزن فعل) أي : صيره ، ولفظ (التأويل) جاء في القرآن بمعنىين : تأويل لفظي ، أي بيان ما ينتهى إليه معنى اللفظ : ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ وتأويل عملي ، أي بيان ما تنتهى إليه الحال ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ ومن هنا فرق المتأخرون بين التأويل والتفسير ، فالتأويل ما بينا ، والتفسير كشف المعنى من فسر (مثل سفر) أي انكشف .

نقصه هنا ، والذي هو مَحَّ العبادَة ، هو طلب جلب النفع ودفع الضرر بلا سبب مادي ظاهر ، وهذا الذي لا يوجّه إلا لله وحده ، رأسا بلا واسطة ، فلا يطلب الشفاء نفسه من الطبيب ولو كان حيا ، لأن الطبيب يصف الدواء ، والشفاء من الله ، فأولى ألا يطلبه — أو يطلب ما يشابهه — من ميت أو من جماد ، لأنه لا يمنح النفع بلا سبب ظاهر إلا الله .

فالمؤمن يتخذ الأسباب ، ثم يطلب المسبب من الله ، وما لا يعرف الناس له سببا يطلبه من الله وحده ، يدعو ويقول : « يا الله » ، ويعتقد أن بابه مفتوح ، وأن إجابته حاصلة ، ولا يدعو غيره بدله ، ولا يدعو غيره معه ، ولا يتخذ غيره وسيطا في الدعاء بينه وبينه . هذا هو الدعاء الذي هو مَحَّ العبادَة .

غاية العبادَة :

قلت إن للعبادة جسدا هو الألفاظ التي ينطق بها اللسان ، والأعمال التي تقوم بها الأعضاء ، ولها روح وروحها العقيدة التي دفعت إليها ، والغاية التي عملت من أجلها ، أي النتائج التي قصدها من عملها . وقد شرحت جانبا من هذه العقيدة ، وسألم الآن بطرف من هذه المقاصد .

المقصد الصحيح للعبادة : أن يكون الباعث عليها ، والمقصود بها رضا الله ، فلا نعملها للمال ، ولا للجاه ، ولا لنيل إعجاب الناس ، ولا نتخذها سلما إلى متع الدنيا ، ولا نريد بها الشهرة بالصلاح ، وهذا المقصد الصحيح يسمى (الإخلاص) ، وما يداخله من المقاصد الأخرى يدعى (الرياء) ، والذي يحدّد المقصد من العمل هو (النية) . والله لا يسألنا يوم القيامة عن الأعمال فقط ، بل يسألنا لماذا عملناها ، وقد يكون العمل صالحا في ذاته ، ولكن لم يصح المقصد منه ، ولم تسلم النية ، ولم تكن خالصة لله ، فيتحوّل صلاحه إلى فساد ، وجسده إلى قبح .

الصلاة مثلا عمل صالح ، ولكن إذا كانت نية المصلي أن يراه الناس ، فيعتقدوا صلاحه فيعطوه الأموال ، ويهدوا إليه الهدايا . ولم يصلّ امتثالاً لأمر

الله ، وطلبنا لرضاه ، كانت صلاته هذه عملا سيئا ، وإن كانت الصلاة في الأصل من الأعمال الحسنة .

لذلك تفاوتت هجرة المهاجرين ، فكان منها الحسن والسيئ ، وإن كان ظاهرها واحدا ، وكانوا جميعا قد اشتركوا في السفر والارتحال ، ومشوا في وقت واحد ، في طريق واحد ، فمن كان يقصد الفرار بدينه ، ورضا ربه ، كانت سفرته هجرة لله ، يثاب عليها ثواب المهاجرين ، ومن كان خاطبا امرأة في المدينة ، يريد زواجها ، فلما رأى المهاجرين ، قال في نفسه : إنني أصحبهم لأنزوج بهذه المرأة ، أو كانت له تجارة فصحبهم ليعمل في تجارته ، وكان هذا وحده هو مقصده من السفر ، كانت سفرته للدنيا ، ولم تكن لله .

والنيات هي التي تفرق بين العادة والعبادة ، فمن أفاق متأخرا ، ومضى إلى عمله مستعجلا ، وشغل عن طعامه وشرابه ، فلم يدخل جوفه شيئا إلى الغروب ، يكون قد قام بكل ما يطلب من الصائم ، ولكن لم ينل ثواب الصائمين ، لأنه ما نوى الصيام ولا قصده ^(٤٣) . والأعمال العادية ، المباحة غير الممنوعة ، إذا قصد بها صاحبها رضى الله ، ونوى بها نية صالحة كانت له عبادة ، ومن هنا قلنا : إن جميع أعمال الإنسان النافعة تكون له (بالنية) عبادة ، فتشمل العبادة الحياة كلها ، ويكون المرء متعبدا في طعامه وشرابه ، وقيامه وقعوده ، وكسبه وزواجه ، ومن هنا يكون الفهم الصحيح لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ . فتكون العبادة بهذا المعنى الشامل ، هي غاية الخلق .

الخلاصة

فتلخص من هذا أن توحيد الألوهية ، وهو القسم الرابع ، والقسم

(٤٣) وهذا لا يعارض ما ذهب إليه الحنفية من صحة الوضوء بلا نية ، لمن غسل أعضاء الوضوء كلها لأن (الوضوء) ليس عبادة مستقلة ، ولكنه شرط لهذه العبادة ، كما يشترط لها : ضهارة الثوب والمكان ، وستر العورة ، وذلك كله يصح ولو بلا نية .

الأخص من الإيمان بالله ، هو أن نعتقد أن النفع والضرر كله من الله وحده ، فلا نطلب النفع إلا منه ، إما عن طريق السنن التي وضعها لهذا الكون المسماة بقوانين الطبيعة ، وإما منه رأساً بالدعاء ، تدعوه وحده ، لا تدعوه غيره ، ولا تدعوه مع غيره ، ولا تتخذ إليه وسيطاً ، ولا تستعين إلا به أو بالأسباب التي جعلها طريقاً للنفع ، مع ملاحظة أنه هو النافع لا مجرد السبب ، وأن تخصصه بالحب المطلق الدافع إلى الطاعة المطلقة ، والخشية الدافعة إلى اجتناب المحرمات ، وأن تخصصه بالتعظيم المطلق ، وبكل ما يدل عليه من قول وعمل ، وأن تقصد رضاه وحده ، لا تقصد بعبادتك الدنيا وأهلها .

البحث العلمي :

ولما كان الله قد أعطانا العقول ، وأمرنا بالنظر في أسرار الوجود ، وفي سننه العجيبة ، وقوانينه التي أوجدها فيه ، وكان علينا امتثال أمر الله ، كان درس العلوم الطبيعية ، واكتشاف أسرار الوجود عبادة . بشرط ألا تقف عند معرفة القانون ، بل تفكر في الإله العظيم الذي أوجده ، فتزداد بهذا الفكر إيماناً بالله ، وإخلاصاً في عبادته ، وشرط آخر : هو أن تستعمل هذه الأسرار فيما ينفع الناس ، ويرضي الله ، لا فيما يضرهم ويؤذيهم ، ويسبب في الأرض الفساد .

شبهة وردها :

يسأل كثيرون ، ما بال الكافر يعمل على ما ينفع الناس ، يوزع الصدقات ، ويبني الملاجئ والمستشفيات ، ويفتح المدارس ، ثم لا يكون له (عندكم) ثواب في الآخرة ؟ والرد : إن الله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى ، ولا يحرم محسناً ثمرة إحسانه ، بل يعطيه ما يطلبه ، أليس الجزاء الأعظم أن تعطي المحسن ما يطلبه .

فإن كان المحسن مؤمناً ، مصداقاً بالآخرة ، وطلب ثوابها ، أعطاه الله ثواب الآخرة ، وإن كان (هو نفسه) لا يريد إلا الدنيا ، والشهرة ، والذكر الحسن ، وأن تكتب الجرائد عنه ، ويسجل التاريخ اسمه ، أعطاه ما يطلبه .

هو لا يريد الآخرة ، فلماذا تحزن أنت ، وتعترض إذا لم يمنح ثوابها ؟ .

جدال في غير طائل :

امتألت كتب علم الكلام بالجدال : في (الصفات) و (الذات) ، هل علم الله تعالى (مثلاً) بذاته ، أم بصفة العلم فيه ، وبالتفريق بين صفات الذات ، كالعلم والقدرة ، وصفات الأفعال كالخلق والرزق . والجدل في كلام الله الذي جر إلى فتنة كبيرة ، ما كان لها من داع ، هي فتنة الامتحان بالقول بخلق القرآن ، وفي الحسن والقبح ، والصلاح والأصلح ، وفي القضاء والقدر ، وإرادة الإنسان ، وأمثالها ، ووجه الحق في هذه المسائل ، هو رفض البحث فيها ، والجدال عليها ، وهي (إذا استعرنا لغة المحاكم) دعوى مردودة شكلاً .

أولاً : لأن السلف وهم أفضل المسلمين ، وخيار هذه الأمة ، من الصحابة والتابعين الكبار ما عرفوها ، ولا بحثوا فيها ، وكان دينهم أسلم ، وإيمانهم أصح ، وهم قدوتنا في ديننا .

ثانياً : لأن من يدقق في أقوال الفرق المختلفة ، يجدها كلها مبنية على أساس واحد ، هو قياس الخالق على المخلوقين ، وتطبيق منطق العقل البشري ، وأحوال النفس الإنسانية على الله . وذلك باطل ، لأن الخالق لا يشبه المخلوق ، ولأن الله ليس كمثله شيء .

ثالثاً : لأن هذه الأمور كلها ، مما وراء المادة ، أي من عالم الغيب ، وقد تقدم في القاعدة الخامسة من قواعد الإيمان ، أن العقل قاصر حكمه على عالم المادة ، لا يستطيع أن يحكم على ما وراء المادة ، ولا يستطيع أن يدركه .

وجه الحق فيها :

وأنا أدعو إلى شيء جديد ، شيء هو أقرب إلى الحق ، وأنفع لنا ، هو أن ننقل الموضوع من جدال في صفات الله ، إلى سلوك في الحياة يوصل إلى

رضاه ، فبدلاً من أن نبحث (بحثاً غير منتج) في القرآن هل هو مخلوق ، أم غير مخلوق ، نقول : إن القرآن أنزله الله لنعمل به ، ولنعمل به ، ولنأتمر بأمره ، ولنقف عند نهيه ، وبدلاً من البحث في علم الله ، وهل هو بذاته أم بصفة زائدة على الذات ، نقول : إذا كان الله يعلم عنا كل شيء من سرنا وجهرنا ، وانفردنا واجتماعنا ؛ فيجب أن نسلك في الحياة سلوكاً موافقاً لشرع ربنا ، حتى يعلم عنا ما يرضيه علينا .

هذا هو الحق ، وما مثل من يصنع هذا ومثل من يجادل في صفات الله ، إلا كمثّل طلاب المدرسة ، الذين يقال لهم : إنها ستأتي لجنة عليا من الوزارة تتولى هي امتحانكم ، فالعاقل منهم يقول : إذا كانت هذه اللجنة ستتولى الامتحان ، فينبغي أن أستعد وأدرس ، ولا أدع من المنهج المقرر شيئاً لا أحفظه ، والأحمق يجادل في هذه اللجنة ، كيف يكون امتحانها ، هل تتولاه كلها أم أفراد منها ، وهل عددها (شفع) أم (وتر) ، وهل تجيء بالسيارة أم بالطيارة ، ولا يزال في هذا وشبهه حتى يأتي يوم الامتحان ، وهو لم يُعَد له شيئاً .

إن الله لا يسألنا يوم القيامة عن شيء مما بنى عليه المتكلمون جدالهم ، وأقاموا عليه مختلف مذاهبهم ، وملؤوا به كتبهم . ولو كان ذلك من شروط الإيمان ، لبحث فيه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فلنتركه كله ، فإنه أثر من آثار الفلسفة اليونانية القديمة التي دالت دولتها ، وبطلت أكثر نظرياتها ، ووهت أدلتها ، وحل محلها في مسائل (الميتافيزيك) ما وراء المادة ، فلسفة جديدة ، لا تقل عنها ضللاً وتخطأ في مهامه الظنون ، فلنجعل كتاب الله إمامنا ، وليكن عليه اعتمادنا ، وما كان فيه من ذكر لأمر مغيب لم يعرض إلا إلى جزء منها ، آمنا بما جاء فيه ، وفوضنا ما خفي عنا إلى من أنزله علينا .

مَظَاهِرُ الْإِيمَانِ

التلميذ الذي يؤمن بأن الامتحان قريب ، لم يبق دونه إلا أسبوع ، ثم لا يستعد له ، ولا يهتم به ، بل يشتغل عنه باللهو واللعب ، لا يكون كامل الإيمان بقرب الامتحان ، والثائه الذي ترشده إلى الطريق الموصل ، فيصدقك ويؤمن بكلامك ، ثم يمشي إلى الشمال بدلاً من اليمين ، لا يكون تام الإيمان بصدق المرشد . فالإيمان الكامل تبدو آثاره في أعمال المؤمن ، وفي سلوكه .

الإيمان والعمل :

فالإيمان لا ينفك عن العمل ، لأن العمل نتيجة له ، وثمره من ثمراته ، وهو مظهره الذي يظهر به للناس . ولذلك قرن الله الإيمان بالعمل الصالح .. ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ... ﴾ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ... ﴾ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ... ﴾ ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُؤُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ... ﴾ .

الإيمان يزيد :

من العلماء من نظروا إلى الإيمان ، باعتباره عقيدة ، لا تقبل التجزئة ، فلا يكون المرء إلا واحداً من اثنين : مؤمناً ، أو كافراً ، ولا توسط بينهما ، فذهبوا إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص .

ولكن الجمهور نظر إليه ، مقروناً بالعمل الصالح ، فأروه يزيد بازدياده ، وهذا هو الحق الذي وردت به النصوص القاطعة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ، زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَوَزَّادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ ﴿ وَمَا زَادَتْهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ .

ترك العمل لا يكفر :

والعلماء من أهل السنة متفقون على أن مجرد ارتكاب المحرم من غير إنكار لحرمته ، وترك الواجب من غير إنكار لوجوبه ، ولا استخفاف به ، يعرض صاحبه لعذاب الآخرة لكنه لا يكفر صاحبه ، ولا يخلده في النار .

وما ورد في الحديث ، من أن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن ، معناه أنه لا يكون ساعة الزنا ذاكراً أن الله مطلع عليه ، ولو ذكر ذلك لمنعه منه حياؤه من الله ، ولو أن فاسقاً أعد عدة الزنا ، وهم ، فرأى أباه يطل عليه ويراه ، هل يستطيع أن يمضي فيه ، أم يمنعه منه الحياء من أبيه ؟ فكيف لا يمنعه الحياء من الله ، وهو ذاكر أنه يراه ؟

ثمرات الإيمان

وثمراته هي هذه الأعمال القلبية ، التي لخصها رسول الله ﷺ ، في الحديث الصحيح ، بهذه الكلمة الجامعة المانعة ، التي تعدّ من جوامع الكلم ، ومن دلائل البيان النبوي ، الذي لا يدانيه ولا يقاربه بيان بشري ، هي قوله في تعريف الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

الذكر :

(٤٤)

وأول هذه الثمرات الذكر ، ولقد قرأت عن أحد الصالحين (ونسيت اسمه) ، أن ابتداء أمره أنه كان له خال متعبد ، وكان يلزمه ، فقال له : « يا خالي ماذا أعمل لأكون مثلك » . فقال له خاله : قل كل يوم ثلاث مرات (إن الله ناظر إليّ ، إن الله مطلع عليّ) . فقالها ، واستمر عليها أسبوعاً ، فأمره أن يقولها ثلاث مرات في عقب كل صلاة ، فقالها ، وتركه أسبوعاً ، وأمره أن يقولها بقلبه بدلاً من أن يحرك بها لسانه ، فتعود بذلك على أن يكون دائماً ذاكراً مراقباً .

وما أمر الله بشيء في القرآن ما أمر بالذكر ، ولا أثنى على أحد ما أثنى على الذاكرين . والذكر في لسان العرب الذي نزل به القرآن ذكران : ذكر القلب ، وذكر اللسان ، وكلاهما ورد في القرآن . فمن ذكر القلب قوله : ﴿ إِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ، وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ .

أي : أن أتذكره ويخطر على بالي . ومنه : ﴿ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ .

ومن ذكر اللسان قوله :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ ﴿ ذَكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ ﴿ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ .

فإذا أردت أن تتحقق لك صفة الذاكر ، فتذكر بقلبك (٤٥) أي :

(٤٤) (وليس تحت يدي وأنا أكتب هذا الكتاب ، شيء من المراجع لأرجع إليه في تذكر مانسيت ، ما عندي إلا كتاب الله وكفى به مرجعاً .

الرجل الصالح هو : سهل بن عبد الله التستري .

(٤٥) (وليس المراد القلب المادي الذى يضخ الدم لأنحاء الجسم ، بل المراد مكان الفكر والمشاعر من الإنسان .

بعقلك) وأنت وحدك ، وأنت في الملأ ، وأنت في السوق ، وأنت في الطريق . وتذكر في كل وقت ، وعلى كل حال ، أن الله يراك ، فلا تعمل إلا ما يرضيه ، فإن أديت واجبا فاذكر أنك تؤديه امتثالاً لأمره ، وإن تركت محرماً فاتباعاً لنهييه ، وإن عملت مباحاً فاقصد به وجهاً تستحق به الثواب ، وإن عرض لك طريقان ، فاختر منهما ما يدنيك من الجنة ويباعدك عن النار ، وإن نسيت فأذنب ذنباً ، ثم تذكرت فتب منه ، واطلب العفو عنه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ، تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ .

واذكر بلسانك ، فإن أفضل الذكر ذكر اللسان مع حضور القلب ، فإن كان الفكر غائباً لا يعي ما يقول اللسان ، كان ذكره كلاماً بلا معنى ، كذكر بيع الكعك في الشام ينادى : (الله كريم) ، لا يقصد ذكر الله ، ولكن بيع الكعك ، وذكر بيع الخس ينادي : (الله الدائم) . وربما كان ذكر اللسان معصية ، كمن يسمي الله على شرب الخمر ، ومن يذكر الله في أغاني الفسوق التي تغنيها المغنيات ، فإن قصد بذلك الهزء ، أو دلت عليه دلالة ظاهرة ، كان ذكره هذا كفراً . وأفضل الذكر تلاوة القرآن ، إلا في المواضع التي عين لها الشارع ذكراً خاصاً ، كالتمسيح في الركوع والسجود مثلاً . والذكر المأثور عن رسول الله ﷺ .

وأما ما يسمى في أيامنا بحفلات الذكر ، وكان يعرف عند علمائنا بالرقص لما فيه من القيام والركوع ، والانحناء والاستواء ، بحركات موزونة ، ونغمات معروفة ، ولا ينطق فيه بتهليل ولا تحميد ، بل بأصوات مبهمات مثل : (آه) و (أح) ، ففي حاشية ابن عابدين^(٤٦) (وهي عمدة المذهب الحنفي) أنه حرام ، إلا إذا فعله مغلوباً على أمره ، غائباً عن حسه ، لم يتعمده ولكن حملته عليه سيطرة العاطفة ، وفرط الوجد ، فإن استحلله قد يحكم بكفره .

(٤٦) الجزء الثالث — صفحة (٣٠٧) من الطبعة الأميرية .

بين الخوف والرجاء :

وأن يكون المؤمن بين الخوف من عقاب الله ، والرجاء لعفوه ، يذكر أن الله سريع الحساب وأنه شديد العقاب ، فيغلب عليه الخوف ، ويذكر أنه عفو رحيم ، وأنه أرحم الراحمين ، فيغلب عليه الرجاء ، فإن ملأ قلبه الخوف وحده . يكون قد يئس من رحمة الله :

﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .
وإن ملأ قلبه الرجاء وحده ، يكون قد أمن مكر الله .
﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقد قدمنا الكلام بأن الخالق لا يشبه المخلوق ، والخوف منه ليس كالخوف من مخلوقاته ، فأنت تخاف من الأسد الذي يواجهك كاشراً عن أنيابه ، مالئاً الجو بزئيره ، وأنت وحدك أمامه أعزل بلا سلاح ، ولكن خوف الله ليس كخوف الأسد ، لأن الأسد يمكن درء خطره عنك ، ولو أرادك به ، والله رب الأسد وخالقه ، لا يمكن دفع قضائه إذا كتبه عليك .

وأنت تخاف السيل الهدار ، يكاد يصل إليك وأنت في مجراه ، لا قوة لك على دفعه ، ولكنه ليس كخوف الله الذي أجراه ، والذي يوقفه ويجففه إذا شاء ويرده إذا أراد ، والسيل يمكن الفرار منه ، والابتعاد عنه ، وعذاب الله إذا وقع ، ما منه مفر . وأنت تخاف الأمراض والآفات ، وفقد الأحباب ، وذهاب المال ، ولكن ذلك ليس كخوف الله ، الذي بيده الأمر كله ، إن شاء ابتلاك به ، وإن شاء عافاك منه ، وما في الوجود شيء يعافيك بما يتليك به الله .

فالمؤمن ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء ، إذا وقف في الصلاة

فقال :

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ .

استشعر الرجاء ، وإن قال :

﴿ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .

أحس الخوف . وأكثر المسلمين اليوم ، غلبوا الرجاء على الخوف ،
والأمل بالعفو ، على توقي العقاب .

على أن المسلم إذا أتى الفرائض ، واجتنب المحرمات يكون من
الخائفين المتقين ، لكنه يخسر الدرجات العالية في الجنة ، فهو كالتلميذ الذي
يحصل أقل درجات النجاح ، لا يرسب في فصله ، ولكن لا ينال تقديراً ولا
مكافأة ، ويكون نجاحه (وسطاً) ، لا (جيداً) ، ولا (ممتازاً) .

التوكل :

قال الله تعالى :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ .

وقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

فما هو التوكل ؟ وما حقيقته ؟ لقد تقدم القول بأن الله جعل فيما خلق
من الأشياء النافع والضار ، وجعل من سنن الكون ما هو سبب للنفع ، وما هو
سبب للضرر ، فهل التوكل على الله ترك الأسباب ؟

لقد كان في المتصوفة من يرى التوكل في ترك السبب ، لا يعمل
لتحصيل الرزق ، وينتظر أن يصل إليه رزقه بلا عمل ، ويدع مريضه بلا
تطبيب ، ويرجو أن يناله الشفاء بلا دواء ، ويسلك الصحراء بلا زاد ، ويأمل أن
يجيئه زاده من غير تعب ، ويدع طلب العلم ، ويعتقد أن العلم يأتيه بلا
طلب (٤٧) ، وهذا مخالف للشرع ، فالشرع يقول :
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ .

(٤٧) واحتجوا خطأ بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴾ مع أنها جملة من آية ، من قرأها كلها أدرك
أنها لا تؤدي هذا المعنى ، ولو فرض أنه يحتج بهذه الجملة وحدها ، وأن العلم يكون بالتقوى بلا تعلم ،
فإنه يرد عليهم أن التقوى إنما تكون بفعل المأمور به شرعاً ، ومن المأمور به طلب العلم ، فمن لم يعمل
بهذا الأمر لا يكون تقياً .

ويقول : « ياعباد الله تداووا » ، ويقول : « وتزودوا » ، ويقول : « طلب العلم فريضة » فمن ترك طلب العلم وزعم أنه يأتيه فقد خالف الشرع والطبع .

ومن الأجانب الذين يعيشون بالمادة وحدها ، وللمادة وحدها ، من يعتقد أن الأسباب هي التي تصنع المسببات ، وأن الدواء يشفي بذاته ، والسعي هو الذي يوصل وحده إلى النجاح ، وهذا مخالف للواقع ، فإنه قد يوجد السبب ولا يوجد المسبب ، قد يحصل التداوي ولا يكون الشفاء ، وقد يكون في المستشفى مريضان في غرفة واحدة ، المرض لديهما واحد ، والطبيب واحد ، والدواء واحد ، فيموت الأول ، ويبرأ الثاني ، وقد يحرق الفلاح الأرض بأحدث الآلات ، ويلقي فيها بأحسن البذور ، ويضع لها أعلى السماد ، فيأتي البرد الشديد ، أو الحر الشديد ، أو الجفاف المحرق ، أو السيل الجارف فتذهب هذه الأسباب كلها هدرأ .

فلا الأسباب وحدها توجد المسبب حتماً ، ولا إهمالها يجوز عقلاً ، بل الذي يدعو إليه العقل ، ويأمر به الشرع ، هو أن يتخذ المرء الأسباب كلها ، ثم يسأل الله تحقيق النتائج ، قيد الناقة وتوكل على الله في حفظها ، وقرأ دروسك كلها وتوكل على الله ، واسأله النجاح في الامتحان .

هذا هو التوكل الحقيقي ، ليس التوكل في إهمال الأسباب ، وتعطيل سنن الله في الكون ، ولا في نسيان أن الله هو النافع الضار ، وابتغاء النفع (حقيقة) من سواه .

الأسباب لا بد منها ، وفي اتخاذها إطاعة لأمر الشرع ، واتباع لسنن الله في الوجود . ولكن الأسباب وحدها لا تكفي ، لأن النتائج بيد الله ، فالمتوكل على الله حقاً ، من يبذل للوصول إلى المطلوب كل جهد ، ويتخذ إليه كل وسيلة مشروعة ، ويعتقد أن الموصل هو الله ، فيتوكل عليه ، ويطلب منه ما يريد .

الشكر :

ويكون بعد ذلك راضياً عن الله ، مهما منعه أو أعطاه ، فيتحقق بصفة الشكر .

﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

والشكر من ثمرات الإيمان ، وإذا أحسن إليك عبد من عباد الله فلم تشكره ، كنت مقصراً عنه ، مسيئاً إليه ، مع أنه واسطة ، والمحسن الحقيقي هو الله ؛ فكيف لا تشكر الله ، والله هو الذي أنعم عليك بنعمة السمع والبصر ، والصحة والأمن ، وبسخرك ما في الأرض ، وأعطاك من النعم ما لا تستطيع عدّه ولا إحصاءه ؟ إن الإنسان لا يعرف قيمة النعمة إلا عند فقدانها ، إن وجعه ضرره رأى أعظم النعم في زوال الألم ، فإن زال عنه نسي هذه النعمة ، وإن احتاج يوماً إلى دينار ولم يجده عرف نعمة الغنى ، فإن هو استغنى نسيها ، وإن انقطع تيار الكهرباء ، وشمل الدار الظلام عرف نعمة النور ، فإن وجده لم يعد بدرك قدره .

فإذا كنت لاتستطيع أن تحصي نعم الله عليك ، أفلا تشكره عليها ؟ تشكر الله بلسانك بحمده والثناء عليه ، فتقول : (الحمد لله ... رب لك الحمد) ، وتشكر الله بعملك فتفيض من هذه النعم على من حرم منها ، وشكر الغني أن يعطي الفقير ، وشكر القوي أن يساعد الضعيف ، وشكر صاحب السلطان أن يقيم الحق ، ويسير بالعدل ، فإن كنت من ذوي اليسار ، وكان على مائدتك خمسة ألوان ، وكان جارك جوعان ، فلم تعطه شيئاً لم تكن من الشاكرين ، ولو قلت بلسانك ألف مرة : (الحمد لله) . وتشكر الله بقلبك فتكون راضياً عنه ، قانعاً بما قسم لك ، لا تسخط ولا تستقل النعم ، ولا تحسد أحداً على ما أعطاه الله .

فمن جمع شكر القلب بالرضا عن الله ، وشكر العمل بأن يفيض على

المحرومين من فضل (٤٨) النعم ، وشكر اللسان بأن يكثر من حمد الله ، كان من الشاكرين حقا .

الصبر :

والمسلم بين نعمتين ، إن أصابه خير فشكر كان له أجر ، وإن مسه ضر فصبر كان له أجر ، فلا يعدل أجر الغني الشاكر ، أو يزيد عليه ، إلا أجر الفقير الصابر .

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وهذه الحياة الدنيا ، ليست دار نعيم ، وليست تخلو من المكدرات ، من انحراف الصحة ، أو ضياع المال ، أو فقد الحبيب ، أو غدر الصديق ، أو ذهاب الأمن ، هذه طبيعتها التي لا تتغير ...

جبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقدار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

قال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ، وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ .. ﴾ .

لأنهم مع الأيام ينسون المصائب ، ويجدون الثواب ، وغيرهم يحمل الألم ، ولا ينال شيئاً .

مصاعب ومصائب لا بد منها ، فإما أن تدأبها بالصبر فتتال الأجر ، وإما أن تثور عليها ، فتزيد ثورتك من عذابك ، ولا تدفع عنك ما بك . هذا هو النوع الأول من الصبر ، الصبر على المصائب .

والنوع الثاني : هو الصبر عن المعاصي ، صبر الشاب الذي يرى العورات البادية ونفسه تميل إليها . فيغض بصره من خوف الله عنها ، ويعرف

(٤٨) فضل النعم : ما يزيد منها ، و (الفضل) فى اللغة الزيادة .

سبيل اللذات المحرمة ، فيمنع نفسه عن سلوكها ، على رغبته فيها ، صبر الموظف الذي تعرض عليه الرشوة ، تعدل راتبه عن ستة أشهر ، فيكف يده عنها ، على حاجته إليها ، صبر التلميذ في الامتحان إذ يتمكن من سرقة الجواب من الكتاب ، فلا يقدم عليها ، وإن كان نجاحه منوطاً بها .

المعاصي لذيدة للنفس ، فإن امتنع عنها ، مع تمكنه منها ، كان مع الصابرين .

والثالث : الصبر على الطاعات ، على القيام لصلاة الفجر ، وترك لذة المنام ودفع الفراش ، في الغداة الباردة ، على احتمال الجوع والعطش في شهر الصيام ، في الصيف الملهب . على إكراه النفس المحبة للمال ، على إخراج الزكاة ، وبذل الصدقة .

الصبر على التمسك بالدين في هذا الزمان الفاسد ، الذي عاد فيه الذين غريباً كما بدأ غريباً ، وصار القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر ، وصار المتدين فيه معرضاً لسخرية الناس ، وإيذاء الحكام ، ونقص المرتب ، والإخراج من الديار ، فمن احتمل ذلك وحده قاصداً ثوابه ، كان من :
﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿ وَإِلَيْكَ يُرْجَوْنَ أَجْرُهُمْ مَّرْتَيْنِ ﴾
﴿ صَبَرُوا ﴾ ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .. ﴾ .

الانقياد لحكم الشرع :

قلنا بأن الإيمان عمل من أعمال القلب ، سر من الأسرار التي لا يعلم بها إلا الله ، وإنما للناس الظواهر ، لذلك ميزنا المؤمن من غير المؤمن بمقاله وأعماله . فالإسلام هو مظهر الإيمان ، والإسلام في اللغة هو التسليم : (أسلم) و (سلم) بمعنى واحد ، فالولد يستسلم لأبيه ثقة به والمحب يستسلم لمحبيه ميلاً إليه ، والمهزوم يستسلم لمن هزمه خوفاً منه . أما المؤمن فيسلم لحكم ربه استسلاماً مطلقاً ، يطيع له كل أمر ، ولو لم يعرف الحكمة منه ، ووجه المنفعة فيه ، ويدع كل ما ينهى عنه ، ولو لم يدرك سر نهيه عنه ،

وهذا الاستسلام له جانبان : جانب عملي ، هو الامتثال بالقول والعمل ،
وسيا تي الكلام عنه إن شاء الله ، في الجزء المخصص للإسلام من هذا الكتاب ،
وجانب نفسي هو الذي نبحت عنه الآن ، ونحن نتكلم عن الإيمان .

هذا الجانب هو الرضا القلبي بحكم الشرع ، واطمئنان النفس إليه ، وأن
نعمل الواجب أو نترك الحرام عن اقتناع ، ليس في قلوبنا تبرم به ، ولا سخط
عليه ، قال تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وهذا هو الجانب العملي .

﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ .

وهذا هو الجانب النفسي ، فلا يكفي مجرد الاحتكام إلى الرسول ، إذا
لم يكن في قلوبنا إعتقاد صحة هذا الحكم ، والرضا به ، والاطمئنان إليه .
﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ
يَقُولُوا (بِأَلْسِنَتِهِمْ مَقْرِنِينَ مُعْتَرِفِينَ بِقُلُوبِهِمْ) سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ .. ﴾ .

ومن الناس من يسأل دائماً عن حكمة الشرع في كل أمر ونهي ، كأنهم
لا يطيعون إلا إذا عرفوا الحكمة ، وللشرع حكمة لا شك فيها ، ولكنها قد تبدو
لنا ، بالنص أو بالاستنباط ، وقد تخفى علينا ، أفنعصي ربنا إذا لم تظهر حكمة
شرعه لنا ؟ ! .

تصور : أنك كلما أمرت ولدك بأمر لم ينفذه ، حتى تبين له مقصدك
منه ، وحكمتك فيه ، ولو كان الموقف ضيقاً لا يتسع للبيان ، ولو كان في
الأمر سر لا يجوز معه الإعلان ! ألا تعد هذا الولد عاصياً لك ؟ ألا تنتظر منه
أن يطيعك على أي حال ، لأنه ولدك ولأنك أبوه ؟ ولو أن ضابطاً تلقى أمر
القيادة فأبى أن ينفذه حتى تشرح له خطتها التي أوحى به ، وغايتها من إصداره ،
ألا يستحق العقاب ؟

إن حق الله على العبد لا يقاس بحق الوالد على الولد ، ولا بحق القائد على الجند ، ومن حقه تعالى علينا أن نطيع في المنشط والمكروه ، والموافق لنا والمخالف لرغبتنا ، لا أن نتمحل الأدلة ، و نتعسف النظر ، لنجد قولاً في الفقه يرضي أهواءنا ؟ ولا أن نجعل من الحضارة الأجنبية ، وأعرافها التي أخذنا بها حجة على الشرع ، فنؤول ما لا يؤول من النصوص ، ونتكسب الطريق المستقيم في البحث لنقول إن ديننا لا ينافي هذه الأعراف ، ثم إذا تبدلت أعراف^(٤٩) المجتمع ، أو تحول مورد هذه الحضارة الأجنبية من الغرب إلى الشرق ، بدلنا بحثنا ، وجئنا بتأويل جديد .

لا ، بل الاحتكام إلى الشرع ، والعمل بحكمه ، والرضا به ، والاطمئنان إليه ، هذا هو شأن المؤمنين المصدقين حقاً بصحة هذا الدين .

شدة ولين :

ومن مظاهر الإيمان ودلائله ، أن يكون الحب في الله والبغض في الله ، نحب المطيع التقي ولو لم يكن لنا منه نفع ، ونبغض الكافر الفاجر ولو لم يئلنا منه ضرر ، بل إننا نبغضه ونهجره ولو كان مفيداً لنا ، ولو كانت تربطنا به أوثق الروابط . ذلك لأن أخوة الدين أقوى عند المؤمن من أخوة الدم ، وصلة العقيدة أوثق من صلة النسب . ولقد بين الله لنوح أن ابنه الكافر ليس من أهله ؛ لأنه عمل غير صالح ، ونفى أن تكون بين المؤمنين وبين المعاندين الذين يحاربون الدين مودة ، و(تعايش سلمي) ، مهما كانت قوة الصلات بين الفريقين . فقال :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

لا يكرههم على الإسلام إكراها ، بل يمنعهم أن يعترضوا سبيله ،

(٤٩) من هذا التبديل أن نقول يوماً (ديمقراطية الإسلام) ، ونقول في يوم آخر (اشتراكية الإسلام) . وبذلك تدور كلما دارت الأيام ، ونساير هوى الحكام .

ويحاربوا دعوته ، فإن اطمأنوا لدعوتنا ودخلوا في ديننا صاروا منا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإن سالموا دعوتنا ، سالمناهم وحفظنا لهم حقوقهم وإن بقوا على دينهم .

فالمؤمن يحب إذا أحب للدين ، ويبغض إذا أبغض للدين . فإذا أحب تجلى فيه كرم النفس ورقة الطبع ، وبدا منه التسامح والبذل ، يذل لأخيه ولا يرى ذلك ذلاً ، ويؤثره على نفسه بالشيء ولو كانت به حاجة إليه . وإذا أبغض ظهر منه الغضب لله ، والشدة في الدفاع عن دينه ، والبأس في قتال أعدائه ، فهو يجمع بين اللين والشدة ، والرفقة والغلظة . اللين والرفقة لإخوانه في الإيمان ، والشدة والغلظة على أعداء الدين أنصار الشيطان .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾
﴿ ذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَخَافُونَ
يَوْمَهُ لَآئِمٌ ۝۰ ﴾ .

هذه حال المؤمنين ، لما كانوا من المجاهدين ، فلما تركنا الجهاد ، وخالفنا الشرع ، وصارت شدتنا على أنفسنا ، وليننا أمام أعدائنا ، سلط الله علينا بذنوبنا من لا يخافه ولا يرحمنا ، فملك بلادنا ، وتحكم فينا .

التوبة والاستغفار :

خلق الله الإنسان وعرّض في نفسه حب العاجلة ، وطول الأمل ، والرغبة في جمع المال ، والشهوة لمقاربة النساء ، والغضب ، والميل إلى البطش والانتقام ، وسلط عليه الشيطان يزين له الفواحش ، ويحبب إليه المعاصي ، ووضع فيه نفساً أماراً بالسوء ، متشبهة للحرام ، تعين عليه الشيطان ، فكان من نتائج ذلك أنه يأتي المعاصي ، ويرتكب الذنوب ، فماذا يصنع لينجو من عقاب المعصية وتبعات الذنب ؟ إن الله من رحمته به فتح له باب التوبة .

(٥٠) وإلى جانب هذا الجهاد لا ينسون قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ، أَنْ تُبْرَهُمْ ، وَتُقَسَّطُوا إِلَيْهِمْ ۝ ﴾ .

قال له : إنك تستطيع أن تمحو من صحيفتك كل ذنب عملته ، فكأنه ما كان ، بل (ربما) سجلت لك حسنة ، مكان السيئة التي كانت عليك ، كدفر التاجر يكون مقيدا فيه أن له عليك مئة دينار ، فلا يكتفي بأن يسامحك بها ويمحوها لك ، بل ينقل قيدها من صفحة الدين الذي عليك ، إلى صفحة الدين الذي لك . قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ، فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ﴾ .

وباب التوبة مفتوح ، مادام المرء صحيحا معافى ، فإن تاب التوبة الصادقة قبلت توبته ، ولا يغلق إلا ساعة الاحتضار ، الساعة التي تصير فيها الروح في الحلقوم . الساعة التي يواجه فيها الإنسان الحقيقة ، ويرى عياناً ما جاء به الرسول خبراً ، فتكون توبته حينئذ من قبيل تحصيل الحاصل ، لأن التوبة هي الرجوع الاختياري إلى الله ، وقد أرجع كرها وجبرا ، فلم يعد ينفعه الإقرار ، بعد أن فقد الاختيار . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ، قَالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارٌ ۝ ﴾ .

وأول شروط التوبة الانقطاع عن الإساءة ، والعزم على أن لا يعود إليها . ولو كنت ماشيا في الطريق ، ففتح رجل نافذته ، وألقى عليك ماء وسخا ، فلما لمته وشتمته ، اعتذر إليك ، وهو مستمر بصب الماء عليك ، أو امتنع عنه ، ولكنه أوعدك بالعودة إلى مثله غدا ، فهل تقبل اعتذاره ؟

إن للتوبة روحا وجسدا ، فروحها استشعار قبح المعصية ، وجسدها الامتناع عنها ، كمن يمشي على طريق ، فيرى لوحة تدله على أنه غير طريقه المقصود . إنه يشعر بخطئه ، وهذا الشعور هو الأصل ، إذ لولا معرفة الخطأ ما

كانت الهداية إلى الصواب، ولكنه إذا اقتصر على هذه المعرفة، ولم يعمل بمقتضاها، واستمر ماشيا في الطريق المنحرف لم ينفعه علمه بانحرافه، بل إنه يكون أكبر ذنبا، وأعظم تبعة، لأن الذي ينحرف وهو لا يعرف، له بعض العذر، ولكن الذي يعرف الطريق، وينحرف عنه عمدا، لا عذر له (٥١).
والشرط الثاني: أن يجعل الإحسان بدل الإساءة، والإصلاح مكان الإفساد، أي أن يحقق التوبة، بتبديل العمل، وتعديل السلوك.

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ، فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا ، فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ .

ومن الإصلاح أن يكون تركك الذنب حقيقيا، وأن تعزم عزمًا صادقًا على ألا تعود إليه. فإن عقدت على ذلك العزم الصادق، ثم غلبتك النفس، أو حملتك الظروف، فعدت إليه، ثم تبت قبلت توبتك، ولو تكررت العودة وتعددت التوبة. أما إن خالط عزمك تردد من الأصل، وقلت في نفسك: إذا اشتدت رغبتي رجعت ثم تبت لا تكون توبتك صادقة ولا مقبولة.

هذا في التوبة من حقوق الله، إنه يكفي فيها أن تترك الذنب نادما على فعله، عازما عزم الصديق على عدم العودة إليه. أما حقوق الناس: إن كنت ظلمت أحدا، أو أكلت ماله، أو أذيت في جسده أو في عرضه، أو شهدت عليه زورا، أو اغتبت به أو وشيت به، أو أشعت عنه قالة السوء، فلا بد في ذلك وأمثاله، من أن تؤدي إليه حقه، أو ينزل لك عنه ويسامحك به، أو يرحمك الله فيرضيه عنك. وإلا لم تقبل توبتك، وأخذ المظلوم يوم القيامة من حسناتك، أو حمل عليك من سيئاته.

(٥١) الأول ضال ولكن الثاني مغضوب عليه . واليهود من (المغضوب عليهم) ، لأنهم عرفوا الحق وخالفوه * فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به * .

وباب التوبة مفتوح مهما كثرت الذنوب ، فلا يئأس أحد من عفو الله ،
فإن اليأس من عفو الله أكبر من كل ذنب .
﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ، لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ
اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ .

فالتوبة هي ترك للسيئء و (رجوع) إلى الحسن ، أما الاستغفار فهو
طلب الغفران من الله ، وقد أمر الشرع به ، وحث عليه .
﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ، وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ، ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾
﴿ سَتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تُؤْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَذُوذُنْ . وَيَأْقُومُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ .

وجاء مثل ذلك على لسان كل رسول ، ينصح به قومه ، ويدلهم به على
طريق العفو من الله ، والنجاة من عذابه .

والمذنبون على درجات : أما الذين ماتوا على كفرهم فلا أمل لهم في
المغفرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ .

والمشركون في الأصل أشد كفرا من أهل الكتاب ، ولكن الجميع في
حكم هذه الآية سواء ، فلا يقال لمن مات كافرا (رحمه الله) ، ولا (غفر الله
له) ، ولا يقال له (المرحوم أو المغفور له فلان) . وأما العصاة من
المسلمين ، الذين ماتوا بلا توبة فأمرهم إلى الله ، إن شاء غفر لهم .
﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾

وإن شاء عذبهم بالنار ، لكنهم لا يخلدون فيها . ولا يستهن أحد بعذاب
النار ، ولا يستخفّه ، فإن نار الدنيا وهي نعمة ، لا يطيق أحد احتمالها دقائق ،
فكيف نعرض أنفسنا لعذاب جهنم دهورا ؟

وأما التائبون فيتوب الله عليهم بمنه وكرمه ، هذا الذي يتوب من بعد
الذنوب ، أما الذي يتوب منه ، ويتنبه لنفسه ويدركه خوف ربه ، قبل إتمام
الذنوب ، ويتركه لله مع شدة الرغبة فيه ، وعظم الميل إليه ، فله أعظم الثواب ،

كمن يستزله الشيطان ، فيدفعه إلى الزنا ، حتى إذا تمت له أسبابه ، وشرع به أو همّ ، فذكر الله ، فأعرض عنه وشهوته متعلقة به ، ونفسه راغبة فيه ، وأين من يقدر على ذلك إلا إن أمدّه الله بقوة منه ؟ فلا يجرب هذه التجربة أحد ، فإنه يكون كمن يتناول جراثيم المرض الخطر ، إن نجا منه اكتسب مناعة تجعله أقوى ممن لم يدن منه المرض ، ولكن احتمال حصول المناعة من المرض واحد في المئة ، واحتمال الهلاك به تسعة وتسعون ، هذا في مرض الجسد ، أما الكف عن الذنب ، فإنه لا يكسبه مناعة من العودة إليه ، فمن أراد السلامة من الشر فليبتعد عنه ، وليقطع أسبابه ، وليسد الطريق إليه ، ويهجر من الناس من يرغب فيه ، ويدعوه إليه . فإن صاحب ساحب ، والمرء على مذهب خليله ، وقديما قالوا : « قل لي من ترافق ، أقل لك من تكون » .

فلينتبه لذلك الناشئون ، ويطلبوا من الله العون .



الإيمان باليوم الآخر

نحن والموت :

نحن والموت على أصناف أربعة ، صنف يهتف مع الشاعر الأحقق :
مامضى فات والمؤمل غيبٌ ولك الساعة التي أنت فيها !!

لا يفكر في ماض ، ولا يعد لمقبل . يظن الأمس^(٥٢) قد فني ، والغد لا يأتي ، يقول : (ما مضى مات) ، ولا والله ما فات ، ولكن قيد علينا حسنه وسيئه ، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . و (المؤمل غيب) ، ولكنه غيب عن الحس ، حاضر في النفس موجود عند الله ، آت لا شك فيه ، وهذا الصنف شر الثلاثة ، وهو الذي لا يذكر الموت ولا يفكر فيه .

وصنف يذكر الموت ، ولكن كذكر الشاعر الفارسي ، عمر الخيام الذي فتن بباطله الناس ، يقول : إذا كان الموت حقاً لاشك فيه ، وكانت الحياة قصيرة لا بقاء لها ، فلنملأها بالعشق والهيام ، وإذا كانت قد جبلت على المكاره والآلام ، فلنهرب منها إلى كأس المدام ، فمضي العمر في شعر ... وسكر .. وعهر ...

وصنف يذكر الموت ، ولكن كذكر أبي العتاهية ، ملأ بذكر الموت بيانه ، وشغل به لسانه ، ولكنه لا يذكر (إلا قليلا) ما بعد الموت . فكأنه يقول مع القائل : « رأيت الموت غاية كل حي » . والقائل الآخر : « إن تحت الرجام نوماً طويلاً » .

وأهل الحق الذين عرفوا أنه ليس غاية ولكنه البداية ، وما هو بنوم ولكنه

(٥٢) أمس إذا أنت (دون تعريف) تكون مبنية على الكسر ، فإذا عرفت بـ (ال) أعربت .

يقظة من النوم ، (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) ، وعرفوا أن وراء الموت حياة أطول ، حياة لا تكاد تنتهي ، إما أن يكون فيها النعيم المقيم ، وإما أن يكون فيها العذاب الأليم . وهذا هو الصنف الرابع ، صنف المؤمنين المهتدين .

الحياة الأخرى :

هذه هي الحياة الحقيقية ، من أصيب بقصر النظر لم يرها ، ومن ابتلى بضعف العقل لم يصدق الخبر عنها ، ومن كان له بصر يرى ، وعقل يدرك ، رأى أن حياة الإنسان مراحل . فلقد كان يوماً منطوياً على نفسه ، مكوماً في بطن أمه ، يعيش بين أحشائها ، ولو كان يفكر يومئذ لظن أن هذه هي الحياة فهو يتمسك بها ، لا يخرج منها إلا مرغماً . ولو كان ينطق لحسب هذا الخروج موتاً ودفناً في الأعماق ، مع أنه (ولادة) ، وانتقال إلى عالم أرحب ، هو هذه الدنيا ، والذي نراه نحن موتاً ، وخروجاً من هذه الدنيا ، هو في الحقيقة ولادة ، وانتقال إلى عالم أرحب ، إلى عالم البرزخ ، البرزخ بين الدنيا المادية الفانية ، والحياة الأخرى الباقية . .

الاستعداد للموت :

الإنسان مغرور فيه طول الأمل ، فهو (غريزة) في نفسه ، لذلك كان الموت أقرب شيء في حواسنا منا ، وأبعد شيء في أفكارنا عنا . نرى مواكب الأموات تمر بنا كل يوم ، ونحس أننا باقون ، ونمشي في الجنائز ، ونحن نفكر في الدنيا أو نتحدث عنها ، ونرى القبور تملأ رحاب الأرض ، ولا نفكر أننا سنكون يوماً من ساكنيها . أستغفر الله ، بل تسكنها أجسادنا ، وما الأجساد ؟ إن الرجل يتوسخ قميصه فيخلعه ويرميه ، والطفل يولد فيدع مشيمته ويخرج منها ، والرجل يموت فيفارق جسده ويتخلّى عنه ، وما الجسد إلا قميص ، يلبس ويخلع ، وما يوضع في التراب إلا الجسد .

الإنسان ينسى الموت ، ولكن المؤمن يذكره دائماً ، ويكون أبداً على استعداد لاستقباله ، يستعد بالتوبة والاستغفار ورد الحقوق ، كلما أصبح وكلما

أمسى حاسب نفسه ، فشكر الله على ما وفقه إليه من خير ، واستغفره مما وقع منه من شر ، يذكر الآخرة ، ويخاف يوما تتقلب فيه الوجوه والأبصار ، يخشى ما بعد الموت من العذاب ، ويرجو ما بعده من المكافأة ، ويستعين على ذلك بالصبر والصلاة ، وفعل الخير ابتغاء رضا الله ، واحتسابا لما عنده .

ساعة الموت من أدلة الإيمان

تأمل قوله تعالى ﴿ فلولاً إذا بلغت ﴾ أي الروح ﴿ الحلقوم ﴾ ، وجاءت ساعة الموت التي لا مهرب منها ، ﴿ وأنتم حينئذ ﴾ تحفون بالمحتضر الحبيب إليكم ، العزيز عليكم ﴿ تنظرون ﴾ تظهرون العاطفة ، تستنجدون الطب ، تبذلون الجهد .

تعانقونه تحديون عليه ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ : لأن حواسكم لا تدرك إلا عالم المادة ، وقد أوشك أن يدخل عالم ما وراءها ﴿ فلولاً إن كنتم غير مدينين ﴾ — كما ترعمون — وغير خاضعين لرب الكون ومالكة ، وكان لكم شيء من الأمر ﴿ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ تردون الروح إلى الجسد بعدما خرجت منه ، تسخرون لذلك عقولكم وعلومكم وأموالكم . فإن لم تستطيعوا ، فلم لا تقرون بأن لهذا الكون ربا ، مالكا لكم ، هو أحياكم وهو يميتكم وهو بعد ذلك يحييكم؟

شبهة تافهة :

قرأت لبعض الملحدين فضلا يسألون فيه ساخرين ، يقولون : « إذا كان يموت في لحظة واحدة ميت في أميركا وميت في الصين ، فكيف يقبض ملك الموت روحيهما ؟ »

الجواب (أولا) : إن مثل الملك بالنسبة لأرضنا ، كمثل أحدنا لو انحنى على قربة فيها آلاف النمل ، أو كأس فيها ملايين الجراثيم ، بل إن الملك من الملائكة أكبر من ذلك بالنسبة إلينا ، وما كرتنا الأرضية في كفه إلا كحبة قمح في كف واحد من البشر .. هذه واحدة .

والثانية : إن لملك الموت أعوانا في قبض الأرواح ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

يوم القيامة :

الإيمان باليوم الآخر (يوم القيامة) الركن الثاني من أركان العقائد ، ولا يكاد يذكر الإيمان بالله في القرآن ، حتى يقرن به الإيمان باليوم الآخر .

والمؤمن يذكره دائما ، فيكثر من الخير ابتغاء ثوابه ، ويتعدى عن الشر ما استطاع خوف عذابه ، إذا عرض له محرم لذيقه ، ذكر ألم الآخرة على ارتكابه فصرف نفسه عنه ، وزهدا في لذته . وإن واجه واجبا صعبا ، ذكر ثواب الآخرة على فعله ، فحمل نفسه عليه ، ورغبها فيه ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ينفقون في السراء والضراء ، يؤثرون على أنفسهم بالخير ولو كانوا أجوح إليه ، يفكرون في شدة عقاب الله ، فتوجل من سماع اسمه قلوبهم ، ثم يتذكرون رحمته فتلين قلوبهم به ، وتستريح إلى ذكره .

موعد الساعة :

لقد صرح القرآن ، بأنه لا يعلم موعدها أحد من الخلق ، لا يعلمه إلا الله وحده .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوْفَتُهَا إِلَّا هُوَ .. ﴾

وأنها لا تأتي إلا بغتة ، وأن أمرها .

﴿ كَلَّمَجَ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾

ولكن ورد في القرآن أنه يسبقها أحداث غريبة تقع في هذا الكون ، منها : أنه يخرج من الأرض دابة تكلم الناس ، وهذا خير حق ، من الغيب الذي لا يدرك بالعقل البشري ، ولا نعلم عنه إلا ما أعلمنا الله به ، والله لم يبين لنا ما هي هذه الدابة ؟ وما صفتها ؟ فوجب الإيمان بها ، وترك الكلام فيها بلا دليل سمعي ثابت .

ومن ذلك : دك سد يأجوج ومأجوج ، وخروجهم منه . والله لم يبين من هم يأجوج ومأجوج ، وأي الأمم هم ، وما بلدهم ، وأين يقع السد ، فإن استطعنا تحديد ذلك بالبحث والاستقراء ، ووصلنا إلى نتيجة لا تخالف خبر القرآن ، قلنا بها ، وإلا صدقنا بخبر القرآن مجملأ ، ووقفنا عند حدوده ، قال تعالى :

﴿ واقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾

وأمر أخرى ورد بها الحديث الصحيح^(٥٣) ، ولم يصرح بذكرها القرآن ، منها : أنه يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا ، ويقل الرجال ، ويكثر النساء ، وتندر الأمانة ، وتضطرب موازين المجتمع فيرتفع المنخفض ، وينزل العالي ، ثم يكون ظهور (الدجال) ، ونزول (عيسى) ناصراً لشرعية خاتم الرسل ، (محمد) صلى الله عليه وعلى إخوانه المرسلين .

ابتداء الساعة :

الذي يظهر من آيات الساعة في القرآن الكريم^(٥٤) أن ابتداءها يكون بزلزال هائل ، لا يشبه ما عرف الناس من الزلازل ، يقع — والله أعلم — والحية البشرية لا تزال مستمرة على الأرض ، والناس لا يزالون أحياء في الدنيا ، فيصاب المجتمع البشري بفزع عام ، ورعب شامل ، يبلغ من شدته أن الأم تذهل عن رضيعها ، على ما ركب في طبعها من الحنو عليه ، والميل إليه ، والحوامل يسقطن من الرعب ما في بطونهن ، والناس يكادون يفقدون عقولهم

(٥٣) الأحاديث التي يرويها واحد عن واحد لا نستطيع أن نجزم بأن الرسول قد نطق بها كما نجم بصحة نص القرآن ، لذلك نحكم بكفر من يكذب شيئاً من القرآن ، ولا نحكم بكفر من ينكر شيئاً من هذه الأحاديث .

(٥٤) في الفصول الأولى من الكتاب : جعلت الكلام عاماً للمسلم وغير المسلم ، واعتمدت فيه على أدلة العقل أكثر من أدلة النقل ، فلما وصلت إلى شعب الإيمان ، وصار الكلام موجهاً — على الغالب — للمؤمن ، جعلت الاعتماد على الأدلة السمعية ، وأكثرت الاستشهاد بالآيات .

الواعية ، فيغدون كأنهم سكارى .

﴿ وما هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

ومما يرجح القول بأن هذا الزلزال قبل القيامة قوله تعالى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ

مَالَهَا ﴾ ؟

فالإنسان باق في الأرض ، يشهد الزلزال ، ويسأل عن أمره ، ويبحث أسبابه (٥٥) .

حوادث فلكية :

يوم القيامة ، وما يكون فيه ، وما يأتى بعده ، هو (كما تقدم القول) من الأمور الغيبية ، ليس للحواس إحاطة به ، كما تحيط بالمخلوقات المادية ، ولا للعقل البشري حكم عليه ، كما يحكم على الحوادث الدنيوية ، وعمله كله في فهم النصوص ، وإدراك معناها .

وفي القرآن نصوص صريحة ، تدل على أن كثيراً من السنن الكونية ، التي سميناها (اصطلاحاً) قوانين الطبيعة ، تطرأ عليها تبديلات وتعديلات ، فكأن استمرارها منوط باستمرار هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتهت مدتها انتهى أمد هذه القوانين .

وكان العالم الذي تشاهده ، بأرضه وكواكبه ، على ما فيه من الإتقان العجيب ، بناء مؤقت ، أقيم لغرض محلود ولمدة محدودة .

من هذه الحوادث ، أن الجبال تصيبها رجفة أرضية هائلة ، تفتت صخورها حتى تصير الجبال كالقطن المنفوش ، ويغدو الجبل العظيم تلا متداعيا ، وكثيبا مهيلا . ثم تنسف نسفا ، فتسير كما تسير كثبان الرمل ، ثم

(٥٥) وقال قوم في ذلك : بل هو البعث لقوله تعالى : ﴿ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ . والقولان محتملان . ولا أجزم .. بل أقول : « الله أعلم ... » .

تغلو سرابا ، وتصير الأرض كلها قاعا مستويا .

كل هذا خبر به القرآن ، وخبر أن البحار تتفجر مياهها ، ثم تتبخر . والكواكب ينتثر عقدها ، ويتبدل مسيرها . والقمر يجمع مع الشمس ، والسماء تكشط وتنشق وتنفطر ، ثم تطوى كما تطوى الرسائل في السجل الكبير ، ثم تكون النتيجة أن الأرض تبدل فكأنها غير الأرض ، وأن السماء تبدل فكأنها غير السماء ، وكل هذا خبر به القرآن .

النفخ في الصور :

لا نعرف ما هو (الصور) على حقيقته ، ولا (كيفية) النفخ فيه ، وكل ما يقال في وصفه وتفصيل أمره ، ما لم يكن مستندا إلى دليل سمعي صحيح ، لا يعول عليه . والذي جاء في القرآن : أنه ينفخ فيه (فيفزع) من في السماوات ومن في الأرض ، وينفخ فيه (فيصعق) من في السماوات ومن في الأرض . والظاهر من القول : أنهما نفختان ، وربما كانت — وهذا أرجح — نفخة الفزع هي نفخة الصعق ، فلا يبقى بعد ذلك من الأحياء أحد إلا مات ﴿ إلى من شاء الله ﴾ ، وتمضي مدة الله أعلم بمداهها ، لم يخبرنا الله عنها ثم ينفخ نفخة البعث ، فتعود الحياة لكل ميت ، ويبعثون من قبورهم ﴿ ينظرون ﴾ ﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾ .

البعث والحشر :

يبعث كل ميت على الحالة النفسية التي مات عليها ، يظن أنه لم يمر عليه إلا ساعة أو ساعات ، كالذي تصدمه سيارة وهو يشتري أو يبيع أو يتحدث ، فيغمى عليه ويغيب عن وعيه ثلاثة أيام ، فإذا صحا عاد يتم حديثه ، أو يكمل بيعه وشراؤه ، لا يدري أنها مرت عليه ثلاثة أيام ، وكذلك يكون الناس يوم البعث ، لذلك علمنا الدين أن نسأل الله حسن الخاتمة .

وقد أقام الله للناس أمثلة على ذلك في الدنيا ، منها الذي مر على القرية الخالية الخاوية فقال :

﴿ أَلَيْسَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَّا اللَّهُ مِثْلَ مِثْلِهِ ، ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ : كَمْ لَيْسَتْ ؟ قَالَ : لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ : بَلْ لَيْسَتْ مِثْلَ عَامٍ ﴾ .

وأهل الكهف ، الذين ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم قاموا يظنون أنهم ناموا ساعات ، وبعثوا يشتررون بنقودهم التي ألغى التعامل بها ، وهم لا يدرون . هذه حال الناس عند البعث ، يظن كل منهم أنه نام قليلاً واستيقظ ، يتناقشون فيما بينهم :

﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَيْسُوا بِغَيْرِ سَاعَةٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ، وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يظنون أنهم لا يزالون في الدنيا ، ولكن هول الموقف ، يقطع كل رابطة بينهم .

﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾

يرى المرء صديقة الحميم فلا يسأل عنه ولا يهتم به . لا يهتم أحد إلا بنفسه ، يهرب من أخيه وأمه وأبيه ، ومن زوجته وبنيه . بل إنه يضحي بهم ويقدمهم أقدية له ، لو كان يقبل منه الفداء ، ويتركون أمداً — الله أعلم بمدته — يموج بعضهم في بعض ، ثم يجمعون فيساقون إلى الحشر .. يساقون جميعاً .

البشر كلهم ، من آدم إلى آخر واحد من ذريته ، من مات منهم على فراشه ، ومن غرق في البحر ، ومن أكله السبع ، ومن سقط من الطيارة ، ومن أحرق بالنار وذري رماده في الهواء ، يعيدهم الذي أوجدتهم من العدم أول مرة ، ويجمعهم جميعاً ، ويساقون إلى أرض المحشر ، هم والجن والشیاطین والوحوش .

﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ .

ثم يأمر ربنا بجهنم فتبرز للناس من بعيد ، ويقول لهم : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبينٌ ، وأن اعبُدوني هذا صراطٌ مُستقيمٌ ، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ
تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .. ﴿ ١٠ 〉 .

ويأمر ربنا فيفرز المجرمون ويمتازون فيعرفون : فيتمنى كل منهم أنه لم
يكن بشراً ، ويقول :

﴿ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا 〉 .

ثم يجمع الله الكافرين في جهنم ، مع الذين كانوا يعبدونهم من دون
الله ، ويظنونهم آلهة من الجن والشياطين ، وما اخترعوا من أسماء ما لها
حقائق ، وما أنزل الله بهامن سلطان ، زعموها آلهة ، كما فعل اليونان بما سموه
(زيوس) و (أفروديت) . والرومان : (جوبيتر) و (فينوس) . والفرس :
(هرمز) و (أهرمان) . والمصريون : (حابي) . والفينيقيون (بعل) .
و (اللات) و (العزى) عند العرب . زعموهم شركاء الله ، وزعم اليونان أو
الرومان أن (أبولون) إله الشمس والفنون . و (باخوس) إله الخمر ،
و (ديانا) وهي نفسها (أرتيميس) إلهة الصيد ، و (مينرفا) إلهة الحكمة ،
و (نبتون) إله البحر إلخ .. فيقول لهم :

﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ . . فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ 〉

فقال لهم ربنا :

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ؟ 〉 ! ﴿ ١١ 〉 .

وينظر الضعفاء إلى المستكبرين ، الذين جعلوا أنفسهم في الدنيا
(زعماء) ، فقادوا قومهم إلى الشرك وإلى الكفر ، فاستنصروهم فقالوا :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ 〉 .

فأجابوهم بالبراءة منهم ، وأقروا بعجزهم عن أن يغتوا عنهم ولا عن
أنفسهم شيئاً ، ووقف الجميع خاضعين خائعين ، قد ذلوا جميعاً أمام رب
العالمين ، وذهبت الألوهيات المزعومة ، ومحيت الزعامات الباطلة المكذوبة ،
وانفصمت عرى الحلف الشيطاني بين الكفار وما كانوا يعبدون من مخلوقات ، وتبرأ

كل معبود بالباطل ممن كان يعبد ، حتى الشيطان يعترف لمن تبعه بكذبه
فيقول :

﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ .

وَيَتَمَلَّصُ مِنَ التَّبَعَةِ وَيُلْقِيهَا كُلُّهَا عَلَيْهِمْ ، مَقْرَأً بضعفه وعجزه في الدنيا ،
وأنه لم يكن يملك إلا الوسوسة والتضليل ، ما كان له من حول ولا طول ، ولا
كان يقدر على نفع ولا ضرر ويقول :

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي^(٥٦) فَلَا
تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوْأَأَنْفُسَكُمْ﴾ . ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .

الحساب :

ولا بد من الوقوف للحساب ، فيقام ميزان العدل المطلق ، الذي لا يضيع
مثقال حبة من خردل ، ولا ذرة من غبار ، ولا واحدة من الكهارب
(الإلكترونات) التي تسبح في فضاء الذرة ، ولا أصغر من ذلك ، تحصى على
المرء أعماله كلها . وتقدر ظروفه كلها ، وتبرز نياته الخيرة وإخلاصه القلبي ،
فتكون ثقلًا له في جانب الحسنات من الميزان ، وما كان في قلبه من نفاق أو
رياء ، فيكون ثقلًا عليه في جانب السيئات من الميزان^(٥٧) .

محاكمة عادلة ، لا ينفع فيها الإنسان إلا عمله الذي قدمه ، وعفو ربه
الذي يرجوه ، ورحمته التي يؤملها ، لا يسعفه ما كان له من مال إلا ما أنفق
منه لله وفي سبيل الله ، ولا يعينه ما كان له من جاه إلا إن استعمله في طاعة الله ،
ولا يستطيع أحد أن ينفع أحداً أبداً ، ولا تملك نفس لنفس شيئاً ، ولا يجد
أحدهم شفيعاً يشفع له إلا من بعد إذن ربه .

(٥٦) وفي هذا : دليل على بطلان الدجالين ، الذين يزعمون أنهم يستخدمون (الجن)
و (الشياطين) ، فيضربون بهم من يريدون ، وينفعون من يشاؤون ، وأنهم يستخرجونهم من أجسام
المصابين بداء الصرع !! .

(٥٧) إن كل ما قالوا في وصف الميزان وشكله لا دليل عليه .

وشفاعة الآخرة ليست كشفاعة الدنيا ، فالشفيع في الدنيا يدخل على الحاكم يدل عليه بمودته له أو جاهه عنده ، يلزمه الشفاعة ولو كان في قرارة نفسه لا يريد ، فيحايي بها موظفاً ، أو يرى بها متهماً ، أما الشفاعة في الآخرة فتكون عندما يريد ربنا (برحمته) العفو عن أحد ، ويريد (بكرمه) تشريف أحد ، يجعله سبباً ظاهراً لهذا العفو ، فيأذن له بالشفاعة له ، فيشفع بإذنه وأمره .

الشهود واليانات :

محاكم الدنيا ، التي يتولاها حكام من العباد ، لها عدالة بشرية محدودة ، ووسائل للإثبات ظاهرة معدودة ، ولكن محاكمات الآخرة قاضيهما رب الأرباب ، وعدالتها مطلقة لا حد لها ، وبياناتها شهادات الأنبياء ، والملائكة الذين كانوا يحصون الأعمال ، ويدونون الحسنات و السيئات . والصحف التي دونت فيها هذه الإحصاءات ، واعترافات المذنبين ، وشهادات الأعضاء .

شهادة الرسل :

إذا كان يوم الحساب أحضر النبيون كما قال تعالى :

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ .

وكانت محاكمة كل أمة وفق شريعتها ، بحضور نبيها :

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَانِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ .

الكتب والصحف :

هذه الصحف التي تسجل فيها أعمالنا كلها في الدنيا ، تكون مطوية مخفية ، سرّاً لا يدري به الخلق . فإن تاب العبد من ذنوبه المدونة فيها ، التوبة الصادقة ، محيت منها ، وإلا بقيت فيها ، فإذا حل يوم الحساب ، نشرت وأعلنت ، كنتائج الامتحانات ، تكون سرّاً عند الفاحصين فلا يعلم برسوب

الراسب سواهم ، فإذا جاء وقت إعلانها ، عرف بذلك الناس ، وافتضح الراسب في أهله وبين إخوانه ، ولكن الفضيحة هنا على رؤوس الخلائق جميعا ، وهي الفضيحة الكبرى ، والراسب هنا يسقط في جهنم ويخسر — إن كان كافراً — سعادة الأبد ، ويلقى العذاب الدائم .

تنشر الصحف وتوزع ، فيلقى كل إنسان كتابه منشوراً ، ويقال له : ﴿ اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۖ ﴾ .

فمن كانت حسناته التي دَوَّنَهَا ملك اليمين أكثر ، ناوله كتابه يمينه بشارة له بأنه سوف ﴿ يحاسب حساباً يسيراً ﴾ ، فإذا رأى ما فيه فرح واستبشر ، كما يفرح التلميذ الذي يأخذ نتيجة الامتحان فيرى أنه ناجح ، ويحب أن يطلع على نجاحه الإخوان والأقران ، يقول : ﴿ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً ، إِنِّي ظَنَنْتُ (أي : إني أيقنت في الدنيا) أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً .. ﴾ .

ومن كانت سيئاته التي دَوَّنَهَا ملك الشمال أكثر ، ناوله كتابه بشماله فيبكي على نفسه ، ويوقن بهلاكه ، ويقول : ﴿ يَالَيْتَنِي لَمْ أَوْتَ كِتَابِيَّةً ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةً ، يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ، مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةً ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً ﴾ . ﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ، وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ .

ويقرأ المجرمون كتبهم ، فيرون كل عمل عملوه مدوناً فيها ، ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ . فيقولون متعجبين :

﴿ يٰٓأُو۟لِي۟نَا ، مٰلِذَا الْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَّ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَٰهَا ؟ ! ۚ .. وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَٰضِرًا ۖ ﴾ .

وَأَيُّقِنُوا أَنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

وندموا على ما فرطوا ، حين اتبعوا وسوسة الشيطان ، وهوى النفس الأمارة بالسوء ، فمقتوا لذلك أنفسهم ، وإذا هم :

﴿يُنَادُونَ : لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ مَقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ... ﴾ .

الدفاع ثم الإقرار :

ثم إذا وقف الكفار للحساب ، لجؤوا إلى الإنكار ، وحلفوا كذباً على براءتهم ، يظنون أنهم أمام حاكم من البشر ، ممن لهم الظواهر ، ونسوا أنهم أمام رب العالمين ، الذي يطلع على ما في النفوس ، ويعلم ما تكن الضمائر .
﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ .

يقولون :

﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

فيمسك الله بالسنتهم ، ويمنعهم من أن ينطقوا ، ويأمر أعضائهم التي مارسست الحرام فتقر بما صنعت ، وتنطق اليد معترفة بما اجترحت من حرام والرجل بما مشت إليه من حرام .

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . . . ﴾ .

فإذا أخذوا بإقرارهم ، وثبت الذنب عليهم ، عاتبوا أعضائهم .
﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ !! ﴾ .

كانوا يختبئون في الدنيا ليأتوا الفواحش ، مع أن المتحدث اليوم في الرائي (التلفزيون) يكون في غرفة لها أبواب مغلقة ، وجدران مطبقة ، ثم يراه من ورائها الملايين ، ويسمع كلامه ، ويشهد عليه ، فإن كان هذا مما وفق إليه البشر في الدنيا ، فكيف بعلم الله وحسابه في الآخرة ؟ لذلك يؤنبهم ربهم ويقول لهم :

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ .

وكيف يفر المرء من جلده ، وبصره وسمعه ، وهو معه قائم به .
﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ، وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي
ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ، أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

وهذه عاقبة كل كافر بالله ، منكر ليوم الحساب ، لا يمتد إلى أبعد من
هذه الدنيا ، يجحد الآخرة وهي آية لا ريب فيها ، ويختفي بذنبه من الله ، والله
مطلع عليه ، وأعضاؤه التي يمارس بها الذنوب ستشهد عليه ، فكيف يتوارى
من شاهد ، هو معه ، لا يستطيع أن يفارقه ؟
اللهم عفوك وغفرانك ، واستر علينا في الآخرة ، كما سترت علينا في
الدنيا وأنت الغفار الستار .

اعتراض تافه :

وقد كان فريق من الناس ، يقولون لنا ساخرين ونحن صغار : « كيف
تنطق اليد والرجل ، وماهما لسان ، وما تقدران على بيان ؟ » . فاخترعت آلات
التسجيل ، والسينما الناطقة ، وصارت تقام في مداخل المصارف آلات تصوير
خفية ، تصور بالأشعة التي لا ترى ^(٥٨) ، تتحرك لمجرد اجتياز الشخص من
أمامها ، فإذا سرق السارق وأنكر ، عرضوا عليه (الفيلم) يعيد حركاته
وسكناته ، وهمسه لنفسه وكلامه مع رفيقه ، فكانت هذه المخترعات حجة
على هؤلاء المتعاليين الجهلاء ، كأنها تقول لهم : « وبحكم ، الذي أنطق الشريط
في الدنيا ، وسجل الحركات والكلمات ، تعلن كلام السارق الذي أخفاه ،
وتثبت عليه فعله الذي أنكره .. الذي وفق إلى هذا في الدنيا ، ألا ينطق اليد
والرجل في الآخرة ؟ » .

الحساب ونتائجه :

الحساب أنواع ، منه الحساب اليسير كحساب الذين أعطوا كتبهم

(٥٨) الأشعة التي يسمونها : « تحت الحمراء » .

بأيمانهم ، ومنه الحساب الشديد كحساب القرية التي عتت عن أمر ربها .
ويخرج الناس بنتيجة الحساب وهم أصناف : السابقون المقربون ، وأصحاب
الميمنة ، وأصحاب المشأمة .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ
مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ، فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ، وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ،
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ 》 .

ورود جهنم :

ويمرون جميعا على صراط من فوق جهنم ، يسرعون باجتيازه بمقدار
قربهم من الله ، واستكثارهم من الحسنات ، فينجو منها المتقون ، ويسقط فيها
الظالمون ، قال تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ، ثُمَّ تُنْجَى الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا 》 .

وفي سورة (ألهاكم التكاثر) قوله تعالى :
﴿ لَتَرُونَ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ 》 .

أما الرؤية الأولى : فهي — والله أعلم — ورود المتقين عليها ، الذي
يكون معه النجاة منها ، وأما الرؤية الثانية : فهي ورود الظالمين عليها ،
وسقوطهم فيها . وربما كانت الرؤية قبل الحساب ، حين تبرز الجحيم فيراها
الناس كما قدمنا .

الجنة وجهنم :

أوصاف الجنة التي وردت في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ 》 ، وأن أهلها يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ، ولؤلؤاً ، وأن
لباسهم فيها حرير ، وأن فيها أنهاراً من لبن ، وأنهاراً من خمر ، وأنهاراً من
عسل ، وأن فيها الحور العين ، والغلمان .

كل ذلك جاء على وجه التقريب إلى الأفهام ، لأن اللغات البشرية موضوعة في الأصل للتعبير عن الأشياء الأرضية ، ومن المحقق أن أنهار الجنة ليست كأنهار الدنيا ، ولا لبنها وعسلها وخمرها ، كخمر الدنيا وعسلها ولبنها ، ولا حورها كنساء الأرض ، ولا غلمانها كغلمانها ، ولو رجعنا إلى المقدمات التي قدمناها في أول هذا الكتاب ، وهي (قواعد العقائد) لذكرنا أن الخيال البشري يعجز عن الإحاطة بها ، أو تمثل حقيقتها .

والذين فصلوا في وصفها من المفسرين ، لم يستندوا في ذلك إلى دليل وكان منتهى جهدهم أن قاسوا الآخرة على الدنيا ، كما قاس المتكلمون عدالة الله وصفاته ، على ما عرفوا من الصفات البشرية ، والعدالة البشرية ، فتخطوا في متاهات وضلالات ، كان ينجيهم منها ، ويبيدهم عنها ، أن يقفوا عند حدود النصوص ، وأن يسلكوا مسلك السلف ، وأن يقرؤا بعجز العقل عن إدراكها ، والخيال عن تمثيلها .

ومن هذه المباحث السقيمة ، والمجادلات العقيمة ، ما قالوه عن الحور العين ، وهل الاستمتاع بهن كالاستمتاع بنساء الدنيا ، ونسوا أن هذه المتعة على شكلها المعروف ، غايتها الحمل وبقاء النسل^(٥٩) ، ولا داعي لذلك في الآخرة ، فكان الحق أن تؤمن بكل ما ورد في القرآن ، ثم تشتغل بالعمل الصالح الذي يوصلنا إلى الجنة ، بدلاً من المناقشة في تفصيل أمرها ، والخلاف على وصف حقيقة ما فيها ، مما لم يذكره القرآن لنا .

دخول الجنة :

وليس دخول الجنة بالتمني والتشهي ، ولكن بالإيمان والطاعة .
﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ، وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

(٥٩) ولو فكر فيها العاقل لاستفبحها ، واستفذر موضعها ، ولكن الله وضع الشهوة لمنع هذا التفكير ، كما وضع النج (أي المخدر) لمنع الشعور بألم العملية الجراحية .

فالمؤمن الذي يدخل الجنة إما أن يكون (فاعلاً) للخير داعياً إلى الله ،
بإذلاً الجهد في سبيل إعلاء كلمته ، عاملاً على ذلك بنفسه وماله ولسانه ،
فيكون من الذين جاهدوا ، فإن لم يستطع فعليه — على الأقل — ألا يكون
(منفعلاً) بالشر ، ولا متبعاً لدعوته ، وأن يسلم بنفسه وأهله ، وأن يصبر على
ما يلقى في سبيل تمسكه بدينه ، فيكون من الصابرين .

فإذا انتهى الحساب ، واجتاز المؤمن الصراط ، تحققت النجاة .

﴿ وَسَيَقَى الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا ﴾ (٦٠) ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ، وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ ، وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ
أَجْرُ الْعَامِلِينَ .. ﴿ ٦١ 〉 .

وصف الجنة :

أما سعتها فإن عرضها عرض السماوات والأرض ، ولا تعجبوا من هذا
فإن الآخرة بالنسبة لهذه الدنيا ، كهذه الدنيا بالنسبة لبطن الأم ، أما يرى الجنين
بطن الأم دنياه كلها ، أو ليست دار واحدة من دور الدنيا ، أوسع من دنيا
الجنين بآلاف المرات ؟

هذه الجنة (أعدت للمتقين) ، ومن هم المتقون الذين أعدت لهم ؟
وماذا كانوا يصنعون ؟ لعلنا نصنع مثلهم فنكون معهم ، لقد بين الله أن المتقين
هم :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالكَاسِمِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ
النَّاسِ .. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا

(٦٠) في آية جهنم قال : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ . لأنها كسجن مغلق الأبواب ، فلا تفتح
إلا لاستقبال داخل . أو خروج خارج أما هنا فقال : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴾ ، لأنها مفتحة الأبواب
دائماً ، وإن كان لا يدخلها أحد ، إلا بإذن ربها خالقها .

لَذُنُوبِهِمْ ﴿١٢٠﴾ .

هذه بعض صفات المتقين ، فمن اتصف بها بعد تصحيح العقيدة ،
وصدق التوحيد ، أدخله الله بكرمه ومته ، هذه الجنة التي أعدّها لهم .
والجنة درجات : ففيها جنة النعيم وهي أبعد من أن ينالها كل واحد :
﴿ أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ .
وهي للسابقين السابقين .
﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .

وفيها الجنة التي سماها الله (الغرفة) ، ووعد بها عباد الرحمن ، الذين
وصفهم في سورة الفرقان بأنهم الذين يجمعون صحة الاعتقاد ، واستقامة
السلوك ، وكثرة العبادة ، وعلو الأخلاق ، فدل ذلك على أن (الغرفة) درجة
عالية في الجنة ، خص بها هؤلاء الذين جمعوا صفات الكمال ، وصبروا على
مشقة القيام بها ، وصرف النفس عن رغبتها في التملص منها .
وبين ربنا أن في الجنة :

﴿ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ . ١ .

وأن فيها مكاناً اسمه : (جنة المأوى) ، ومكاناً اسمه : (جنات
عدن) ولمن خاف مقام ربه جنتان (لا جنة واحدة) ، وأن فيها ما دعاه
بـ (عليين) ؛ دَلَّ ذلك على أن نعيمها درجات ، وأهلها منازل .

أهل الجنة وأحوالهم :

يجتمع أهل الجنة بإخوانهم وأهلهم :
﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ ﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ
عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ، أَلْحَقْنَا بِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ .

يجتمعون على ود وصفاء .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُلُوبِهِمْ مِنْ غَلٍّ ﴾ ، وحقد .

تصف لهم الأسرة والأرائك ، فتكون مجالسهم عليها :

﴿ مُتَكَبِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ .

يقعدون عليها .

﴿ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ .

عليها فرش بطائنها من شيء نفيس ، سماه ربنا (الاستبرق) ، وحولهم

جنتان ملتفتان ، ثمارهما قريبة من أيديهم ، دلنية منهم . -

يخدمهم فيها خدم صغار .

﴿ غُلَامَانِ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾

. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ

عَنْهَا يُتَزَفُونَ * .

والطعام (يطاف) به :

﴿ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ .

أما شرابهم فيحمل إليهم :

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ .

يؤتى إليهم بكل ما يريدون من طعام .

﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ . ﴿ فِي سِدْرٍ

مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ، لَا

مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ، وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ . ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ،

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ، وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ﴾ ﴿ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ

التَّعِيمِ ﴾ ﴿ فَوُجُوهُهُمْ ﴾ ناعمة لسعيها راضية * ..

يقصدون من أركان الجنة حيث شاؤوا ، يتقابلون فيها ويتحدثون .

﴿ تَجِيتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ .

لا يقولون إلا خيراً .

﴿ وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ . ﴿ قَبْلَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ

يَتَسَاءَلُونَ ، قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (خائفين من دخول النار) ، فَمَنْ

اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿١٢٢﴾ .

وهذا : من ثمرة الدعاء والاستغفار .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ .

فإذا تحدثوا تذكروا في أحاديثهم أيام الدنيا ، وأحوال أهلها ، وما كان من أمرهم فيها ، وما انتهوا إليه في الآخرة .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ، يَقُولُ (سَاخِرًا مَعَانِدًا) أَتَيْتُكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ، أَتِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ ؟ ﴾ .

قال : (أي المؤمن في الجنة لإخوانه فيها) .

﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ .

على أهل النار لتروه فيها ؟ ودل ذلك على أنهم يستطيعون الاطلاع عليهم .

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ .

قال له (وهذا وما يأتي بعده يدل على أن أهل الجنة وأهل النار يتبادلون

الحوار) :

﴿ تَاللَّهِ إِنَّ كَيْدَ لَتَرْدِينَ ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ .

ويمن عليهم ربهم بالحوار العين ، يزوجهم بهن .

﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ .

أنشأهن إنشاء ، فجعلنهن :

﴿ أَبْكَارًا ، غُرُبًا أَثْرَابًا ﴾ . . . قاصرات الطرف (من الحياء) .

يَطْمِئِنَّهُنَّ إِسْرَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانُ

وأهل الجنة .

﴿ دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يقولون :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ

رُسِّلَ رَبَّنَا بِالْحَقِّ . وَتُودُوا : أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ تُثْمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ . لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ، وَما هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٢﴾ . لَا يَلُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴿٣﴾ . وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٤﴾ .

يحيونهم ويهثنونهم يقولون :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ﴿٥﴾ . وفيها ما تشتهيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴿٦﴾ . إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْقَوَرِ الْعَظِيمِ ، لِيَمِثِلَ هَذَا فليَعْمَلَ الْعَامِلُونَ ﴿٧﴾ . وفي ذلك فليتنافسِ المتنافسون ﴿٨﴾ .

اللهم برحمتك التي وسعت كل شيء ، وعفوك ومغفرتك — وأنت العفو الغفور — أعذنا من عذاب النار ، وأدخلنا الجنة بسلام .

جهنم :

المتبادر إلى الأذهان أن جهنم نار كالنار التي نعرفها في الدنيا ، لكنها أشد منها ، حتى إنها لا تقاس من شدتها بها ، وإن ماثلتها في نوعها ، ولكن الذي يبدو لمن ينعم النظر في وصف القرآن لها ، أنها من نوع آخر ؛ إذ لو كانت ناراً من نوع نار الدنيا ، لأحرقت كل شيء ، فتركته فحماً . مع أن جهنم فيها شجر ، وفيها ماء ، وفيها ظل ، وإن كان ظلها وماؤها وشجرها ، للتعذيب لا للنعيم . ونار الدنيا تحرق من يدخل فيها فيموت ، فيستريح من ألمها ، و جهنم — نعوذ بالله منها — ألم دائم لأهلها .

﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ .

لا تحرق الجلود فتذهبها ، ولكن تنضجها ، وكلما نضجت جلودهم ، بدلهم الله جلوداً غيرها لينوقوا العذاب ، وأهلها يعيشون ويفكرون ، ويتذكرون ويختصمون . وفي جهنم شجر ، ولكنها شجرة الزقوم ، التي :

﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَصْلِ الْجَحِيمِ ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ .

وفي جهنم طعام ، وأهلها يأكلون ، ولكنهم آكلون من ثمر هذه الشجرة

الخبيثة .

﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، طَعَامُ الْأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ (عكر الزيت) يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ .

وفي جهنم شراب ، فيها ماء ، ولكنه ماء صديد ، يسقى منه الكافر ، فهو :

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ .

فإذا أكلوا من هذه الشجرة ، وشربوا بعدها من الحميم ، من هذا الماء الذي وصفه القرآن ، وهم من شدة عطشهم يشربون منه شرب الهيم ، شرب الإبل الهائمة العطشى ، ثم يصب من فوق رؤوسهم من هذا الحميم .
﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ .

وفي جهنم ثياب ، ولكنها من نار .
﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ .

وفي جهنم ظل وظلل ، ولكنها من نار .
﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ، إِنَّهُ ﴿ظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ .

هذه عاقبة من آثر الدنيا وترفها ، -وأصر على الكفر ، وأنكر البعث .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ .

دخول النار :

إذا انتهى الحساب ، وحقت كلمة العذاب على الكفار ، يساقون إلى جهنم زمراً . فتغتاظ جهنم نفسها من كفرهم وإصرارهم ، وإعراضهم عن رسل ربهم . وخزنة جهنم لا ينقضي عجبهم من حماقتهم وعنادهم فهم يعودون إلى سؤالهم :

﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ، سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ ﴾ .

فلم يسعهم إلا الاعتراف .

﴿ قَالُوا : بَلَى ، قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

فقالت لهم الملائكة :

﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ .

فأقروا بأنهم كانوا صُماً لا يسمعون ، وكانوا قد عطلوا عقولهم فلا يفكرون ، وأنهم لو كانوا سمعوا المواعظ ، وفكروا في أنفسهم ، وفي الكون من حولهم ، لا استدلوا بذلك على الله ، فأمنوا به واتبعوا رسله ، وما وصلوا إلى جهنم .

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ، مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ . . . ﴾ .

جهنم سجن :

جهنم .

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾

يوزع أهلها عليهم .

﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ .

وهي مغلقة بمزاليج ضخمة ، كأنها الأعمدة .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ ﴾ .

وهم يلقون فيها — في مكان ضيق :

﴿ مُّقْرَنِينَ ﴾ مربوطاً بعضهم ببعض .

وقد أعد الله لهم :

﴿ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيرًا . . . ﴾ .

محاولات للخروج :

عمر الله الإنسان في الدنيا دهرًا ، وأعطاه فيها عقلاً يختار به ما يريد ، وإرادة ينفذ بها ما يختار ، فاختار بعض الناس سلوك طريق جهنم ، وعملوا ما يوصلهم إليها ، فلما بلغوها ، راحوا يحاولون الخروج منها ، ويعدون أنهم إن أُعيدوا إلى الدنيا ، آمنوا وأصلحوا ، يحسبون الأمر كامتحانات الدنيا ، فمن رَسَبَ في دورة ، استدرك النجاح في أخرى ، لا يدرون أن من خرج من الدنيا لا يعود إليها ، ومن دخل النار لا يخرج منها ، فحق عليهم قول الله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ ، فَتَعْمَلُ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟ ﴾ وترى الظالمين لما رَأَوْا العذاب يقولون هل إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ . . . ﴾

فيكون الجواب الحاسم .

﴿ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ، وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ؟ ! فَذُوقُوا ، فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ .

فيلجؤون^(٦١) إلى خزنة جهنم ، كما يلجأ السجين إلى حراس السجن ، يظن أنهم يملكون له نفعًا ، أو يدفعون عنه ضراً ، يقولون :

﴿ لِحِزْنَةِ جَهَنَّمَ : اذْعُوا رَبَّكُمْ ، يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ، قَالُوا : أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ ! قَالُوا : بَلَى ، قَالُوا (لهم ساخرين منهم) : فاذْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . . . ﴾ .

فإذا يسئوا منهم عملوا إلى مالك ، رئيس حرس جهنم .

(٦١) من الناس من يضع همزة هذه الكلمة على الألف (فيلجأون) ، وهو غلط ، ومنهم من يضعها على مدة هكذا : (يلجئون) ، إذ يرسمون الهمزة على (كرسى) بعد الجيم والصواب (فيما أرى) هو ما رسمتها عليه .

﴿ وَنَادَوْا : يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ .

فأجابهم الجواب الصارم الحاسم ، قال :

﴿ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ ﴾ .

يفكرون في أن يفتدوا أنفسهم ، كما كانوا يفتنون الدنيا بالمال ، ولكن

هيهات :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، لَا فُتْدُوا بِهِ مِنْ
سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، وَبَدَأَ لَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

فلا تفيدهم هذه المحاولات شيئا ، ويعقون في جهنم .

﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيلُوا

فيها ﴾ .

وقيل لهم :

﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

أحاديثهم واختلافهم :

أهل الجنة إخوان على سرر متقابلين ، قد نزع ما في صدورهم من غل ،
وهدوا إلى الطيب من القول ، فما في أحاديثهم لغو ولا كذب ولا إثم . وأهل
جهنم في نزاع وجدال :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ، قَالَتْ
أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ : رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ، فَأْتَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ : لِكُلِّ
ضِعْفٍ ، وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ : فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ
فَضْلٍ ، فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ . ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ، لَا مَرْحَبًا
بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَلَّوْا النَّارَ ، قَالُوا : بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ، فَبِئْسَ
الْقَرَارُ . قَالُوا : رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا ، فَرَدَّاهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ، وَقَالُوا : مَا لَنَا
لَا نَرَى رَجَالًا ، كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ، أَتُخَذُنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ

الْأَبْصَارُ . . . إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿١٠﴾ وقال الَّذِينَ كَفَرُوا : رَبَّنَا
أَرْنَا الَّذِينَ اضْطَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ
الْأَسْفَلِينَ .. ﴿١١﴾

حوار بين أهل الجنة وأهل النار :

سبق ما يشير إلى أن أهل الجنة يستطيعون أن يطلعوا على أهل النار ، وفي
القرآن أن هؤلاء وهؤلاء يتنادون ويتحدثون :
﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ
وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَاذْنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ
عَلَى الظَّالِمِينَ . . . وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ
الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا
دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . . ﴾

الأعراف :

الذي يفهم من الآيات ، أن (الأعراف) مكان بين الجنة والنار . يقوم
فيه مدة من الزمان ، من قصرت به حسناته عن دخول الجنة ، ولم تبلغ سيئاته
إدخاله النار ، يرون منه الجنة ويأملون في دخولها ، ويخاطبون أهلها ، ويرون
النار ويعوذون بالله منها ويكلمون أصحابها ، وبينهما (أي بين أهل الجنة وأهل
النار) حجاب .

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ :
أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَمْ يَدْخُلُوهَا (أي أهل الأعراف) وَهُمْ يَطْمَعُونَ ، (في
دخولها) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ، قَالُوا (أي قال أهل
الأعراف) : رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .. ﴾

ورأوا في جهنم ناسا يعرفونهم ، كانوا في الأرض من الجبارين ، يعتزون
بجموعهم وأتباعهم . وجماهير العامة التي تؤيدهم ، فيتكبرون بذلك ويطغون

فنادوهم وقالوا لهم :
﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۚ ﴾ .

وسيروا يومئذ ، أنه ما أغنى عنهم شيئا ، ولا خفف عنهم من عذابهم كثيرا ولا قليلا ، وأنهم قد خلفوه كله وراءهم ، وتركوه خلف ظهورهم ، إنه لا ينزل مع الميت إذا مات صديق ، ولا (رفيق) ، ولا حليف ولا أليف ، ولا جند ولا أعوان ، كلهم يتركه وينصرف عنه ، فينزل القبر وحده ، ويبعث من القبر وحده ، ويقف للحساب وحده . هذه حقيقة مشاهدة في الدنيا ، ولكن عميت الأبصار عن رؤيتها ، وعميت البصائر عن إدراكها . فيا رب افتح أبصارنا حتى نرى الحقائق الدالة عليك ، ونور بصائرنا حتى نبصر الطريق الموصل إليك ، وجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وارزقنا رضاك والجنة ، وأعدنا من غضبك والنار ، يا عفو يا غفار .



الإيمان بالقدر

معنى القدر والقضاء :

الذي يفهم من الآيات التي ذكرت القدر كقوله تعالى .
﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ .
وقوله :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وقوله عن الأرض :

﴿ وَبَارَكْ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .

وقوله عن القمر :

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ . . . ﴾

وقوله :

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ .

الذي يفهم منها أن القدر ، هو السنن التي سنّها الله لهذا الكون ،
والنظام^(٦٢) الذي سلكه به والقوانين الطبيعية التي سيّره عليها ، وأن كل ما فيه قد
خلق بمقادير معينة ، ونسب محددة ، فما من موجود إلا وقدر قبل إيجاد
مقداره وعدد ذراته ، وكمية العناصر التي يتألف منها ونوعها ، وما يعرض له من
امتزاج بغيره ، وانفصال عنه ، وما يناله من حركة وسكون ، كل ذلك محدد
منذ الأزل .

وأنا أوضح الفرق بين القدر والقضاء بمثال ﴿ والله المثل الأعلى ﴾ :
العمارات التي تقام تعلق عليها لوحة فيها : « إن التصميم للمهندس الفلاني ،

(٦٢) هو الخيط الذي تنظم به حبات العقد والسبحة والسلك الذي تسلك به .

والتنفيذ للمقاول الفلاني » ، فالمهندس يرسم خريطة ويعين علو البناء وسمك الجدران ، وما يوضع فيها من الحديد و (الإسمنت) والحجر ، ونسبة كل منها ، وما يكون فيها من أبواب ونوافذ ، يقدر ذلك ويحدده ، هذا مثال القدر . والمقاول ينفذ ما قدره المهندس ، وهذا مثال القضاء ، وكلاهما لله وحده : وكما يمكن للمهندس أن يبدل (إذا أراد) في بعض تفصيلات التصميم ، فאלله من رحمته جعل الدعاء والصدقة سبباً في رفع بعض ما كان مقدراً. قدرها وحده ، ورفعها بالدعاء وحده (٦٣).

الثواب والعقاب :

هذا معنى القدر بوجه عام ، وهو يشمل كل موجود أوجده الله ، قدر الله مقاديره وأحواله ، وعلم ما سيكون له وما يكون منه ، ومن جملة مخلوقات الله الإنسان ، وهنا تعترض مشكلة طالما خاض فيها الخائفون ، وبطالما كثر فيها الجدل ، هي أمر الثواب والعقاب . إذا كان كل ما يقع في الكون مرسوماً ومعلوماً عند الله من قبل ، وكانت سنن الله لا تبدل لها ولا تغيير ، فكيف يكون الثواب والعقاب ؟

والجواب الإجمالي : أنه لا بد من التفريق بين وضع الإنسان المشاهد (الملموس) ، وبين صفات الله وأعماله ، وهي مغيبة ، لا يستطيع العقل أن يحكم عليها ، ولا يصل إلى إدراكها ، ولا يعرف عنها إلا ما جاء بطريق الوحي .

الإنسان مخير :

وأنا أتكلم الآن عن الوضع القائم المشاهد ، وسأتكلم بعد ذلك عن

(٦٣) ولو كان كل ما يفعل العبد مجبراً عليه من الأول ، لا يبدل ولا يعدل ، وليس له اختيار فيه ، لم يبق من فائدة لعنة الأنبياء ، وجهاد الكفار ، ولا للدعاء . وقد دعا الأنبياء والخلفاء الراشدون وصلحاء كل أمة ، طالبين دفع الشر ، وجلب الخير ، وقد رأيت عند وجهه الحجاز ، الشيخ الجليل محمد نصيف . رحمه الله ، رسالة مخطوطة للشوكانى في هذا المضمار ، ولم يكتب في موضوعها مثلاً .

النصوص . والواقع أن الإنسان له حرية ، له (عقل) يستطيع أن يحكم به على الأمور المادية ، ويميز به بين الخير والشر ، والصالح والفساد ، وله (إرادة) يستطيع أن يعمل بها الخير أو أن يعمل الشر ، كل إنسان عاقل يدرك أن الصلاة خير ، وأن الزنا شر ، ويقدر إذا خرج من داره أن يمشي من جهة اليمين إلى المسجد فيصلي ، أو يمشي من جهة الشمال إلى الماخور فيزني ، هل يشك أحد في هذا ؟ وإذا كانت يدي سليمة ما بها مرض أو شلل ، فأنا أستطيع أن أرفعها ، فهل في الناس من يدعي أنني لا أستطيع رفع يدي ؟ وإذا كنت قادرا على رفع يدي ، رفعتها لأعطي فقيرا دينارا ، أو رفعتها لأضرب بريئا بالعصا ، فهل هذا كذاك ؟ أليس إعطاء الفقير حسنة تستحق الثواب ، وضرب البريء سيئة تستوجب العقاب ؟

التلميذ يستطيع أن يمضي ليالي الامتحان باللهو واللعب ، ويستطيع أن يشغلها بالجد والدرس ، أليس هذا صحيحا ؟ فهل يدعي أحد أن سقوط اللاعب كان ظلما ، أو أن نجاح المُجد كان محاباة ؟ .

والإنسان مجبر :

لقد استطعت أن أحرك يدي بإرادتي ، لأن الله جعل عضلاتها خاضعة لي ، ولكني لا أستطيع التحكم في عضلات قلبي ومعدتي . وهذا التلميذ قد يكون ذكيا يدرس الدرس مرة فيحفظه ، ثم يلهو ويتسلى ، وقد يكون غبيا ، يدرس الليل والنهار ، فلا يفهم ولا يحفظ . وقد يكون بيته هادئا ، وأبوه عالما ييسر له أمر الدرس ، وقد يكون بيته صاخبا ، وأبوه جاهلا مشاكسا ، فلا يستطيع أن يدرس . فهو لا يملك منح نفسه الذكاء ، ولا يملك اختيار أبويه ، ولا انتخاب الزمان الصالح ليوجد فيه . ولا البيئة الصالحة ليمضي فيها طفولته . هذه كلها أمور لا يملكها الإنسان ، كما لا يملك أن يجعل أنفه أجمل ، وقامته أطول ، فهو من هذه الناحية مجبر .

حر مخير في حدود الطاقة البشرية :

فالإنسان حر مخير في حدود الطاقة البشرية ، وكونه مجبرا — في بعض الحالات — لا ينفي عنه صفة الحرية ، كالسيارة والصخرة ، لا ينكر أحد أن السيارة تمشي ولكن في حدود قوة محركها ، ومدى احتمالها ، فإن صنعت سيارة شحن لا يمكن أن تمشي بسرعة سيارة السباق وإن صنعت لتمشي على الأرض لا يطلب منها أن تصعد السلم ، ولا أن تخترق الجدار . إنها تسير على الطريق ، فإن عاق مسيرها عائق ، لم تفقد صفة القدرة على السير ، ولا تكون كالصخرة . وكذلك الإنسان ، تعترضه في الحياة عوارض تعطل إرادته ، وعوائق تحول وجهته ، وتؤثر فيه أمور لا يملك دفعها ولا إبدالها ، ولكن ذلك لا ينفي أنه حر ، فهو (إنسان حر) ، يتصرف ضمن الحدود الإنسانية ، وليس إلهاً ليصنع ما يشاء .

الثواب والعقاب منوط بالحرية :

فإذا لم تكن حرية فلا عقاب ، المكروه على فعل الشر لا يعاقب عليه ، والله إنما يؤاخذنا على ما نملك الخيار في فعله أو تركه ، للإنسان ما كسب . وعليه ما اكتسب ، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، والله لا يضع مثقال ذرة . وإذا كانت المحاكم البشرية ، بعدالتها النسبية ، تقدر ظروف المتهم ودوافعه ، وبيئته واستعداداته ، وترى تقدير ذلك من العدل ، فهل يترك ذلك في محكمة رب العالمين ، التي فيها العدالة المطلقة ، وهل يعاقب المذنب الناشئ من والدين فاسقين ، وبيئة فاسدة ، والذي عاش طفولة مهملة مشردة ، كمن أذنب الذنب نفسه ، وهو ناشئ في أفضل البيئات ، مولود من خير الآباء ؟

مقاييس العدالة :

على أن أكثر علماء الكلام قد أخطؤوا أكبر الخطأ ، حين طبقوا على الله مقاييس العدالة البشرية ، تنبعت إلى هذه الحقيقة بواقعة وقعت لي ، أسردها الآن فيها عبرة ، وإن لم يكن موضع سردها هذا الكتاب .

كنت سنة (١٩٣١) أدرس في مدرسة ابتدائية في الشام ، وكنت في فورة الشباب وعنفوانه ، في رأسي خواطر ، وفي نفسي غرور ، وعلى لساني بيان واندفاع ، فعرضت لي شكوك في مسألة القدر ، كنت أسأل عنها العلماء ، فلا أجد عندهم الجواب الشافي لها ، فيدفعني الغرور إلى جدالهم وإزعاجهم . حتى جاء يوم كنت فيه في المدرسة ، وكنت أؤدب تلميذا بالضرب ، (وكان الضرب من وسائل التأديب في تلك الأيام) ، ففجر الولد وتوقع ، وجعل يصرخ ويقول : « هذا ظلم .. أنت ظالم . » !!

ثقوا يا أيها القراء ، أني لما سمعت ذلك سقطت العصا من يدي ، ونسيت الولد والمدرسة ، ورأيت كأنني كنت في ظلمة فأضيء لى مصباح منير ، فقلت لنفسي : إن التلميذ يرى ضربي إياه ظلما ، وأنا أراه عدلا . والعمل واحد ، وإذا ذهب يشكو إلى أهله قالوا له : لا ما هذا ظلم ، هذا عدل ، إنه يضربك لمصلحتك . فإذا كان التلميذ لا يحق له أن يطبق مقياسه الناقصة على عدالة المعلم . فكيف أطبق أنا مقياسي البشرية للعدالة على الله .

ألا يمكن أن يكون الفعل الذي أراه ظلما هو عين العدل ؟ الولد المريض يرى الإبرة التي يدخلها الطبيب تحت جلده ظلما ، وهي في رأي أبيه عدل كل العدل ، لأن الولد نظر إلى ألمها ، والأب أبصر أثرها في شفاء الولد .

إن القاضي لا يستطيع أن يحكم في دعوى حتى يطلع على مراحلها كلها ، ووقائعها جميعا ، ونحن إنما نطلع غالبا على طرف من الواقع ، ونصدر أحكاماً خاطئة ، بعد دراسات ناقصة . لو تهت أنت ورفيقك في الصحراء ، فمرت سيارة فخمة ، دعاكما صاحبها ، وأركبكما فيها ، فأخرج صديقك سكينه فمزق جلد المقعد ، ألا تري عمله ظلماً ؟ إنه ظلم بلا شك ، ولكن إذا علمت أن أمامك عصابة من قطاع الطريق . كلما رأوا سيارة سليمة أخذوها ، وإن كانت ممزقة المقعد تركوها ، ألا يتحول هذا الفعل في نظرك من ظلم إلى عدل .

بل إن صاحب السيارة لو عرف هذه الحقيقة ، لمزق جلد مقعدها بنفسه لأنه يفضل أن تبقى السيارة له ، ومقعدها ممزق ، عن أن تذهب كلها وهي سليمة ؟ أليس هذا صحيحا ؟ هذه هي قصة الخضر وموسى ، لما ركبا في السفينة وخرقها ، ضربها الله مثلا ، نفهم منه ألا نسرع إلى إصدار الأحكام قبل الإحاطة بالوقائع .

مع النصوص :

لا بد لي قبل الكلام على النصوص من التذكير بهذه القواعد :

١ — إن عمل العقل منحصر بفهم النصوص ، ولا يستطيع أن يدرك من نفسه حقيقة القدر بالتفصيل ، لأنه — كما قدمنا — عاجز عن الخوض فيما وراء المادة ، لذلك ينبغي اجتناب المباحث التي لم يوضحها النص .

٢ — أن نعرف أن الأصل هو القرآن ، فإن تعارضت آية منه وحديث من أحاديث الأحاد ، ولم يمكن التوفيق بينهما على شكل مقبول ، أخذنا بالآية ^(٦٤) .

٣ — أنه لا يمكن أن يكون في القرآن أو صحيح الحديث نص صريح ، ينكر وجود أمر واقع مشاهد ملموس ، لأن الذي أنزل القرآن هو الذي أوجد الواقع ، ولا ينفي ربنا ما أوجده .

٤ — إن كثيرا من النصوص التي يفهم منها الإجبار ، ونفي الاختيار عن الإنسان ، كقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

فلا يملك الوليد الذي صور بنتا أن يجعل نفسه صيبا ، ولا الأسود اللون أن يصير لونه أبيض ، ومثلها قوله تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ .

(٦٤) من القواعد المعروفة عند أهل المصطلح : أن الرسول ﷺ لا يقول ما يناقض القرآن ، ولا ما يخالف الواقع المشاهد ، فإن روي عنه حديث مناقض للقرآن ، أو يخالف الواقع المشاهد ، نحكم أن الرسول لم يقله ، ولو روي بسند صحيح .

وما يشير إلى الأحداث الكونية التي هي فوق طاقة الإنسان كقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَتَّحِرْتُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ۖ ﴾ .

ومثلها :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بُضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾ .

وما يدل على الظروف المؤدية إلى الصلاح أو الفساد ، وليست من صنع الإنسان ، كقوله :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ ﴾ .

ومن الآيات التي جاءت فيها كلمة الهداية بمعنى الدلالة والإرشاد، كقوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۖ ﴾ .

وقوله :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ، إِمَّا شَاكِرًا ، وَإِمَّا كَفُورًا ۖ ﴾ .

الذي ظهر لى : أن أكثر هذه النصوص ، تشير إلى الأمور التي تؤثر في صلاح الإنسان وفساده بعض التأثير ، وليست من صنعه ، وقد قدمت القول بأن الله لا يؤاخذ العبد عليها ، ولا يمكن أن يجبر الله عبده على أمر بحيث لا يستطيع تركه ثم يعاقبه عليه .

هذه هي النصوص التي وقف عندها أصحاب الفرق المنحرفة ، فأسأؤوا فهمها ، وأخطؤوا في تطبيقها . وكان عليهم :

١ — التفريق بين آيات الإخبار عن مشيئة الله وقدرته ، وتصرفه في ملكه ، والآيات المتعلقة بالثواب والعقاب .

٢ — اعتبار مجموع النصوص لا الوقوف عند أفرادها ، ومن تتبع مجموع النصوص رأى أن القرآن يثبت للإنسان الحرية والإرادة ، اللتين يترتب عليهما الثواب والعقاب .

فمن يقرأ قوله تعالى عن القرآن :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ .

يفهم منه بادي الرأي ^(٦٥) ، أن الهدى والضلال أمر مقرر ، قدره الله على العباد ، فجعل هؤلاء ضالين ، وهؤلاء مهتدين . ولكن إذا انتبه إلى قوله تعالى :

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

وقوله :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ .

علم أن الهدى والضلال ليس إلزاما من الله ، ولكنه تبع لحالة المرء ، فإن كان متقيا ، كان القرآن هدى له ، وإن كان فاسقا ، كان له ضلالا .

وتبقى مع ذلك الشبهة قائمة ، فيقول القائل : وما يدريني إذا كان الله قد جعلني مع المتقين أو جعلني مع الفاسقين ؟ فإذا انتبه إلى قوله تعالى :

﴿ لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . . . ﴾ .

وقوله :

﴿ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

علم أن المسألة ليس فيها إجبار ، وأن مردها إلى صفات وأعمال داخلية في نطاق حرية الإنسان وطاقته .

فأنت تستطيع أن تؤمن بالغيب وتقيم الصلاة ، وتنفق في سبيل الله ،

(٦٥) في قولك : بادي الرأي ، وبادى الرأي ، أي : من النظرة الأولى ، ومن أول وهلة .

وتستطيع أن تنقض العهد وتقطع الموصول ، وتفسد فى الارض . أمور فى طاقتك عملها ، وفى إمكانك تركها ، فإن عملت الثلاث الأولى ، كنت بذلك من المتقين ، فاستحققت الهداية ، وإن عملت الثلاث الأخرى ، كنت بذلك من الفاسقين ، فاستحققت الضلال .

بحث عقيم :

وهنا يريد قولهم : هل عملت السوء بمشيئة الله أم لا ؟ هل كنت أستطيع ألا أعمله ؟ وهل خلقت أنا عملي ؟ وأمثال هذه الأمور التي ملأ بحثها كتب علم الكلام . وذلك كله بحث عقيم ، لأن الخالق لا يقاس على المخلوقين ، والعقل لا يحكم على الله وصفاته .

والله لا يسأل عما يفعل ، وإنما يسألنا عن أفعالنا ، والله عادل لا شك فى عدله . وخير لنا أن ننظر إلى أنفسنا ، وأن نحسن استعمال عقولنا ، ونعمل على توجيه إرادتنا إلى الخير ، وندع المباحث المتعلقة بالله ، التي لم يتكلم فيها السلف ولا شغلوا أنفسهم بها .

الاحتجاج بالقدر :

ومن العصاة من يحتج لعصيانه بالقدر ، تقول للزاني : لم زنت ؟ فيقول : لأنه قدر علي ! وهي حجة واهية ، مردودة من وجهين :

١ — لأن الحساب والعقاب يكون على العمل ، وعلى الدوافع إليه والبواعث عليه . وهذا الزاني لم يطلع على اللوح المحفوظ ، وير أن الزنا مكتوب عليه — كما يزعم — ويذهب ليزني تنفيذا لحكم القدر ، وإنما تبع الشهوة ، وطلب اللذة العاجلة ، واستجاب لنداء الشيطان .

وقد احتج المشركون بمثل هذه الحجة فقالوا :

﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾

فرد الله عليهم بقوله :

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ ﴾ .

أي : من أين عرفتم قبل أن تشرکوا أن الشرک مقدر علیکم ؟ وهل جربتم الإیمان فوجدتم أنه ممتنع علیکم ؟ .

٢ — أن لو کان هذا المحتج بالقدر صادقا ؛ لرضي بكل ما يقدره الله علیه ، من فقر ومرض وجوع ، وفقد حبيب ، وذهاب مال ، والمشاهد أنه لا يرضى بذلك ، وهو مقدر علیه ، ولا یسکن إليه ، بل هو يعمل لجمع المال ، ودفع المرض ، وإذهاب الجوع ، ویألم لفقد الحبيب ، وذهاب المال ، فلماذا سخر قواه كلها ، واستعمل عواطفه لجلب لذة الدنيا ، ودرء الألم فيها ، ولم یسخر عقله لقمع الشهوة ، ومنع النفس من الحرام الذي ترغب فيه ، وهو یعلم ما في عقبه من العذاب ؟

نحن والسلف أمام عقيدة القدر :

خصوم الإسلام یتهمون المسلمین اليوم بالتواكل والتکاسل ، لأنهم یؤمنون بالقدر . وإن کان في هذه التهمة بعض الحق ، کان السبب فيها سوء فهم كثير من المتأخرین لعقيدة القدر . لقد اتخذها كثير من المسلمین الجاهلین حجة لارتکاب المعاصي ، وسبباً للکسل والخمول ، مع أن سلفنا قد اتخذوا منها دافعاً إلى العمل والجهاد .

قرأنا أن الرزق مقسوم ، « ما کان لك سوف یأتیک علی ضعفك ، وما کان لغيرك لن تناله بقوتك » ، فظن قوم أن مقتضى ذلك ترك الکسب ، وإهمال السعي ، وأن نقعد بلا عمل ، وننتظر أن تمطرنا السماء ذهباً وفضة ، وأن نسافر بلا مال ولا استعداد ... وقرأ ذلك السلف ، ففهموا منه أن علیهم أن يعملوا کل ما في وسعهم ، وأن یبذلوا لجمع المال من الحلال کل ما في طاقاتهم ، ثم إذا استفرغوا الجهد رضوا بما جاءهم ، فلم یسخطوا علی ربهم ، ولم یحملوا الحسد لمن نال من إخوانهم أكثر مما نالوا ، ولم ییطرهم الغنى ولم یؤلمهم الفقر .

وسمعنا أن الأجل محتوم ، فاتخذنا ذلك سبباً لإهمال التوقي

والاحتياط ، وإضاعة المسؤوليات ، والخلط بين الجريمة المتعمدة وبين القدر الذي وقع بلا جرم^(٦٦) ، وسمع ذلك أجدادنا فقالوا : إذا كان الأجل محتوما لا يموت أحد قبل موعده ولو خاض اللهب وتلقى بصدرة الرماح ، ولا يتأخر عن موعده ولو اعتصم في حصن له سبعة أسوار ، فلنعمل لما يرضي الله ، نجاهد بأنفسنا في سبيل الله ، لا نخشى الموت لأن الموت محتوم ، له موعد لا يسبقه ولا يتأخر عنه . ولنجاهد بالسنتنا في إنكار المنكر ، ومواجهة الطاغى الظالم بكلمة الحق ، فأقبلوا لا يخشون في الحق أحدا ، ولا يخافون شيئا إلا الله .

وفهمنا أن كل شيء مقدر ، وأهملنا دراسة سنن الله في الكون ، وقوانين الطبيعة التي جعلها ربنا سببا للنفع والضرر ، وكان سلفنا هم علماءها^(٦٧) ، وهم الذين يعرفونها ويستفيدون منها ، فكان من نتيجة ذلك أن هبطنا من الذروة إلى الحضيض ، ونزلنا من الأعلى إلى الأسفل . وكانوا بالإيمان سادة الدنيا وقادتها وأساتذتها ، فصرنا المسودين المقودين ، وفتحوا بسيف الحق ثلث العالم المتحضر ، وفتح عدونا بسيف الباطل قلب بلادنا .

سبب تقديس الأموات :

ولما رأينا (أي رأى بعضنا) أن حياتنا كلها قد فسدت ، وأن الأحياء منا قد ذلّوا وذكرنا عز الأجداد وصلاحهم ، تحوّل يأسنا من الحاضر إلى أمل بالماضي ، وصغّر أحيائنا إلى تعظيم أمواتنا ، فنشأت من هنا مظاهر تقديس الأموات ، والاعتماد عليهم ، وانتظار المدد منهم . نظن أن نجاحهم وخيبتنا ، تمكنهم من إمدادنا ، فصرنا نقيم الأضرحة الفخمة ، والقباب العالية عليها ، ونبدي من التقديس لها ، ما رجع بنا إلى قريب من عقائد الجاهلية ، وصرنا ننذر لهذه القبور ، ونتوسل بها التوسل الممنوع ، وربما طلبنا من

(٦٦) يسرع السائق حتى إذا اصطدم ، قال : إنه القدر ، ويهمل التلميذ ، فإذا رسب ، احتج بالقدر .

(٦٧) (هم) تأكيد ، و (علماءها) خبر كان .

أصحابها النفع والضرر ، بلا أسباب ظاهرة ، ولا واسطة ملموسة . وكل ذلك (رد فعل) لسوء حاضرننا ، وجلال ماضيننا .

خلط لا مبرر له :

وكل ذلك جر إليه الفهم الخاطيء منا لعقيدة القدر ، هذا الفهم الذي جعل منا من يخلط بين النصوص الواردة في الأمور الإرادية ، التي نملك التصرف فيها ، والأمور التي جعلها الله فوق إرادتنا ، وأعلى من أن تصل إليها طاقاتنا ، ونشأ هذا الخلط العجيب في المذاهب الكلامية . فمن مدع أن الإنسان مسير لا إرادة له ، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في عضلة قلبه مثلا ، ولا عمل له في اختيار أبيه ، وانتخاب بيئته الأولى ، ونسوا أن الله أعطاه عضلات يتحكم فيها ، وأعطاه عقلا يستطيع به أن يصحح (على قدر الإمكان) أخطاء بيئته وآثار تربيته .

وتوسع آخرون ، وأعطوا إرادة الإنسان أكثر مما لها في الواقع ، وخلطوا تبعا لذلك في أمر الثواب والعقاب ، ونسوا أن الله لا يحاسب الإنسان إلّا في حدود حريته وقدرته ، ولا يؤاخذ على ما أكره عليه ، وتخبّطوا في البحث عن عدالة الله ، ونسوا الحقيقة الأولى ، وهي أن عدالة الله لا تقاس بمقياس العدالة البشرية . وطريق السلامة في عقيدة القدر وفي سائر العقائد ، أن نعود فيها إلى المنبع الأصلي : القرآن . وأن نتبع فيها ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين ، وأن ندع هذه البحوث العقيمة التي أثارها الدراسة الناقصة ، للفلسفة اليونانية البدائية السطحية .



الإيمان بالغيب

عالم الغيب :

قدمنا في (قواعد العقائد) أن الحواس لاتصل إلى إدراك كل موجود ، وأن في الوجود عوالم حقيقية ، لا ندركها بحواسنا ، أقربها إلينا الروح التي يحيا بها كل واحد منا ، من ينكر وجود الروح ؟ لا أحد . من أدرك (ماهية) الروح ؟ لا أحد . فالعالم المدرك المشاهد ، هو الذي سماه القرآن ، (عالم الشهادة) ، والعالم المغيب عن حواسنا — عالم ما وراء المادة « metaphysique » — هو عالم الغيب .

أما عالم الشهادة فيستوي في الإيمان به ، والتصديق بوجوده الناس جميعاً ، حتى الحيوان الأعجم يدرك بحسه وجوده . فلا فضل في الإيمان به لأحد على أحد ، لأن ذلك من (العلم الضروري) . ولكن الفضل ، في الإيمان بالغيب ، فيمن يؤمن بما لا يراه ويصدق بوجوده ، اعتماداً على صدق الخبر به . وهذا ما يمتاز به المتقون ، ولذلك جعل الله أول صفة وصف بها المتقين ، في أول سورة البقرة ، أنهم ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ .

كيف نؤمن بالغيب ؟

كيف نؤمن بالغيب ولم يعطنا الله الحواس التي ندركه بها ؟ إننا لو تركنا لحواسنا نعتمد عليها وحدها ، ولعقولنا نحكم بها على ما جاء من طريق الحواس فقط ، لبقينا على جهلنا بما وراء المادة ، فكان من حكمة الله ، ومن رحمته بنا ، أنه لم يترك العقل في عجزه عن إدراكها ، بل أخبره بما يحتاج إليه من خبرها .

وهذا الإخبار لا يأتي من داخل النفس بل من خارجها ، وليس من قبيل الحدس النفسي ، ولا الإلهام الروحي ، ولا الوميض الذهني ، ولا الاستنتاج العقلي . ليس صادراً عن الطاقة الإنسانية ، ولكنه آت من خارجها بطريق من الطرق الثلاثة :

الأول — أن يضع الله هذه الأخبار في الإنسان ، بإلهام أو بمنام ، أو بنوع من التلقي الذي لا عمل فيه للإنسان ، ولا يستطيع الوصول إليه باجتهاد ، فيحس بها ، ويعبر عنها .

الثاني — بأن يسمعها من غير أن يرى قائلها الحقيقي ، فتصل إلى أذنه ويدركها ويعيها .

الثالث — (وهو الأعم الأكثر) أن يرسل الله واحداً من مخلوقاته الخيرة ، المطيعة المغيبة عنا ، التي تسمى الملائكة ، إلى واحد من البشر ، يختاره الله ويصطفيه ، فيبلغه رسالة الله ، ويأمره أن يبلغها الناس .

فهذه ثلاثة طرق ليس لها رابع .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ .

الغيب الذي يجب الإيمان به :

والغيب الذي هو ركن الإيمان ، والذي يكفر منكروه ويخرج من ملة الإسلام ، هو ما جاء في القرآن . أما الغيب الذي ورد في السنة الصحيحة ، فلا يكفر منكروه ويخرج من الملة ، بل يفسق .

وهذا الفرق بين الكتاب والسنة يحتاج إلى شيء من البيان . ذلك أن ما أبلغه الرسول ﷺ من الوحي ، وما نطق به من الحديث ، هما في الأصل في درجة واحدة من الحجية ^(٦٨) . فالقرآن وحي من الله بلفظه ومعناه ، والحديث

(٦٨) أي في قوة الاحتجاج بهما .

وحي من الله بالمعنى ، واللفظ لفظ الرسول ، قال تعالى :
﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

والصحابه الذين سمعوا من الرسول ﷺ الآية يبلغها ، والحديث ينطق به ،
لم يكونوا يفرقون بينهما ، في وجوب العمل ، وفي الحجية .

ولكن الفرق نشأ من الرواية والنقل ، فالقرآن نقل نقلا متواترا ، بحيث
نجزم بأن النص الذي في المصحف ، هو الذي نزل به جبريل على محمد
ﷺ ، وهو الذي بلغه محمد أصحابه ، ما نقص منه شيء^(٦٩) ولا زيد فيه
شيء ، ولا أبدل منه شيء . أما الحديث فنقل جله (إن لم نقل كله) آحاد عن
آحاد ، ولقد بذل علماء الحديث في تمحيص روايته ، والفحص عن رجاله ،
أقصى ما تصل إليه الطاقة البشرية ، ولكننا لا نقطع مع ذلك بأن الحديث الذي
رواه (البخاري) و (مسلم) وأصحاب السنن ، قد قاله ﷺ ، وأنه نقل
بلفظه ، كما نقطع بأن ما في المصحف هو القرآن المنزل .

ولما كانت العقيدة أساس الدين ، ويترتب على الإخلال بها الكفر
والردة ، وكان لا يحكم على مسلم بالردة مادام في الأمر احتمال ألا يكون
كفر .

لذلك قلنا إن من أنكر عقيدة جاءت بصريح القرآن يكفر ، ومن أنكر عقيدة وردت
في صحيح السنة يفسق ولا يكفر ، هذا إن ردها عنادا وخلافا ، أما إذا كان
من أهل الحديث ، العارفين بعلمه ، ورد الحديث لعله في سنده أو متنه ، فلا
شيء عليه .

المغيبات :

المغيبات التي أخبر بها الشرع ، ويجب بها الإيمان ، ويترتب على

(٦٩) ومن اعتقد من أتباع الفرق المنسوبة إلى الإسلام ، أن الذي في المصاحف ليس القرآن كله ، وأن
من القرآن ما ليس في المصاحف التي يتداولها المسلمون ، كفر وخرج من ملة الإسلام ، إلا ما كان من
الآيات التي قال قوم أنها منسوخة التلاوة ، ولم يثبت ذلك بخير متواتر .

إنكارها الكفر ، هي الملائكة والجن ، والكتب والرسل ، واليوم الآخر ، وما فيه من الحساب ، وما بعده من الثواب والعقاب ، والقدر ، وما جاء في القرآن ، عن خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وكل ما أخبر به القرآن .

شبهة وردها :

الماديون الذين لا يؤمنون إلا بما يحسون به ، نرد عليهم بالقاعدة الثالثة من قواعد العقائد التي تبين أنه لا يشترط من عدم الوجدان عدم الوجود ، وأنه لا يحق لنا أن ننكر أشياء لمجرد أننا لا نحس بوجودها ، وبالقاعدة التي بينا فيها أن الخبر الصادق يفيد اليقين ، كما يفيد الحس ، وما دام قد ثبت صدق محمد ﷺ في إخباره عن الله ، وثبت نقل هذا الخبر إلينا فقد حصل من هنا اليقين لدينا معشر المؤمنين بوجود هذه المغيبات .

أقسام الغيب :

عالم الغيب على أقسام ، كل قسم منها يسمى غيباً :

١ — قسم لم ندركه نحن ، ولكن أدركه غيرنا من البشر ، كقصة يوسف مثلاً ، سماها الله غيباً لأن محمد ﷺ وقومه لم يدركوها بحواسهم ، لم يروها ولم يسمعوا بها ، ولكن بني إسرائيل ، (أعني أولاد يعقوب) يوسف وإخوته ، أدركوها وعاشوها ، وكانت هي وقائع حياتهم .

٢ — وقسم لم يدركه البشر ، وإن كان من الممكن عقلاً أن يدركوه لو قدم الله موعد إيجادهم ، كالحوادث التي كانت في الأرض من قبلهم ، وأخبار المخلوقات التي كانت تسكنها ، ولكنهم لم يعرفوا عنها في الواقع ، وعن أخبار خلق أبيهم آدم ، وبداية الحياة البشرية ، إلا ما جاءهم علمه من طريق الوحي .

٣ — وقسم لا يمكن إدراكه بالحواس ، ولا الحكم عليه بالعقل ، ولا الإحاطة بحقيقته بالخيال ، كصفات الله ، وما غيبه عنا من مخلوقاته ،

كالملائكة والجن والشياطين ، وأحوال يوم القيامة ، وما بعده من الحساب والثواب والعقاب .

شبهة وردها :

قد يقول قائل : إن من أمور الغيب التي استأثر الله بها ، إنزال الغيث والعلم بما في الأرحام ، فكيف تخبر النشرة الجوية عن جو الغد ، أصحو أم ماطر ؟ ويكشف العلم عما في بطن الحامل : هل هو ذكر أم أنثى ؟

والجواب :

١ — إن الذي أنزل القرآن هو الله ، وإن الذي خلق الكون وما يقع فيه هو الله ، فلا يمكن أن يأتي في القرآن نص صريح قاطع بإنكار أمر قائم مشاهد ملموس ، وإذا وجدنا نصاً يظهر منه أنه مخالف للواقع ، ندقق النظر فيه ، فترى أن المعنى المقصود منه غير ما بدا لنا (٧٠).

٢ — النشرة الجوية إنما تخبر عن المطر بعد رؤية أسبابه ، وتنامي خلقه ، وبيان ذلك أن المطر الذي ينزل في سواحل الشام مثلاً ، تبين (من العلم بسنن الله في الكون) ، أن سببه الهواء الذي يجيء من البحر الأطلسي ، فيمر بمضيق جبل طارق ، فيصطدم بكتلة هوائية راكدة ، فتشكل السحب من اختلاف درجة حرارة الهواء القادم والهواء الراكدة ، فإذا رأوه علموا استناداً إلى معرفة سنن الله ، أنه سيتوجه إلى ساحل الشام بعد كذا .

فهو كمن شاهد موزع البريد من نافذته ، وقدر متى يصل إلى داره ، فقال لأهله : سيأتي موزع البريد بعد خمس دقائق ، وكمن يحمل منظاراً يضعه على عينيه ، فيرى السيارة القادمة فيخبر بها قبل ظهورها للعيان .

(٧٠) وهذا ، إذا كان النص آية من القرآن ، وليس في القرآن آية تدل دلالة قطعية على نفي أمر حكم العقل بوجوده حكماً قطعياً . وأما إن كان النص حديث آحاد (أي نقله واحد عن واحد) . فإننا نجزم أن الرسول لم يقله ، ولو نقله رجال الصحيح ، لأن الرسول صلوات الله عليه لا يقول ما يخالف الواقع المحسوس .

ما علم في الحقيقة الغيب ، ولكن رأى الواقع قبل أن يراه غيره ، ومثله من يخبر عن نوع الجنين بعد تشكيله ، وأما إنشاء السحاب ، وإنزال المطر في أرض كتب الله عليها الجفاف ، ومنعه عن أرض أنزله الله عليها ، ومعرفة جنس الجنين ، وهو لا يزال حويئاً منوياً ، أو حويئاً صادف بويضه ، فهذا هو المراد من الآية والله أعلم .



الإيمان بالملائكة والجنّ

الإيمان بالملائكة والرسول والكتب من أسس العقائد ، التي لا يكون الإنسان مؤمناً إلا بها ، والملائكة رسل الله إلى الأنبياء ، والأنبياء رسل الله إلى الناس ، والكتب هي الرسالة التي حملها الملك إلى الرسول ، ونقلها الرسول إلى الناس .

الوحي وإمكانه ولزومه :

الوحي ممكن عقلاً ، لأن الله قادر على خلق الملائكة ، واصطفاء الرسل ، وشرع الأحكام ، لا يمنع العقل ذلك ، بعد أن آمن بوجود الله ، وقدرته وإرادته . وهو واقع فعلاً ، لأن الخبر الصادق ورد به ، وقد قدمنا أن الخبر الصادق طريق من طرق العلم (بمعنى اليقين) ، وأنا نوقن بما نصدق الخبر به كما نوقن بما نراه ونسمعه . وهو لازم إذ لولاه لاقتصر البشر على عالم المادة ولجهلوا ما وراءه ، ولكانوا كالأنعام والمواشي ، يعيشون لدنياهم وحدها ، لا يعرفون إلا الطعام والنكاح ، واللذائذ الجسدية ، لا يتصلون برنهم ، ولا يعملون لآخرتهم .

ولولاه لفقدوا السمو الخلقي ، والرفعة الإنسانية . ومهما أوردوا من نظريات في علم الأخلاق « La moiale » ، وفي الأساس الذي تبنى عليه ، فإن الأخلاق إذا لم تبنى على أساس من العقيدة ، كان بناؤها على كتيب من الرمل ، لأن الإنسان مفطور على حب نفسه ، وجلب النفع لها ، ودرء الأذى عنها ، فلا يعمل عملاً لا يكون له فيه لذة أو كسب^(٧١) .

(٧١) انظر كتاب الحكم (Maximes) لمؤلفه (Laroche Faucold) لاروشفوكلد .

ولو أن رجلاً لا يملك إلا ديناراً يدخره لعشائه ، ورأى صندوقاً لمساعدة الأيتام ، هل يضع الدينار في الصندوق إذا كان لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويبيت طاوياً ولا يخبر بذلك أحداً ، ولا يدع أحداً يراه ؟

أما المؤمن فإنه يضعه في الصندوق لأنه يعلم أن الله يراه ، ويعطيه بدله سبعة دنانير يوم القيامة . المؤمن وحده هو الذي يعمل الخير ، رآه الناس أم لم يروه ، شكروه أم لم يشكروه ، أثابوه وعوضوه عنه أم لم يثيبوه ولم يعوضوه .

المؤمن وحده هو الذي يدع فعل الشر ، سواء أكان وحده أم كان مع الناس ، أما الذي يعمل الخير للثناء أو للعتاء ، فلا يعمل إلا إذا وجد من يشي عليه ويعطيه . والذي يدع الشر خوف الفضيحة ، أو خشية العقاب ، لا يدعه إن أمن أن يبصره الشرطي ، أو يراه الناس . ولو حاسب الله الناس في الآخرة على ذنوبهم . ولم يرسل إليهم رسلاً يعرفونهم شرع ربهم ، لاحتجوا وقالوا : رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ ۞ .

ولا دَعُوا أَنَّهُمْ لَوْ بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ لَعَمِلُوا بِهَا ، وَلَوْ عَرَفُوا الشَّرِيعَةَ لَاتَّبَعُوهَا فَكَانَتِ الرِّسَالَاتُ :

﴿ لَقَالَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۞ ﴾ .

شبهة وردها :

يقول ناس : لماذا لم يهد الله الناس كلهم إلى طريق الجنة ؟ ولماذا وضع في نفوسهم الشهوة ثم عاقبهم على الزنا ؟ وغرز فيهم حب المال وحاسبهم على جمعه من غير الحلال ؟ والجواب : إن هذا القول ، كقول طلاب المدرسة ، لماذا لا يعطوننا أسئلة الامتحان من أول السنة ، ولماذا أخفوها عنا ، وكلفونا الاستعداد لها ؟ إنهم أخفوها ليجد الطالب ويقرأ المقرر كله ، ولو أعطيناه أسئلة الامتحان من الآن ، لما بقي معنى للامتحان .

والدنيا دار ابتلاء ، والابتلاء في لغة العرب الاختبار (الامتحان) ، ليميز

الطائع من العاصي ، والمستقيم من المنحرف ، ولولا حواجز السباق (٧٢) ، لما بان الخائر الضعيف من الفارس المغوار .

ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولو أراد لخلقهم للطاعة الخالصة كما خلق الملائكة ، ولكن هكذا شاء ، ولا رادّ لما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، ونواصينا بين يديه ، ونحن ملك له راجعون إليه ، ما لنا رب غيره ولا إله سواه ، إن شاء عذبنا وإن شاء عفا عنا ، ونحن نسأل الله عفوه ورحمته ، ونعوذ به من عذابه ، لأننا لا نستطيع أن نتخلص من عذابه إلا بعفوه ، ولا نستطيع أن ننال العفو إلا منه وحده .

الملائكة :

وجود الملائكة ثابت وارد في القرآن ، فمن أنكر شيئاً مما ورد في القرآن من خبرهم كفر ، والذي ورد من خبرهم وصفتهم في القرآن هو :

١ — أنهم خلقوا قبل البشر ، وخبرهم ربنا أنه :

﴿ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ .

٢ — أنهم خلقوا للطاعة الخالصة :

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ .

فهم :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ، ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ . ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

٣ — وأن الله لما أتم خلق آدم ، علمه الأسماء (٧٣) وامتحنهم بالسؤال عنها فلم يعرفوها حتى أعلمهم آدم بها ، فلما بان فضله بذلك عليهم ، أمرهم بالسجود له ، سجدود تحية لا سجدود عبادة .

(٧٢) أي سباق الخيل .

(٧٣) لم يبين الله ما هي هذه الأسماء ، لكن الظاهر أنها أسماء الملائكة ، أو أسماء الأشياء الموجودة يومئذ ، ولم يبين اللغة التي علمه الأسماء بها .

٤ — أنهم يتشكلون بأشكال مادية أحياناً ، ويظهرون بصورة بني آدم ،
ففي قصة مريم :

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ .

وضيوف إبراهيم كانوا ملائكة جاؤوا على صورة البشر ، فقدم إليهم
عشاءهم من لحم عجل سمين :

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ، نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً . قَالُوا :
لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

٥ — وأن مقرهم السماء ينزلون منها إلى الأرض ^(٧٤) بأمر الله :
﴿ مَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ .

٦ — وأنهم درجات وأصناف في أصل الخلقة وفي مقام العبودية ،
جعلهم الله :

﴿ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ . ﴾
﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ .

فمنهم من ينزل بالوحي وهو جبريل :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ، فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . وإنه
لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين .

ومنهم ملك الموت ^(٧٥) الموكل بقبض الأرواح :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ .

ومنهم الذي ينفخ في الصور ، ومنهم ميكال (ميكائيل) ، ومنهم حملة
العرش :

﴿ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ﴾ . ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ
ثَمَانِيَةٌ ﴾ .

(٧٤) إذا كان في النجوم ما يحتاج الوصول إليه إلى مليار سنة ضوئية . والسماء بعد النجوم كلها قطعاً

فيأي سرعة كانوا ينزلون ؟ إن العقل يعجز عن تصور هذه السرعة !

(٧٥) لم أجد (على كثرة ما بحث) نصاً من كتاب أو سنة ثابتة أن اسمه « عزرائيل » .

ومنهم الموكلون بتنعيم أهل الجنة :
﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ .

ومنهم المكلفون بتعذيب أهل النار :

﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ .

ومنهم من يسجل على الإنسان أعماله :

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَامًا

كَاتِبِينَ ﴾ .

ومنهم من يسوق الإنسان للحساب يوم القيمة ومن يشهد عليه :

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ .

٧ — ومن أعمالهم التي خبر القرآن عنها ، أنهم يثبتون المؤمنين في

المعارك :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتُمْ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

وأنهم يدعون لهم ، ويصلون عليهم ، ويستغفرون لهم : ﴿هُوَ الَّذِي
يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ . ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ
رَحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ
فَقَدْ رَحِمْتُهُ ﴾ . ويشهلون صلاة الفجر مع المؤمنين :

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ .

ويشرون المؤمنين عند الموت ويؤنبون العاصين :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا . . . ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا :
فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ . ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ، يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَذْبَارُهُمْ ﴾ .

ويسوقونهم من بعد إلى النار ، ويوبخونهم :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ، وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ؟ قَالُوا : بَلَىٰ ، وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ : ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .
ويستقبلون أهل الجنة ويرحبون بهم ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .

وأنهم لا يتناكحون ولا يتناسلون ، ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة .

هذا جل ما جاء في القرآن من خبر الملائكة ، وفي السنة الصحيحة كثير من أخبارهم . جاءت في أحاديث آحاد ، لكن صحت روايتها ، وثبت سندها . ومن أنكر شيئاً مما ورد في القرآن عن الملائكة أو غيرهم كفر .
والإيمان بالملائكة أحد أركان العقائد الإسلامية :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ . . . ﴾ .

ثمره الإيمان بالملائكة :

ازدياد الشعور بعظمة الله ، واستشعار رحمته ، إذ وكل الملائكة بالدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم . والتحرز عما أمكن من المعاصي ، حين يتذكر أنهم يسجلون عليه كل ما يقوله ويفعله . والإقدام والشجاعة في الجهاد ، حين يتصور أنهم يؤيدون المجاهدين ، بأمر رب العالمين . والعمل للجنة ليكون ممن يسلمون عليه .. والبعد عن أسباب دخول النار لئلا يكون ممن يوبخونه . ومن ثمراته الإجمالية التشبه بهم في لزوم الطاعة ، واجتناب العصيان ، وتقوية الجانب الملائكي في الإنسان .

الجن :

خبر الله في القرآن ، بأنه خلق خلقاً آخر ، تعجز عيوننا عن رؤيتهم على صورهم الأصلية . كما تعجز عن رؤية الملائكة ، ورؤية الأشعة التي هي فوق

البنفسجية وتحت الحمراء ، ورؤية الموجات الصوتية ، ورؤية التيار الكهربائي ، وهو يمشي في سلك النحاس ، وهذا الخلق هو الجن .

والذي يجب الإيمان به ، ويكفر منكره ، هو ما جاء من أخبارهم في القرآن ، وإن لم يخصصه الله بالذكر ، ويجعله من أركان الإيمان صراحة كالإيمان بالملائكة .

الجن في القرآن :

١ — خبر القرآن أن الجن خلقوا من النار . ولا يلزم من هذا أن يكونوا ناراً تحرق ما تمسه ، ولا يمنع أن يكون الله قد حولهم فيما بعد إلى طبيعة أخرى . فالإنسان خلق من الطين ، ولكنه لم يبق طينا بل أنشأه الله خلقا آخر ، فجعله مركباً من عظام وعضلات ودم وأعصاب على سنة الله في الكون ، إذ يحول المخلوقات من حال إلى حال . فيجعل من (الخلية) أحياء مختلفي الصفات والهيئات والطبائع ، ويجعل من (الذرة) معادن مختلفة الأوزان والأشكال والخصائص ، ويجعل من (البذرة) اليابسة شجرة خضراء الأوراق ملونة الأزهار .

٢ — وخبر أنهم خلقوا قبل خلق الإنسان : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ .

٣ — وأنهم يروننا ولا نراهم ، وليس في هذا عجب ، فمن كان بيده المنظار رأى الشخص البعيد وذلك الشخص لا يراه ، ونحن في الدنيا وفقنا إلى صنع آلات كالرائي (التلفزيون) والهاتف المرئي نرى منها المتحدث ، وهو لا يرانا ، قال :

﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ .

٤ — وأنهم مكلفون مثلنا يحاسبون على أعمالهم كما نحاسب ، ويثابون ويعاقبون كما نثاب نحن ونعاقب ، وأن جهنم والعياذ بالله منها ، تمتلئ بالجن والإنس معاً ، قال تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

٥ — وأن رسالة محمد ﷺ بلغتهم ، كما بلغتهم من قبلها رسالة موسى ، ﴿قَالُوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ، مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

٦ — وأنه كان منهم الصالحون والعاصون ، وأنهم كالشجر أصناف : ﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ ، كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ ﴿وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ .

٧ — وأن الله سخرهم لسليمان : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلٍ^(٧٦) وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُلُوبٍ رَاسِيَاتٍ﴾ .

٨ — وأنهم لا يعلمون الغيب ، لذلك لبثوا يعملون لسليمان بعدما مات : ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ، تَأْكُلُ مِنْسَأَتُهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمَهِينِ﴾ .

٩ — وأن الله تحداهم ، كما تحدى البشر أن يأتوا بمثل القرآن : ﴿قُلْ : لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ .

١٠ — وأنهم كانوا يتحسسون أخبار السماء من الملائكة ، فلما جاء الإسلام منعوا من ذلك ورموا بالشبه : ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصِداً﴾ .

(٧٦) التماثيل : بالمعنى المعروف ، وهي الصور المجسمة ، وهي محرمة قطعاً في ديننا .

الشياطين :

وهم كفار الجن ، أبوهم إبليس ، وقد قال قوم إن إبليس من الملائكة ، ولكن الصحيح أنه من الجن .

أولاً : لأن الله صرح بذلك في القرآن ، فقال :

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ ﴾ .

ثانياً : لأن إبليس عصى ربه . والملائكة :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ۖ ﴾ .

ثالثاً : لأن القرآن صرح بأنه خلق من النار :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۖ ﴾ .

الشياطين في القرآن :

١ — الشيطان هو العدو الأول للبشر ، أخرج أباهم من الجنة ، وهو يعمل على منعهم من دخولها ويبعدهم عن طريقها . ويغريهم بسلوك طريق النار ، وهم مع ذلك يتبعونه ويدعون شرع الله إلى وسواسه ، وهدى الأنبياء إلى ضلاله .

وقد وبخهم الله على فعلهم وعلى هذه الحماقة منهم ، إذ يستجيون لعدوهم الذي يريد العذاب لهم ، ولا يستجيون لربهم ، الذي يدعوهم ليغفر لهم ويرحمهم :

﴿ أَفَتَسْخِطُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟! يَنْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۖ ﴾ .

٢ — دلت هذه الآية على أن الشياطين يتناسلون ، ويكون لهم ذرية وأنهم جميعاً ذرية إبليس .

٣ — سلط الله الشيطان على الناس ، ولكنه لم يعطه القدرة على النفع والضرر ، ولم يمنحه القوة التي لاتدفع ، بل أعطاه الكيد :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۖ ﴾ . ﴿ وَلَيْسَ بَضَارُهُمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ . . . ﴾ .

٤ — عمله الوسواس والإغراء بالشر والدعوة إلى القبائح :
﴿ يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ . ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ
الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

يحملهم على الخمر والميسر وأمثالها ، وأمثالها :
﴿ رَجَسَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ .

برنامج كنه ينحصر في الشر والفحش والخلاف ، وأول مادة في هذا
البرنامج وأول ما فتن به آدم وحواء ، التكشف والتعري ، ولبس القصير من
الثياب :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ ، يَنْزِعُ
عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا . . . ﴾ .

فكان نزع الثياب ، وإبداء العورات ، أول مادة في هذا القانون
الشیطاني .

ومن شأن إبليس أن يحسن في عيون أتباعه (السّيء) حتى يروه حسنا ،
ويجعل لهم القبيح فلا يصروه قبيحا :
﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . . . ﴾ .

ومن شأنه أن يدفع أولياءه إلى إثارة الشبه في وجوه المؤمنين ، وشغلهم
عن دعوتهم دعوة الحق بالجدال والمرء ، وقد نبهنا الله إلى ذلك ، وقال لنا :
﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . . . ﴾ .

فلا تستجيبوا لهم ولا تسقطوا في شركهم :

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

ومن شأنه أن يشغل المؤمن عن ذكر ربه ، حتى ينساه ، فيقدم على
المعاصي ، فالعاصون :

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ .

ولكن

﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ (فَأَنسَاهُمْ رَبُّهُمْ) تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ .

٥ — لكن الشيطان رغم دأبه على الإفساد ، وثباته على عداوة بني آدم ، وأنه يأتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومن أمامهم ومن خلفهم ، وأنه يقعد لهم كل مرصد ، وأنه يستفزههم بصوته ويجلب عليهم بخيله ورجله ، وأنه يشاركهم في الأموال والأولاد ... إنه على هذا كله لا يملك إلا الوسواس ، والإغراء بالشر ، لا يقدر على نفع لهم ولا ضرر ، وحين يتجادل الكفار والشیاطين في الآخرة ، يقول لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوَا أَنْفُسَكُمْ ... ﴾

ولما دعا إبليس ربه أن يؤجل موته ، وأجابه :
﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

قال الله عز وجل :
﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ، إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ .

٦ — وهو يخذل أتباعه ويتخلى في ساعة العسرة عنهم ، ويخون عهدهم :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، وَقَالَ : (أَي : يوم بدر للمشركين من أهل مكة) ، لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ .
يعني الملائكة التي نزلت يومئذ لتأييد المؤمنين : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ .
﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ : اكْفُرْ . فَلَمَّا كَفَرَ ، قَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ

مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۞ .

شياطين الإنس :

هذا بعض ما ورد في القرآن الكريم من صفات الشيطان ، إنه يعمل على نشر الكفر وإذاعة الفاحشة ، وكشف العورات ، يزين للناس ما هم عليه من القبيح ويحسنه لهم ، حتى يقيموا عليه ولا يتحولوا عنه . يثير الشبه ، ويجادل بالباطل ، ويوقع العداوة بين المسلمين ويفرق جمعهم ، حتى إذا استجابوا له واتبعوه ، واحتاجوا يوماً إلى نصره ومعونته ، فاستعانوا به واستنصروه ؛ تخلى عنهم وتبرأ منهم .

وكل من تخلق بهذه الأخلاق من الناس ، كان حكمه حكم الشيطان .
﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُلُورِ النَّاسِ ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۞ .

فمن رغب بالفاحشة وزينها للناس بالصور العارية ، أو القصص الداعرة ، أو الأدب المكشوف ، فهو من شياطين الإنس . ومن دعا إلى عصية جاهلية ، (من الجاهلية الأولى أو الجاهلية الجديدة) ، تجعل أمة محمد أمماً ، وتحيل وحدتهم تفرقا ، فهو من شياطين الإنس . ومن صرف الناس عن طريق الجنة إلى طريق النار ، وأنساهم ذكر الله واليوم الآخر ، فهو من شياطين الإنس :
﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ۞



الإيمان بالرسُل

وأول ما يقرره القرآن ، أن الملائكة والجن والرسُل ، خلق من خلق الله ، كلهم عباده ، وهو أوجدهم وهو المتصرف فيهم ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم (فضلاً عن غيرهم) نفعاً ولا ضرراً إلا بإذن الله .

الرسُل جميعاً بشر ، يولدون كما يولد البشر ، ويموتون كما يموتون ، ويمرضون مثلهم ويصحون^(٧٧) ؛ لا يختلفون عنهم في تكوين أجسادهم ، ولا في تصوير أعضائهم ، ولا في جريان دمائهم وحركات قلوبهم ، يأكلون ويشربون ، كما يأكل الناس ويشربون .

ليس فيهم شيء من الألوهية ، لأن الألوهية لله وحده ، ولكنهم بشر يوحى إليهم ، وقد عجبت الأمم الأولى من الوحي ، فقال لهم الله عز وجل راداً عليهم ، مبيناً أنه لا مكان لعجبتهم :
﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ، أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

وعجبوا أن يكون الرسول من البشر ومنعهم من الإيمان :
﴿ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ .

فرد الله عليهم ، بأن الرسول إنما يكون من جنس من أرسل إليهم ، فالبشر يرسل إليهم رسول من البشر .
﴿ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ .

(٧٧) الرسُل جميعاً بشر : يشبهون البشر في كل شيء ، إلا ما كان من ذلك منافياً لاصطفائهم للرسالة ، كالأمرض المشوهة المنفرة ، أو المانعة من القيام بالدعوة .

وناقشوا رسلهم

﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ ، ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ .

وقد من علينا فأوحى إلينا الشريعة ، وأمرنا بتبليغها :

﴿ وَقَالُوا : مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ .

فرد الله عليهم ، مخاطباً رسوله محمداً ﷺ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ .

وقال لهم رداً عليهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِّيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ، وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا (أي : على هيئة رجل) وَلَلْبَشَرُ عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾

حقيقة الرسول :

الرسول بشر يمتاز بالوحي ، وقد قال تعالى لمحمد :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ .

وقد أكد بشريته باستعمال (إنما) وهي تفيد الحصر والقصر ، وتنفي عنه ما ينافي البشرية ، ثم أكدها مرة ثانية بقوله :

(مثلكم) .

هو مثلنا في تكوين جسده ، وطبيعة خلقه ، ولكننا لسنا جميعاً مثله لافي خلقه ولا في مزاياه ولا في عظمته ، ولو لم يكن (محمد) خاتم الأنبياء ، لكان — بلا جدال — أعظم العظماء وبطل الأبطال .

فإذا كان بشراً مثلنا ، يجوز عليه ما يجوز علينا ، فهل يخطيء كما نخطيء ؟ والجواب :

١ — إن الخطأ إما أن يكون في مجال التبليغ عن الله ، وفي بيان الشريعة . وهذا النوع من الخطأ يستحيل وقوعه من الرسل جميعاً ، لأن الرسول (لا ينطق) إذا بلغ عن الله أو بين شريعته :

﴿ عَنِ الْهَوَى ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى ﴾ .

والله يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .

ويستحيل أن تقع من الرسول (بعد رسالته) معصية ، أو يأتي ما يجرح العدالة أو يخل بالمرءة أو ينافي الكمال ، لأن الله جعله قدوة ، وأمر المسلمين أن يتأسوا به ، وأن يتبعوه في فعله :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وهذه الأسوة ثابتة للرسل جميعاً :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وذلك يقتضي العصمة من ارتكاب المعاصي وإتيان النقائص .

٢ — وإما أن يكون الخطأ في أمر شرعي اجتهد فيه الرسول ، ولم ينزل عليه فيه شيء من ربه : وهذا النوع من الخطأ ممكن وقوعه من الرسل ، ولكن الله لا يقرهم على الخطأ بل يبين لهم وجه الصواب فيه ، كما وقع من الرسول في قصة الأعمى ، وفي قصة أسرى بدر ، اجتهد فبين الله له أنه لم يصب في اجتهاده .

وقد فكرت في موقف الرسول ﷺ يوم جاءه الأعمى ، وقلت لنفسي : لو لم ينزل الله هذه الآيات من (عبس وتولى) ، وعرض موقفه على عقلاء الدنيا وساستها وعلمائها ، هل كان فيهم أحد يقول بأن في موقف الرسول ﷺ ما ينتقد أم يقرر الجميع أن الذي فعله هو عين الصواب ؟

رجال من كبار القوم يتألفهم ويحاول أن يكسبهم لنصرة الدعوة ، فيأتي

واحد من أتباعه يسأله عن مسألة ليست مستعجلة ، ولا ينشأ عن تأخيرها ضرر ، وهو يستطيع أن يسأل عنها في كل وقت ، فيرجىء جوابه حتى ينتهي مما هو فيه . هل يفعل أحد من الناس غير هذا ؟ هل في الدنيا من لا يقول بأن عمل الرسول هو الذي يروونه الصواب ؟

إنه هو الصواب في مقياس المنطق البشري ، ولكن لما نزل الوحي بمقياس آخر ، تبين أن ميزان الله أقوم من موازين الناس ، وأن حكم من خلق العقل أصح من حكم العقل ، بل هو الحكيم القويم ، وحكم العقل هو المعوج المنحرف .

ومثل هذا يقال في موقفه ﷺ يوم (أسرى بدر) ، أي إن ما وقع منه ﷺ ، إنما كان خطأ بالنسبة لحكم الله ، ولو لم ينزل الوحي بتخطئته لكان عند أعقل الناس صواباً ، فليس في ذلك خطأ (بالمعنى المعروف) وقع من محمد ، بوصفه عظيماً من عظماء البشر ، بل إن فيه الدليل على أن وحي السماء فوق حكمة الأرض .

٣ — وإما أن يكون الخطأ في أمر من الأمور الإدارية والحربية ، وهذا أيضاً ممكن وقوعه لأن الرسول بشر ، يفكر في هذه الأمور تفكيراً بشرياً ، وقد كان الصحابة يسألونه في مثل هذه الأحوال : هل القرار الذي قرره بأمر من الله ووحى ، أو باجتهاد منه ؟ فإن خبرهم بأن ليس لديه فيه أمر من الله ، وأنه رأى شخصي ، عرضوا عليه آراءهم فأخذ بها أو ردها .

كما وقع في حادثة اختيار المعسكر يوم بدر ، إذ قالوا له « يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أم هو الرأي والمكيدة ؟ » فلما بين لهم أنه رأى الشخصي ، عرضوا عليه رأياً غيره فأخذ به وعدل عن رأيه ، ووقع مثل ذلك في حفر الخندق ، وفي حادثة الصلح مع غطفان في تلك المعركة .

٤ — أما الأمور الدنيوية الخالصة ، فكان الرسول يتكلم فيها برأيه الشخصي ، وقد يخطئ في الأمور الصناعية والزراعية والطبية التي لا يعرفها في

العادة إلا أهلها ، كما أخطأ في مسألة تأبير (أي تلقيح) النخل ، وليس في هذا عيب أو نقص ، لأنه لا يطلب من العظيم ولو كان عالماً — ولو كان أكبر علماء الدنيا — أن يعرف كل الذي يعرفه أرباب الصناعات ، ورجال الزراعة والتجارة ، وسائر المهن .

ومسألة تلقيح النخل مسألة زراعية فرعية ، أبدى فيها صلى الله عليه وسلم رأياً عارضاً ، لم يلزمهم ولم يحملهم عليه ، ولم يقل لهم إنه من الدين ، وأن الله أوحى به ، فلما تبين له خطؤه ، قال : « أنتم أعرف بأمور دنياكم ^(٧٨) » .

الرسول لا يعلم الغيب

القرآن قد صرح بأن الرسول لا يعلم الغيب ، وأمر الله الرسول في القرآن أن يخبر الناس بأنه لا يعلم الغيب :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾ ﴿ قُلْ : لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... ﴾ .

فخبر الناس بذلك ، وتلا عليهم هذه الآيات ، وبقيت قرآناً يتلى في المساجد ، ويقرأ به في الصلوات

الرسول كثيرون وأصول الرسالات واحدة :

بين الله في القرآن أن لكل أمة من الأمم رسولاً أرسله الله إليها :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ .

ولكن الله لم يذكرهم جميعاً في القرآن ، بل ذكر بعضاً منهم :

(٧٨) ولعل الحديث الوارد في الذباب إذا سقط في الإناء من هذا القبيل ، والدليل على ذلك أنه لم يقل أحد إن غمس جناحي الذبابة واجب ، وإن مخالفة هذا الأمر — وعدم غمسه — حرام .

واحد من أتباعه يسأله عن مسألة ليست مستعجلة ، ولا ينشأ عن تأخيرها ضرر ، وهو يستطيع أن يسأل عنها في كل وقت ، فيرجىء جوابه حتى ينتهي مما هو فيه . هل يفعل أحد من الناس غير هذا ؟ هل في الدنيا من لا يقول بأن عمل الرسول هو الذي يروونه الصواب ؟

إنه هو الصواب في مقياس المنطق البشري ، ولكن لما نزل الوحي بمقياس آخر ، تبين أن ميزان الله أقوم من موازين الناس ، وأن حكم من خلق العقل أصح من حكم العقل ، بل هو الحكيم القويم ، وحكم العقل هو المعوج المنحرف .

ومثل هذا يقال في موقفه ﷺ يوم (أسرى بدر) ، أي إن ما وقع منه ﷺ ، إنما كان خطأ بالنسبة لحكم الله ، ولو لم ينزل الوحي بتخطئته لكان عند أعقل الناس صواباً ، فليس في ذلك خطأ (بالمعنى المعروف) وقع من محمد ، بوصفه عظيماً من عظماء البشر ، بل إن فيه الدليل على أن وحي السماء فوق حكمة الأرض .

٣ — وإما أن يكون الخطأ في أمر من الأمور الإدارية والحربية ، وهذا أيضاً ممكن وقوعه لأن الرسول بشر ، يفكر في هذه الأمور تفكيراً بشرياً ، وقد كان الصحابة يسألونه في مثل هذه الأحوال : هل القرار الذي قرره بأمر من الله ووحى ، أو باجتهاد منه ؟ فإن خبرهم بأن ليس لديه فيه أمر من الله ، وأنه رأي شخصي ، عرضوا عليه آراءهم فأخذ بها أو ردها .

كما وقع في حادثة اختيار المعسكر يوم بدر ، إذ قالوا له « يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أم هو الرأي والمكيدة ؟ » فلما بين لهم أنه رأي الشخصي ، عرضوا عليه رأياً غيره فأخذ به وعدل عن رأيه ، ووقع مثل ذلك في حفر الخندق ، وفي حادثة الصلح مع غطفان في تلك المعركة .

٤ — أما الأمور الدنيوية الخالصة ، فكان الرسول يتكلم فيها برأيه الشخصي ، وقد يخطئ في الأمور الصناعية والزراعية والطبية التي لا يعرفها في

والدعائم في البناء ، وترك لنا أن نضع لكل زمان ما يصلح له بشرط المحافظة على هذه القواعد ، وأمثلة على ذلك بأمثلة أعرضها عرضاً موجزاً .

من الأمثلة : أن الإسلام أوجب أن يكون الحاكم منتخباً برأي الأمة ، وأن يكون فيه من الصفات ما يمكنه من القيام بأعباء الحكم ، وأن يلتزم بالدستور الإسلامي الذي هو القرآن ، وأن يستشير أهل الحل والعقد .

وترك لنا تحديد أسلوب الانتخاب (أي البيعة) ، وطريقة تعيين أهل الحل والعقد ، وكيفية الاستشارة ، الخ .

وألزمتنا أن نحكم بين الناس بالعدل ، ولكنه ترك لنا رسم الطريق الموصل إلى العدل ، وأن نحدد أسلوب تعيين القضاة وأصول المرافعات .

ووضع للعقود قواعد عامة تضمن أهلية المتعاقدين وحريتهما ، وصحة صيغة العقد وتعبيرها عن ارادتهما ومحل العقد ، ومنع أنواعاً من العقود فيها مضرة عامة ، أو فيها تفرير بأحد الطرفين . وترك لنا تنظيم الأوضاع التفصيلية للعقود بأنواعها . وجعل الأعمال الفردية والمعاملات المالية جائزة مباحة ، لا تحرم إلا إن ورد بنص تحريمها ، أو دخلت تحت أصل محرم .

وفتح لنا باب (الاستصلاح) ، فكل أمر فيه مصلحة للمجتمع الإسلامي ، وليس في الشرع ما يوجب أو ينهى عنه ، إذا أمر به الحاكم المسلم ، صار واجباً دينياً ، كالقوانين المالية ، وقانون أصول المحاكمات ، والأنظمة الإدارية ، كنظام السير ، ونظام البلديات ، وأمثالها .

فالإسلام فيه من المرونة ما يجعله صالحاً لكل زمان ومكان ، ولكن بعض الفقهاء المتأخرين — لضيق أذهانهم — يضيقون على الناس ما وسعه الشرع ، حتى يضطروهم (كما قال ابن القيم في كتاب الطرق الحكمية) إلى ابتغاء التوسعة ، في غير ما جاء به الإسلام .

وسبب آخر : هو أن الأمم كانت (على عهود الرسل الأولين) تعيش في عزلة لا تقارب بينها ولا اتصال ، إلا على الدواب والجمال ، فتعارفت الأمم

بعد رسالة محمد ، ودنا البعيد ، وطويت للمسافر الأرض ، حتى وصلنا إلى زمان تلقى فيه الخطبة في أميركا ، فيسمعها من في الصين قبل من كان قاعدا أمام الخطيب^(٧٩) ، وصارت الدنيا كأنها بلد واحد ، والأمم كلها أمة واحدة ، ولو أن المسلمين قاموا بما يجب عليهم من الدعوة لدينهم ، وتبليغ رسالة الإسلام ، لعمت هذه الدعوة الأرض كلها .

الإسلام لا يفرق بين الرسل :

وإذا كان في أتباع الأنبياء (ممن يدعون الانتساب إلى واحد منهم) من يطعن على غير نبيه ، فإن الإسلام أوجب على المسلم تعظيم الأنبياء والرسل جميعاً ، فإذا أساء القول في واحد منهم أو طعن عليه ، خالف طريق الإسلام :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

فالمسلم يحب موسى وعيسى وغيرهما كما يحب محمداً ، ويجلهم ويكبرهم كأكباره محمد وإجلاله .

واليهودي الذي دخل النصرانية لما جاء بها المسيح لم يخسر موسى ، ولكنه ربح معه عيسى . والنصراني الذي يدخل اليوم في الإسلام لا يخسر عيسى وموسى ، ولكن يربح معهما محمداً ، وصلى الله على محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

الرسل في القرآن :

المسلم يعتقد أن القرآن كلام الله ، نزل به جبريل على محمد ، وبلغه محمد كما سمعه من جبريل ، وأن ما بين دفتي المصحف هو القرآن كله ،

(٧٩) هذه حقيقة : لأن انتقالها عن طريق الموجات الإذاعية أسرع من انتقالها عن طريق الاهتزازات الهوائية .

كما نزل به جبريل ، فمن أنكر شيئاً منه أوشك فيه ، خرج من الإسلام .
وقد ورد في القرآن ذكر خمسة وعشرين نبياً ، جمعت أسماؤهم في
خمس آيات هي قوله تعالى :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ، إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ،
وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ ﴾ .
وقوله :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۝ ﴾ إلى مدين أخاهم شُعَيْبًا ۝ ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِدْرِيْسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ۝ ﴾ .

وذكر آدم ولم يصرح بأنه كان رسولاً ، ولكن تدل الآيات التي ذكر فيها
على ترجيح القول برسالته .

خمس وعشرون ، منهم من اقتصر على ذكر اسمه كإدريس وذي
الكفل ، ومنهم من أورد قصته موجزة كإسماعيل وإسحاق ويونس ، ومنهم من
أورد قصته مفصلة كإبراهيم وموسى ويوسف وعيسى وكل ما جاء به في القرآن
من قصص الأنبياء حق وصدق يجب الإيمان به

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ
دَرَجَاتٍ ۝ ﴾
المعجزات :

لما أسري برسول الله ﷺ من مكة إلى القدس ، فذهب وعاد في ليلة

واحدة لم تستطع قریش أن تصدق ذلك ، وعدّته مستحيلاً ، لأنه لا يمكن تحقيقه بوسائلها المعروفة وهي الإبل والدواب ، ولكن هذا المستحيل صار اليوم أمراً ممكناً مألوفاً ، لا يعجب منه ولا ينكره أحد .

ولو قيل لأكبر علماء الطبيعة قبل قرن أو قرنين من الزمان : إن الناس سيركبون متن الريح بمراكب من الحديد والفولاذ ، ويخترقون نطاق الهواء ، ويسجلون حديث المحدث وخطبة الخطيب ، فيسمعونها من شأؤوا متى شأؤوا . ولو مات المحدث والخطيب ، لقال إن ذلك مستحيل ، مع أنه وقع اليوم وصار معروفاً .

فكيف تحقق المستحيل ؟

الجواب : إن المستحيل قسمان ، مستحيل في العادة ، كالأمور التي ذكرتها . ومستحيل في العقل كاجتماع النقيضين ، الوجود والعدم مثلاً . فلا يكون الرجل نفسه موجوداً في هذا الوقت في هذا المكان ، وهو غير موجود فيه .

وكتبدل هوية الشيء فلا يكون الكتاب ملعقة ، في الوقت الذي يكون فيه كتاباً .

المستحيل في العقل لا يتصور وقوعه ، أما المستحيل في العادة ، فقد رأينا كيف نعلم أن العلم (علم العبد بقوانين الطبيعة ^(٨٠)) صيره ممكناً . فهل يعجز الخالق الذي أوجد هذه القوانين أن يصيره ممكناً ؟!

لا شك في قدرته على ذلك ، فوقع المستحيل في العادة ممكن لله عز وجل ، فإذا صح الخبر به تحققنا من وقوعه ، وأيقنا به .

(٨٠) أي سنن الله في الكون .

الكرامات :

وقد جاء في القرآن ذكر ثلاثة أنواع ، فيها وقوع المستحيل في العادة .
نوع وقع على يد الرسل لما تحدثهم أقوامهم ، إثباتاً لرسالتهم ، وتأكيذاً لصدقهم ، ويسمى المعجزة ، فأبراهيم ألقى في النار ، فبدل الله طبيعة النار المحرقة وجعلها برداً وسلاماً ، وموسى ألقى عصاه فانقلبت حية ، وضرب بها الصخر فانبجس منه الماء ، والبحر فأنحسر حتى مشى فيه الناس ، وعيسى أحيا الموتى بإذن الله ، وكذلك كل ما جاء في القرآن من المعجزات .

ونوع وقع على يد ولي لله صالح ، كوجود الطعام عند مريم في المحراب ، وإحضار الذي عنده علم من الكتاب عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين ، في أقل من لمح البصر وتسمى الكرامة .

ونوع وقع على يد كافر ، كما صنع السامري لبني إسرائيل من الحلبي عجلاً له خوار ، وتسمى استدراجاً .

ويجب الإيمان (أولاً) بأن الأنواع الثلاثة ممكنة الوقوع ، لأنها وردت في القرآن .

ويجب الإيمان (ثانياً) على وجه التفصيل ، بكل ماورد من ذلك في القرآن .

أما ما يرويه الناس من الكرامات ينسبونه إلى بعض من يسمونهم أولياء ، فهو خبر ، يحتمل الصدق والكذب ، فإن كان واقعاً من ولي . والولي هو المؤمن التقى :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

ولم يكن فيه معصية ، وصدقت به ، لم يكن عليك من الله شيء ، وإن لم يصح عندك فلم تصدق به ، لم يكن عليك من الله شيء .

أما إن كانت الكرامة المزعومة تشتمل على معصية ، (كبعض ما يروي

الشعراني في الطبقات) ، أو كانت واقعة من غير مؤمن ، أو من غير تقى ، فليست كرامة .

المعجزة والسحر :

لما كانت المباراة بين موسى وبين سحرة فرعون ، ألقوا حبالهم وعصيتهم ، فرآها الناس حيات وثعابين . وألقى موسى عصاه فصارت حية ، وأكلت هذه الحيات والثعابين ، فهل الأمران سواء ؟ هل عمل موسى من جنس عمل سحرة فرعون ؟ ! .

إذا كان من جنسه فلماذا آمن السحرة ؟ كان عمل السحرة خداعاً للبصر وإيهاماً للناس . أرؤهم حيات وثعابين مع أن الحبال والعصي لا تزال على حالها ، حبالاً وعصياً . أما عصي موسى فقد تحولت (فعلاً) إلى حية . ولو كان ثمة آلة تصوير والتقطت صورتها ، لظهرت في الصورة حية حقيقية ، على حين تظهر حيات السحرة حبالاً وعصياً .

لذلك آمن السحرة هذا الإيمان السريع ، إنهم رأوا شيئاً ليس من السحر ، ولا من التخيل ، ولا من التهويل . شيء هز قلوبهم حتى اضطرها إلى الإيمان ، وبلغ منهم الإيمان مبلغاً ، جعلهم يتحدون فرعون ولا يبالون به ، إنهم تصوروا عظمة الله الذي آمنوا به ، فهانت عليهم عظمة فرعون الزائفة ، وربوبيته المكنوبة ، لقد صغرت الدنيا في عيونهم فلم يحفلوا بتهديد فرعون إياهم بالصلب وقطع الأعضاء ، إن فرعون لا يملك إلا تعذيبهم في الدنيا وما الدنيا في جنب الآخرة ؟ وما عذابها المؤقت عند نعيم الآخرة الدائم ؟ لذلك صرخوا في وجهه مستهينين بقضائه :

﴿ فاقضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .

إنني أؤمن بالله وأنا المولود في الإسلام ، الذي تسلسل في آبائه الإسلام ، أن يكون لي مثل هذا الإيمان الذي كان لسحرة فرعون ، بعد دقائق معدودات

معجزات محمد عليه الصلاة والسلام :

المعجزتان الكبيرتان : القرآن ، وهذه المزايا المفردة ، التي جعله الله بها أهلاً لحمل رسالة الإسلام .

ترجمة حياته ﷺ كانت في ذاتها معجزة .

كان بشراً وأمره الله أن يقرر هذه الحقيقة ، ويعلنها للناس لئلا يتخذوه إلهاً ، أو يمنحوه من صفات الألوهية . قال له ربه جلّ وعلا :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ .

بشر مثلكم في المقومات العامة للصفة البشرية ، ولكن ليس في البشر (على التحقيق) من هو مثله في عظمته ، ولم يخلق الله من هذا الطراز من أبناء آدم جميعاً إلا رجلاً واحداً اسمه محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وعلى آبيه إبراهيم ، وعلى موسى وعيسى وجميع الأنبياء .

وإن من الظلم لمحمد ، وإن من الظلم للحقيقة ، أن نقيسه بواحد من هؤلاء الآلاف من العظماء الذين لمعت أسماؤهم في دياجي التاريخ ، من يوم وجد التاريخ ، فإن من العظماء من كان عظيم العقل ولكنه فقير في العاطفة ، وفي البيان ، ومن كان بليغ القول وثاب الخيال ، ولكنه عادي الفكر ، ومن برع في الإدارة ، أو القيادة ، ولكن سيرته وأخلاقه كانت أخلاق السوق الفجار (٨٢) . ومحمد ﷺ هو وحده الذي جمع العظمة من أطرافها ، وما من أحد من هؤلاء ، إلا كانت له نواح يحرص على سترها وكتمان أمرها ، ويخشى أن يطلع الناس على خبرها . نواح تتصل بشهوته ، أو ترتبط بأسرته ، أو تدل على ضعفه

(٨١) الإسلام له معنى عام ، ومعنى خاص ، ومعنى أخص ، فالمسلم بالمعنى العام : كل من اتبع رسولا ، وقت رسالته ، والمسلم بالمعنى الخاص : من اتبع رسالة محمد . وبالمعنى الأخص : ما ورد في حديث (جبريل) ، الذي شرح معنى الإيمان والإسلام والإحسان ، وإطلاق الإسلام هنا بالمعنى العام . (٨٢) ومن تصفح سير أدباء الإفرنج رآها كلها كذلك ، اسكندر دوماس وبودلير ، وبيرون ، وسير قوادهم كذلك ، من نابليون بونابارت إلى أصغر قائد عندهم .

وشذوذه ، ومحمد هو وحده الذي كشف حياته للناس جميعا ، فكانت كتابا مفتوحا ، ليس فيه صفحة مطبقة ، ولا سطر مطموس ، يقرأ فيه من شاء ماشاء .

وهو وحده الذي أذن لأصحابه أن يذيعوا عنه كل مايكون منه ، ويبلغوه ، فرووا كل مارأوا من أحواله في ساعات الصفاء ، وفي ساعات الضعف البشري ، وهي ساعات الغضب ، والرغبة ، والانفعال .

وروى نساؤه كل ماكان بينه وبينهن . هاكم السيدة عائشة تعلن في حياته وبإذنه أوضاعه في بيته ، وأحواله مع أهله ، لأن فعله كله دين وشريعة ، ولولا أن في القراء الشبان والنساء ، لسردت عليكم طرفا منها ، وكتب الحديث والسير والفقهاء ممتلئة بها .

لقد رويوا عنه في كل شيء حتى ما يكون في حالات الضرورة البشرية ، فعرفنا كيف يأكل ، وكيف يلبس ، وكيف ينام ، وكيف يقضي حاجته ، وكيف ينتظف من آثارها .

فأروني عظيما آخر ، جرؤ أن يغامر فيقول للناس : هاكم سيرتي كلها ، وأفعالي جميعا ، فاطلعوا عليها ، وارووها للصديق والعدو ، وليجد من شاء مطعنا عليها .

أروني عظيما آخر دونت سيرته بهذا التفصيل ، وعرفت وقائعها وخفاياها ، بعد ألف وثلاثمئة سنة ، مثل معرفتنا بسيرة نبينا ؟

والعظمة إما أن تكون بالطباع والأخلاق والمزايا والصفات الشخصية . وإما أن تكون بالأعمال الجليلة التي عملها العظيم .

وإما أن تكون بالآثار التي أبقاها في تاريخ أمته وفي تاريخ العالم .

ولكل عظيم جانب من هذه المقاييس تقاس بها عظمته ، أما عظمة محمد فتقاس بها جميعا لأنه جمع أسباب العظمة ، فكان عظيم المزايا ، عظيم الأعمال ، عظيم الآثار .

والعظماء إما أن يكونوا عظماء في أقوامهم فقط ، نفعوها بقدر ماضروا غيرها ، كعظمة الأبطال المحاربين ، والقواد الفاتحين .

وإما أن تكون عظمتهم عالمية ، ولكن في جانب محدود ، في كشف قانون من القوانين التي وضعها الله في هذه الطبيعة ، وأخفاها حتى نعمل العقل في الوصول إليها ، أو معرفة دواء من أدوية الأمراض ، أو وضع نظرية من نظريات الفلسفة ، أو صوغ آية من آيات البيان ، قصة عبقرية ، أو ديوان شعر بليغ .

أما محمد فكانت عظمتهم عالمية في مداها ، وكانت شاملة في موضوعاتها .

وكان مؤمنا بما يدعو إليه ، وكثير ممن نعرف من الدعاة ، قديما وحديثا ، يقولون بألسنتهم ماتخالفه أفعالهم ، ويعلنون في الملأ ما لا يأتونه في الخلوات ، وتغلب عليهم طبائع نفوسهم ، في ساعات الرغبة والرغبة والغضب والجوع والحاجة ، فينسبون كل مايقولونه . ولست أتكلم عن أحد ، ولكن أضرب نفسي مثلا ، أنا أحاول السمو النفسي حين ألقى المحاضرة وأكتب المقالة الداعية إلى الحق والخير والهدى ، فلا أكاد أعلو قليلا حتى يغلب عليّ ثقل طبيعتي وشهوات نفسي الأمارة بالسوء ، فأعود إلى الأرض . ويرى الناس ذلك من الوعاظ والخطباء فلا يبالون بما يقولون ، ولا يكون للوعظ فيهم أثر .

أما الرسول ﷺ فلم يدع يوما إلى محاضرة جامعة في بيان أحكام الإسلام ، ولم يقيم مدرسة لها ساعات ودروس ، ولم يجلس في حلقة وعظ ، بل كان يبلغ مايوحى إليه في البيت والمسجد والطريق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، حين تدعو الحاجة إليه ، ولكنه يقول ذلك بلسانه وعمله ، ويعبر عنه بقوله وفعله . فقد كان خلقه القرآن ، وأنتم تسمعون هذه الكلمة ولا تفكرون في معناها ، ومعناها يأسادة : أن كل فعل من أفعاله ، وكل خلق من خلائقه ، آيات تتلى ، ومحاضرة تلقى ، وحلقة درس ومجلس وعظ ، لأنها كلها تنطلق بما يأمر به القرآن .

وكان يقوم الليل يصلي حتى تورمت قدماه ، ويستغفر الله دائماً فقيل له : أم يغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وكان في أعماله كلها في صلاة ؛ لأن كل سعي للخير ودفع للشر وعمل لمصلحة الجماعة ، إن أريد به وجه الله ، كان لصاحبه صلاة ، وأنا أكتفي بمثال واحد على إيمانه بما يدعو إليه ، وتمسكه بتطبيقه تمسكاً كاملاً يعلو على كل الاعتبارات . وأمهّد لهذا المثال بصورة واقعة .

لو اتهمت فتاة من أشرف الأسر — من أسرة كبير أو وزير — بتهمة السرقة ، أترونها تسجن كما تسجن (نوريه ^(٨٣)) ، لو كانت هي السارقة ، وينفذ فيها حكم القانون كما ينفذ في تلك النورية ، أم تمتد إلى قضيتهمائة أصعب ، فتستر الجرم ، أو تسهل المحاكمة ، أو تهون العقاب ؟ .

لقد وقعت قضية كهذه على عهد الرسول . فتاة من أشرف أسر قريش ، من بني مخزوم ، من أسرة الوليد الذي يقال له الوحيد ، أسرة خالد سيد قواد المعارك ، وهي ثالث أسرة شرفاً بعد هاشم وأمّية ، سرقت هذه الفتاة ، وثبت الجرم ، وتقرر الحكم ، فسعى ناس في الوساطة لها ، يظنون أن الرسول — لما يعرفون من حبه للصفح والعفو — سيعفو ، فإذا هو يغضب ويفهمهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم ، أنهم إذا اجترم الشريف تركوه ، وإذا اجترم الضعيف عاقبوه . ويقول لهم قولته العجيبة التي وطدت في حياة الإسلام ركناً ثابتاً ، وقررت أن الحدود لا تسمع فيها شفاعاة ، ولا يكون فيها عفو : « أما والله لو أن (فاطمة بنت محمد) سرقت ، لقطعت يدها » .

وكان ذلك عنده شيئاً طبيعياً لأنه كان يعيش بالدعوة ، ويعيش للدعوة ، هواه تبع لما أنزل إليه ، وكل ما يصله بالناس من أسباب القرابة والصدقة والمنفعة ، ينقطع إذا اعترض طريق الدعوة .

(٨٣) النورية هي الفجرية . والنور منتشرون في آسية وأوربة ، وأظهر الأقوال ، أن أصلهم من الزط الذين أسكنهم الحجاج بن يوسف الثقفي أواسط العراق ، وقاموا — من بعد — بثورتهم المشهورة .

وقد فرغ ﷺ مما يحيا له الناس عادة من أمر الطعام واللباس ، وفرغ من مطالب النفس كلها ، ولم يكن يحرص على التقشف أو يعتمد الجوع ، كما يفعل بعض من يدعى الزهد ، ولا يواظب على لباس الفقر ، ولا على اتخاذ الصوف ، بل كان يأكل ما قدم إليه من الطيبات ، وإن لم يعجبه (مما لم يكن محرما) لم يأكله ، ولم يعبه . وما عرف عنه أنه ذم طعاما قط ، وإن لم يجد صبر على الجوع حتى يبرح به فيربط على بطنه الحجر ، وكان يلبس ما وجد ، ولا يلتزم زيا خاصا ، ولا نوعاً خاصاً ، ولا لونا خاصا ، وقد لبس العمامة على القلنسوة ، والقلنسوة بلا عمامة ، والعمامة بلا قلنسوة ، واتخذ القميص والإزار والرداء ، ولبس البرد ، ولبس الجبة ، لا كهذه الجبة الواسعة والأكمام العريضة ، بل الجبة الضيقة الأكمام ، ولم تكن عمامته كهذه العمام ، بل كما يعرف من عمام أهل الحجاز ، قطعة من قماش تلف على الرأس ، فإن لم تكن إليها حاجة أُلقيت على العاتق ، أو استعملت في حاجة السلم ، أو لربط الأسير في الحرب . وكان يتخذ لها ذؤابة أحيانا ، والعمائم ضرورة من ضرورات الطبيعة في الحجاز ذات الشمس المحرقة ، فهم يقون رؤوسهم بها ، من وقدة الشمس ، ومن ذلك قيل : « العمام تيجان العرب » ، ولم يحرص فيها على لون بعينه ، ولقد كانت عمامته يوم الفتح سوداء .

وليس في الإسلام محرم من الثياب إلا ثوبا يكشف عن عورة ، ولا يجوز للمرأة المسلمة أن تكشف عن أكثر من وجهها وكفيها ، وما كان من حرير للرجال ، وما كان من الثياب الخاصة بأهل دين غير الإسلام ؛ بحيث إن لبسه لا بس ظن أنه منهم ، كلباس الرهبان مثلا . وما كان من لباس النساء خاصة يلبسه الرجال ، أو من لباس الرجال خاصة تلبسه المرأة ، وما كان فيه من سرف وتبذير ، وكل ثوب بعد ذلك جائز اتخاذه في الإسلام .

والرسول ﷺ لم يكن يحرم زينة الله التي أخرج لعباده ، ولا الطيبات من الرزق ، ولا يردّها ، ولا يأبأها إن وجدها ، ولكنه لم يكن يحرص عليها ،

ويجعلها أكبر همه من دنياه .

لقد فرغ كذلك من شهوة الغنى والجاه ، وأنتم تعرفون أن قريشا عرضوا عليه ماشاء من أموالهم إن شاء الغنى ، وعرضوا عليه السلطان والإمارة عليهم إن شاء الجاه ، ولم يتركوا شيئاً مما يعلمون ميل النفوس إليه ، وتعلقها به ، إلا بذلوه له ، ليترك دعوته ، فكان يأبى عليهم ماعرضوه ، راثياً لهم مشفقاً عليهم .

وفرغ كذلك من أمر الشهوة الجنسية ، ولقد غر أقواما من المستشرقين ، الذين درسوا الرسول بهذه العقلية الأرضية المريضة ، وقاسوه بالمقياس الذي يقيسون به العظماء من رجالهم . فرأوا أنه تزوج تسع نسوة ، فقالوا إنه رجل شهواني ، يحسبونه من نوع من عرفوا من رجال السيف أو القلم . فنابليون مثلاً الذي أكره أمة كاملة بحكومتها ووجوه شعبها على أن يكونوا (قوادين) له ، يوصلونه إلى الفتاة البولونية^(٨٤) التي أحب ، وزاد على ذلك فاضطر أبا الفتاة على أن يلزمها الإثم الذي أراده منها ، وجعل استقلال بولونيا رهنا بتحقيق هذه الرغبة النجسة الفاجرة . وليس ذلك وزر نابليون وحده ، بل إن اسكندر دوماس ، وبيرون وغوت ، وبودليير والعشرات من أمثالهم كانت كلها كذلك ، وهذه تراجم عظمائهم ، إذا بلغت في أي منها بحث أخباره الجنسية ، زكمت أنفك روائح تلك الأرجاس ، فجاءوا بهذه العقلية يدرسون سيرة رسول الله ﷺ ، فدلوا بقولهم عنه أنه شهواني ، على جهل بعلم النفس ، وجهل بتاريخ محمد ، وبعد عن الحياد والنزاهة في البحث .

إن أشد أيام الرغبة الجنسية يقظة وثورة هي السن التي بين البلوغ والخامسة والعشرين ، هذه هي السن الخطرة التي ينبغي فيها على كل عاقل وعاقلة أن يحذر فيها كل مايجر إلى المعصية من التكشف والاختلاط ، ومتابعة النظر إلى المحرمات ، وإدمان الفكر فيها ، ولو كان الاختلاط باسم العلم أو

(٨٤) الفتاة البولونية : هي (ماري فاليفسكا) وقصتها مشهورة ، حتى لقد أخرجت بها الأفلام للسينما .

الدرس . فأين كان محمد في هذه السن ؟ وماهي حوادث صبوته ؟ لقد كان حرا ، في بلد حرّ ، ولو أرادها لم يمنعه منها مانع من رقابة ولا من عرف ، ولقد كان لداته من الشباب غارقين في هذه الملذات ، لا يحرمها عليهم دين ولا قانون .

إن سيرة محمد مكشوفة للعدو والصديق ، معرضة لأنظار كل ناقد ، فهل ترون فيها أنه كان في هذه السن من أرباب الصبوات ومن ذوى الشهوة العارمة ومن المقبلين على المتع والملذات ؟ فقد فكر مرة واحدة في أن يمارس بعض ما يمارس لداته^(٨٥) من اللهو ، فألقى الله على عينيه النوم حتى فاته ما فكر فيه ، ولو أنه واقع شيئا من ذلك فهل كان يسكت عنه خصومه من المشركين ، وقد كانوا حريصين على حربته وإيذائه من كل سبيل ؟ وتزوج وهو ابن خمس وعشرين ، فهل تزوج الفتاة البكر الجميلة ، أم تزوج امرأة في سن أمه أرملة في الأربعين ؟ وسائر زوجاته أما كان جلهن أرامل ، تزوجهن زواج المصلحة ؟ وقد أحل الله له أكثر من أربع ، فأعطاه بذلك أكثر من باقى المسلمين . ولكنه حرّمه بالمقابل حقا منحه لكل زوج ، وهو حق الطلاق .

على أن القوة الجنسية ليست عيبا ، وكيف وهي مظهر الرجولة ؟ وفيما تكون الرجولة إن لم تكن في هذا ؟ لكن العيب ، أن يحيا الرجل لها وحدها ، ولا يفكر إلا فيها ، وأن يطلبها من طريق الحرام .

وقصة زواجه بزینب هذه التي يجتر بتردادها الخصوم ، لا تستحق أقوالهم فيها الرد ، لأنها في الواقع مبنية على تحريف متعمّد للواقع ، أو على سوء فهم ظاهر .

وزینب فتاة جميلة ، وهي قريبة من الرسول ، لو كان قد فكر فيها لتزوج بها ، وكان ذلك لو أرادها أكبر أمانيتها وأمانى أهلها ، ولكن الله جعلها محورا لإصلاحين اجتماعيين من الإصلاحات الإسلامية ، واحد كانت هي مكان

(٨٥) اللذات : المتقاربون في السن ، وتكون اللذات للرجال والأنثرب للنساء . و (لذة) من (ولد) ، مثل (عدة) من (وعد) .

التجربة فيه ، والآخر كان مكانه الرسول نفسه .

أراد الإسلام القضاء على هذه العزة الجاهلية ، وهذا الشعور الطبقي ، بتزويج زينب — وهي من أشرف أسر العرب — بزيد وهو أسير متبني ، ولا يُعدُّ في نظر هذا المجتمع كفؤاً لها ، فتزوجته على كره منها ومن أهلها ، وكانت حياتها سلسلة متصلة من المنازعات ، وكان كلاهما يتمنى الفراق ، ولكن الرسول كان يمنعه من طلاقها ، ويقول له :

« أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ » .

حتى امتلأت الكاس وفاضت ، ولم يبق إلى الاحتمال سبيل .. فطلقها !

وهنا تجيء التجربة الثانية وهي أصعب وأشق ، ويكون على الرسول حمل عبئها ، بزواجه من زينب ، لإبطال عادة التبني ، وبيان أن زوجة المتبني لاتحرم على المتبني . والصعوبة فيها في تعريض محمد لأن يظن به هذا المجتمع أنه تزوج امرأة ابنه ، وهذا الموقف أشق ما مر بالرسول ، ومع ذلك قد احتمله راضياً بأمر الله .

فالحكاية ليست كما يظنون ويقدرّون . وما يقولونه فيها لغو لا يستحق الرد ، وما عرضتُ له إلا لأبين الحق لمن لا يعرفه من القراء ^(٨٦) .

وقوة الجسد هي الانتصار على المقاومة المادية ، وقوة القلب نصر على الخصوم ، وهنالك قوة أكبر ، لأنها نصر على ماهو أكبر من المادة ، ومن الخضم . هي قوة الخلق ، وهي نصر على النفس ، وطبائعها وغرائزها ورغباتها وميولها .

وهذه مسألة نفسية مسلمة ، عبر عنها الرسول بألفاظ شتى في مناسبات مختلفة ، فقال : « ليس الشديد بالصرعة ^(٨٧) ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه

(٨٦) اقرأ كتاب (نداء للجنس اللطيف) للسيد رشيد رضا .

(٨٧) الصرعة : مدمن المصارعة ومحترفها . والمعنى المراد : أن قوة الأعصاب التي يملك بها المرء نفسه عند الغضب ، أكبر من قوة المصارع الذي يغلب بها خصمه عند المباراة .

عند الغضب » . وهذا حق تستطيعون إدراكه من أنفسكم ، وإذا كانت القوة التي تصرع بها الخصم تقدر بواحد مثلاً ، فإن القوة التي تحتاجها للتغلب على غضبك ، وإطفاء ناره في صدرك ، وأن تبدو هادئاً في حركاتك وصوتك ولهجتك تقدر بمئة ، فهي أصعب بمئة مرة من تلك . وجرب أن تجيء لغضبان قد أعماه الغضب ، حتى لا يبصر ما أمامه ، فتحاول أن تذكره الخُلُق الحسن ، واللين والعفو ، هل تجد في كل عشرة آلاف واحداً يستجيب لك في هذه الحال ؟

تصور لو أن رجلاً قتل أحب الناس إليك وأعزهم عليك ، ثم جاءك مستسلماً لدعوتك (وأنت الداعية) ، هل تنسى ماذرفت من ماء العين على قريبك ، وما أرقّت عليه من دمع القلب .. وتغفو ؟ .

لقد عفا الرسول عن (وحشي) قاتل (حمزة) ، لما أسلم ، لكن غلبته طبيعته البشرية ، فيما لا يخالف الإسلام ، ولا يضر الرجل ، فقال له : (لاتجعلني أراك) ، فكان يتوارى عن عينيه .

وهند ، هند امرأة أبي سفيان ، التي بلغ من حقدها على محمد ودعوته : أن فعلت مالا تفعله امرأة ، ولا يفعله إنسان ، ولا يفعله الذئب ، ولا النمر . شقت صدر حمزة وأخرجت كبده ولا كتفه .. هند التي فعلت في حرب الرسول الأفاعيل ، لقد عفا عنها وبايعها وقبِل إسلامها .

وأهل الطائف الذين سمعتم بخبر ما فعلوا بالرسول ، لما أسلموا عفا عنهم . وهاكم الموقف الأكبر ، المثل الأعلى في بابهِ ، في كل العصور : أهل مكة الذين جرعوه وأصحابه الصّاب والعَلقم ، وآذوه في جسده ونفسه وعقيدته ، وقالوا عنه ، ونالوا منه ، ومن أصحابه ، وقاطعوه ، وحبسوه في الشَّعْب ، ووضعوا الشوك في طريقه ، وألقوا على رأسه كرش الناقة ، وهو ساجد ، وسخروا منه أنواع السخريات ، واستمر ذلك لا يوماً ولا يومين ، ولا سنة ولا سنتين ، ولكن ثلاث عشرة سنة ، ثم حاربوه وذبحوا أقرباءه وأصحابه ،

حتى ظفر بهم ، وأقامهم أمامه حول الكعبة ، أذلاء لا يملكون دفاعاً ، وجاءت ساعة الانتقام .. لا ، دعوا كلمة الانتقام فإنها لاتليق بالمقام ، ساعة العقوبة المشروعة ، التي يكون فيها الرد على هذه السلسلة الطويلة من التعديات والإساءات ، وها هو ذا يقول لهم :

« ماترون أني فاعل بكم ؟ » .

إنهم يذكرون ماصنعوا ويعرفون مايستحقون ، ولكن يذكرون أيضا خلق محمد ويعرفون مثله ، فيقولون :

« أخ كريم ، وابن أخ كريم » .

ويسكتون في انتظار الحكم القطعي ، ولو كان الحكم بقتلهم جميعاً ، لما وجد من كتاب التاريخ الصديق منهم والعدو من يلومه بكلمة ، ولكن حكم محمد كان غير ذلك ، كان مفاجأة لا يتوقعها أحد ، مفاجأة أدهشت عصره وكل عصر يأتي بعده ، قال لهم :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وأنا آسف أن أعرض هذا الموقف ، هذا العرض الموجز ، ولقد كنت أتمنى لو جعلت الفصل عنه وحده ، لأجلوه عليكم كما ينبغي أن يجلى ، هذا الموقف يحتاج إلى قوة عشرة آلاف مصارع .

وأنا أعجب لماذا حاول المتأخرون من مؤلفي السيرة الاستكثار من المعجزات ، والتوسع فيها ، وإضافة معجزات لم تكن ، وما حاجتهم إليها ؟ وكل موقف من سيرة الرسول ، وكل جانب من شخصيته ، هو معجزة من أكبر المعجزات .

وما المعجزة ؟ أليست الأمر الذي يعجز الناس عن مثله ؟!

إن صدقه وأمانته معجزة ، ولن أسرد عليكم أمثلة كثيرة ، فالمجال ضيق ولكن أعرض مثلاً واحداً ، حادثة مررت بها في مطالعاتي مئات المرات فكنت أقرؤها على أنها خبر عادي ، ثم تنبعت إليها يوماً فجأة فإذا هي أعجوبة ،

وكم في السيرة من أمثال هذه الأخبار . كلكم تعرفون أنه لما هاجر الرسول إلى المدينة ، ترك علياً مكانه ليرد الودائع التي كانت عنده لقريش ، فهل فكرتم يوماً ما قصة هذه الودائع ؟

يردها لقريش لا للمسلمين ، إذ لم يبق أحد من المسلمين في مكة لما هاجر الرسول ، لأنه كان آخر من هاجر ، بقي كما يبقى الربان في السفينة الجانحة ، لا يتركها حتى ينزل الركاب جميعاً ، ويصلوا إلى قوارب النجاة، وهذه منقبة ذكرتها عرضاً .

قصة الودائع هي أن قريشا كانت (على كل ماكان بينها وبين الرسول) لاتجد من تأتمنه على ذخائرها إلا محمداً ، فتصوروا حزينين مختلفين ، الحرب قائمة بينهما ، حرب اللسان واليد والمبدأ والعقيدة ، ثم يأتى أفراد الحزب على أموالهم وأوراقهم ، رجلا من الحزب الآخر !

هل سمعتم بمثل هذه الحادثة ؟ وكيف يستودعونها هذا الخصم ، إن لم يكن في أخلاقه وأمانته معجزة من المعجزات ، والشك فيه أحد المستحيلات ؟

هكذا كان محمد !

ويوم بدر يوم مر يعدل الصفوف قبل المعركة ، وفي يده قدح (قطعة من الخشب) ، فوجد سواد بن غزية بارزاً من الصف ، فدفعه بالقدح فى بطنه وقال : « اعتدل ياسواد » .

قال : « يارسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل » . تصوروا هذه المشهدة ، قائد الجيش يجابهه جندي عادي بهذا الكلام ، ماذا ترونه صانعا به ؟

يؤدبه ؟ يعرض عنه ؟ أو تبلغ به سماحة الصدر ونبالة الطبع ، فيسامحه ويعفو عنه ؟ أو يزيد على الغاية فيقول : « عفوا أنا أعتذر إليك » ؟ ! .

أما رسول الله فقد صنع شيئاً لا يصنعه أحد ، ولا يخطر على بال أحد ،
كشف له عن بطنه وأعطاه القدح ، وقال له : « استقد : » ، أي : أوجعني كما
أوجعتك .

أقاد من نفسه وهو سيد البشر .

هكذا كان محمد !

كانت سيرة حياته كلها معجزة ، عجز عظماء العالم جميعاً عن أن
يتركوا لهم سيرة مثلاً ، في كل ناحية منها عزة وعظمة ، في قوة جسده ،
وتكوينه الرياضي . في روحه الرياضية ، وأنه لا يستخفه النصر حتى يبطره ، ولا
تزلزله الهزيمة حتى تثير غضبه أو تذهب بعزمه .

في ثباته في المعامع الحمر حتى كان أبطال الصحابة يحتمون به ، وفي
شجاعته التي تضعضع أمامها صناديد الرجال ، وفي تواضعه للمسكين والفقير ،
ووقوفه للأرملة وللعجوز .

في إقراره بالحق ، في صدق التبليغ عن الله ، حتى إنه بلغ الآيات التي
نزلت في تخطيطه وفي عتابه ، في احترامه العهود وحفاظه على كلمته ، مهما
كلفه الحفاظ عليها من مشقة ونصب ، سواء عنده في ذلك معاملاته الشخصية
وشؤون الدولة .

في ذوقه وحسه المرهف ، وأنه هو الذي سن آداب الطعام وقرر قواعد
النظافة في وضعه مع أصحابه إذ يعلمهم ويعمل معهم ، ويعيش مثلما يعيشون ،
ويستشيرهم ويسمع منهم ، ويجلس حيث يجد المكان الفارغ في آخر
المجلس حتى كأن القادم عليه لا يراه ، ينظر في وجوه القوم فيقول : « أيكم
محمد ؟ » .

لأن محمداً لم يكن يمتاز عليهم في جلوسه ، ولا في ثيابه ، كان مثلهم
في كل شيء . في سلوكه المهذب العفيف مع النساء ، وفي سيرته في بيته ومع
أهله ، ومزحه الصادق ، وانطلاق نفسه . وأنه كان محبباً إلى كل قلب ، في

تواضعه ورفضه أن يعد ملكاً .

ونهي أصحابه عن القيام له ، وأنه كان يقوم بحاجة أهله ، ويخفف بيده نعله .

وأنه عاش حياة الفقر زهداً في الغنى لا عجزاً عنه ، ولو شاء لكان قصره أفخم من إيوان كسرى ودارة قيصر ، ولكنه اختار الآخرة فكانت دور نسائه جميعاً ، نسائه التسع ، لا يتجاوز طولها كلها ^(٨٨) خمسة وعشرين متراً .

وكان منزل عائشة غرفة واحدة مبنية من اللبن والطين ، وكانت من الضيق بحيث إنها لم تكن تتسع لنومها وصلاته ، فكان إذا سجد دفع رجلها ليسجد في مكانها ، أما طعامه فقد حدثت عائشة أنه كان يمر الشهر والشهران ، ولا يوقد في بيت رسول الله نار ليخبز عليها الخبز . قالوا : « فماذا كنتم تأكلون ؟ » .

قالت : « التمر والماء » هذا هو طعام أسرة رسول الله .

وفي بيانه وفصاحته ، أنه كان أبلغ من نطق وأبان ..

كل ذلك فيه الإعجاز ، وفيه الدليل على أن الله ما اختاره لأسمى الرسالات ، وما جعله خاتم الأنبياء ، حتى أعده لذلك إعداداً جعله واحداً في بني آدم ، ليس له في شمائله نظير ﷺ .

والله أعلم حيث يجعل رسالته .



(٨٨) . نسائه التسع : مكانها في الحجرة الشريفة ، التي دفن فيها ، ومساحتها في حدود ما ذكرت .

الإيمان بالكتب

القرآن :

القرآن هو معجزة محمد .

والذين زعموا أن القرآن من تأليف محمد ، أنكروا عليه أنه نبي ، ولكنهم وصفوه بأنه إله ، ونحن نشهد :

« أن لا إله إلا الله وأنه عبد الله ورسوله . »

ذلك أن القرآن لا يستطيع أن يأتي به بشر ، ولا يمكن أن يأتي إلا من عند الله . فمن قال إن محمداً ألفه ، فقد منح محمداً صفة الألوهية !

وإلا فأروني رجلاً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب كما كان محمد ، ولم يدخل في عمره مدرسة ، بل لم يكن في بلده مدرسة ، بل هو لم يكن في بلدة كبيرة من بلدان الحضارة ، بل كان في قرية متوارية بين الجبال السود ، وراء رمال الصحراء ، لم تدر بها (روما) ولا (القسطنطينية) ولا (مدائن كسرى) ، ولم يدر أحد فيها بفلسفة (اليونان) و (الرومان) ، ولم يسمع واحد منهم بأدب (الهند) و (إيران) .

قرية ليس فيها عالم ولا باحث ، ولا مثقف ثقافة صغار المفكرين في ذلك الزمان ، وهو لم يخرج منها إلا إلى قرية مثلها أو أكبر قليلاً منها ، هي (بصرى) الشام ، من أرض حوران ، ولم يقم فيها إلا يوماً أو أياماً قليلات معدودات .

هل يمكن لمثل هذا الرجل أن يأتي بمثل القرآن ؟

هذه تواريخ العباقرة والنابعين بين أيديكم ، تواريخ الأمم كلها في العصور

كلها ، فهل فيها حادث مثل هذا الحادث ؟

لقد ألف (موزارت) قطعة موسيقية وهو دون العاشرة ، ونظم (بشار) الشعر وهو في مثل هذه السن ، ونبغت مؤلفة (جين إير) ، وأختها كاتبة (أعالي وذرنج) نبوغا مفاجئا ، وترك (شكسبير) هذه الثروة الأدبية ، ولم يكن من أكابر أدباء عصره ومثقفيه ، كل هذا ممكن ، ويمكن أن يؤلف شاب مغمور ، كتابا يأتي فيه بقصة رائعة ، أو نظرية علمية جديدة لأنه عبقرى ، والعبقرية ليست وقفا على المتعلمين ، ولا على خريجي الجامعات ، وقد تظهر العبقرية حيث لا يتوقع ظهورها ، ولكن من عرفهم التاريخ من عباقرة العلم والأدب والفن ، إنما سبقوا زمانهم بقرن مثلا ، زادوا على أقرانهم خمسين في المئة ، أو مئة في المئة . إن لسبقهم حدودا ، إنه سبق معقول .

وليس في التاريخ كله ، رجل كانت له ظروف محمد ﷺ ، يأتي بكتاب هو في الأسلوب الأدبي في أبهى صور الجمال ، وهو في مجال التشريع قانون في ذروة الكمال ، وهو في الإلهيات والإخبار عن المغيبات ، يأتي بما لا يعرفه أحد من البشر ، ولا يمكن أن يدركه بنفسه العقل البشري ، وهو في الطبيعة يشير إلى قوانين وظواهر لم يكن يعرفها أحد في عصره ، ولا في العصر الذي تلا عصره ، ولا في العصور العشرة التي جاءت بعد ذلك . فيه إشارات إلى قوانين لم تكشف إلا بعده بألف و ثلاثمئة سنة ، وقوانين لم تكشف إلا الآن .

كتاب أمره الله أن يتحدى به الناس جميعا ، فتحدى الإنس والجن : أن يأتوا بعشر سور من أمثال سورة ، أن يأتوا بسورة واحدة .. فعجزوا ! وهذا تحدي قائم إلى الآن ، والعجز مستمر إلى الآن .

إعجاز ثابت ، ولكن لا تبحثوا كما بحث علماء البلاغة ، عن موطن الإعجاز ، فإن موطن الإعجاز ليس في ألفاظه وحدها ، ولا في أخباره عن المغيبات فقط ، ولا في أمر الخلد من الأمور التي ادعوا أن الإعجاز فيها ، بل فيه كله مجتمعاً .

كالمرأة الجميلة ، ليس جمالها في لون بشرتها وحده ، ولا في عينيها

وحدهما ، ولا في أي عضو واحد من أعضائها ، بل جمالها فيها كلها . وإن كان كل ناظر في القرآن ، يلمح الإعجاز من الجهة التي ينظر فيها .

تعرفون قصة رئيس قسم تحقيق الشخصية ، الذي أسلم لما سمع قوله تعالى :

﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۖ ۞ ﴾ .

فكر : لماذا خص (البنان) بالذكر ؟ ماذا فيه ؟ فيه بصمات الأصابع ، هذه المعجزة الإلهية العجيبة ، كم على ظهر الأرض من ناس ؟! إنه ليس فيهم اثنان تتفق بصمة أحدهما وبصمة الآخر .

إنها ظاهرة عجيبة ، لكنها عرفت من قريب ، لم يكن يعرفها أحد على عهد محمد ولا في القرون العشرة التي تلت عهد محمد .

فلا بد إذن أن يكون محمد قد تلقاها من عند الله ، ولا بد أن يكون القرآن كلام الله ، وفي القرآن مئات من أمثال هذه الإشارة ، لا نزال نجد كل يوم من يتنبه إلى واحدة منها ، كلما درس القرآن دارس ، بدت له من إعجازه جوانب لم يدركها الأولون ، لأنه لا تقنى عجائبه .

لذلك يجب أن يفسر القرآن في كل زمان تفسيراً جديداً . يفسره الأديب ، ويفسره الحقوقي ، ويفسره الفلكي ، ويفسره عالم النفس ، وعالم الاجتماع ، والمؤرخ ، كل واحد منهم يجد فيه مجالا لعلمه واختصاصه ، ودليلا من اختصاصه وعلمه على أن القرآن كلام الله .

إن معجزات الرسل الأولين وقعت مرة وانقضت ، ولكن معجزة محمد قائمة تتكرر كل يوم ، ومعجزات الرسل دليل ، من غير جنس الرسالة ، على صحة الرسالة ، ومعجزة رسالة محمد ، هي رسالته نفسها ، صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين .

الإيمان بالكتب

نحن نؤمن بالقرآن ، وبالكتب المنزلة التي خبرنا عنها القرآن ، وهذه

الكتب هي : (صحف إبراهيم) ، و (صحف موسى) ، وهي (التوراة) ،
و (زبور داود) ، و (إنجيل عيسى) .

والقرآن هو الحاكم عليها ، والميزان الذي يعرف به صحيحها من الذي
حُرِفَ منها ، قال تعالى :
﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا
عَلَيْهِ .. ﴾ .

فما أخبرنا الله في القرآن أنه من هذه الكتب آما به ، وقلنا بكفر من
أنكره ، وما وافق القرآن من أخبار هذه الكتب اعتقدنا أنه باق على صحته ، وأن
التحريف لم يصل إليه ، وما جاء من أخبارها مخالفاً لما رواه القرآن عنها ،
اعتقدنا أنه محرف عن أصله .

صحف إبراهيم :

خبرنا الله أن مما جاء في صحف إبراهيم ، وتكرر في صحف موسى :
﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى .. ﴾
إلى آخر هذه الآيات .
وأن من ذلك قوله :
﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ..
وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى .. ﴾ .

التوراة :

التوراة منزلة من عند الله ، فيها هدى للناس ، وفيها حكم الله ، قال
تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ إِنَّا أَنْزَلْنَا
التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ .
ومما خبرنا به عن أحكام التوراة قوله :

﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ
بِالْأَنْفِ ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . . . ﴾ (٨٩)

وخبرنا أن فيها بشارة بمحمد ﷺ ، قال :
﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ .

وأن فيها وصف المؤمنين :
﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ،
تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا ، يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ
أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ . . ﴾ .

الزبور :

قال تعالى :

﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ .

وخبرنا أن مما كتب في الزبور وراثه الصالحين الأرض ، قال تعالى :
﴿ وَلَقَدْ كُتِبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ، أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴾ .

ولعل المراد بالأرض الجنة ، لقوله تعالى حكاية عن المؤمنين الذين
يدخلونها :

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْثَرَنَا الْأَرْضَ ، نَتَّبِعُوهُ مِنَ
الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ . . ﴾ .

الإنجيل :

قال تعالى :

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ . . ﴾

وبيّن أن الإنجيل المنزل ، يشتمل على أحكام تشريعية ، قال تعالى :

(٨٩) لبعض العلماء بحث في هذه الأحكام ، هل كلفنا نحن المسلمين بها أم لا ؟ راجع تفسير المنار .

﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنزَلَ اللَّهُ فِيهِ . . . ﴾ .

وفيه تعديل لشرعة التوراة :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ .

وفيه كالتوراة بشارة بمحمد ، ووصف للمؤمنين به

ونحن نؤمن بكل ما أنزل الله من : (صحف) ، و (توراة) ، و (زبور)

، و (إنجيل) ، ونحترم سائر الأنبياء وفيهم : (إبراهيم) و (موسى)

و (داود) و (عيسى) . صلى الله عليهم جميعا .

خاتمة

هذه هي العقائد الإسلامية ..

من اعتقدها واعتقد بكل ما أخبر به القرآن ، من خلق السماوات والأرض والإنسان ، وظهرت آثار هذا الاعتقاد في عمله ، فهو المسلم الكامل . يعمل بالقرآن الذي اعتقد صحته ، لا يكتفي بتلاوته بلا فهم ، ولا بتلحينه والتطريب به بلا علم ، بل يتخذة دستوراً لحياته ، يحل حلاله ، ويحرم حرامه . يعمل ما أوجبه ، ويترك ما نهى عنه .

إن كانت ديانات الناس للمعابد وحدها ، فالإسلام ليس للمسجد وحده ، ولكن للمسجد وللدار والسوق ، ولقصر الحكم ، وللحرب وللسلم . الإسلام يلزم المسلم دائماً ، يبين له ما يباح له ، وما يحرم عليه ، هو معه إن خلا بنفسه ، ومعه إن انفرد بأهله ، وهو معه في تجارته وفي عمله ، كل عمل من أعمال المسلم له حكم من الأحكام الخمسة ، ومنها الإباحة الأصلية . وإن كانت الديانات الأخرى عبادات فقط ، لا علاقة لها بالسياسة ، ولا بالعلم ، فالإسلام عبادة ، وقانون مدني ، وقانون جزائي ، وقانون دولي ، ونظام إداري ، ومذهب خلقي ، وهو علم ، وهو سياسة ، وهو عمل ، وهو جهاد . افتحوا أي كتاب من كتب الفقه ، وانظروا في فهرسه ، تروا هذه الجوانب كلها فيه^(٩٠) .

وإن كانت العبادات في الديانات الأخرى صلاة فقط ، فالعبادة عندنا ليست صلاة وصياماً فقط ، بل إن كل عمل ينفع الناس إن قصد به فاعله وجه الله ، كان له عبادة .

وإذا فصلوا بين الدين — الذي هو عبادة فقط — وبين العلم ، فالإسلام دين العلم . أول كلمة نزلت من كتابه كانت (اقرأ) ، لم تكن (قاتل) ، ولا

(٩٠) صار هذا اليوم من المقررات المعلومة التي لا تحتاج إلى بيان ولم يكن كذلك لما كنت أكتبه وأحاضر به ، في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات ، وكتاباتي فيه كانت بحمد الله سابقة رائدة .

(اجمع المال) ، ولا (ازهد في الدنيا) . و (اقرأ) هذه أول كلمة أنزلت من القرآن وجاء بعدها ذكر العلم ، ما من الله على الإنسان بما أعطاه من مال ولا قوة ولا جاه ، بل بأنه علمه ما لم يعلم .

وكل علم يحتاج إليه مجتمع إسلامي ، يكون تعلمه فرض كفاية على القادرين عليه ، فهل في الوجود دين — إلا الإسلام — يجعل تعلم الكيمياء ، والطب ، والطيران ، من الفروض الدينية ؟

والإسلام دين الغنى ، الله سمى المال في القرآن خيراً ، فقال :

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .

وقال في آية الوصية :

﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا . . . أَي : مالا .

فينبغي أن يكون المسلمون أغنياء ، ولكن بشرط أن يجمعوا المال من الحلال ، وأن يكون المال في أيديهم لا في قلوبهم . والمال وكل ما في الكون مسخر للإنسان . والإنسان المسلم يحس أنه عبد الله ، ولكنه سيد لما في الكون من أشياء ، يتصرف فيه تصرف السيد ، يستجلب النفع الذي أودعه الله فيه ، فهو يرغب في النافع ولكن لا يعظمه لذاته ، فإن عظمه لذاته صار عبداً له ، وكان بذلك قد أشركه في العبادة مع الله .

والمال جعله الله أداة لجلب النفع ، فإن أنت ادخرته وخبأته ولم تنتفع منه صرت خادماً له وعبداً ، وقد قال الرسول ﷺ :

« تعس عبد الدرهم » .

والثياب جعلت لدفع البرد ، وستر الجسد ، فإن عظمتها لذاتها ، فحفظتها ورعيتها ولم تنتفع بها ، صرت عبداً لها ، وقد :

« تعس عبد الخميصة » .

والإسلام دين القوة ولكن بلا ظلم .

والإسلام للدنيا والآخرة :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً . . . ﴾ .

وهو يريد من المسلمين أن يصدقوا الإيمان ، وأن يتبعوا الشرع ، وأن يكونوا مع هذا أرقى الأمم ، وأقوى الأمم ، وأعلم الأمم ، وأغنى الأمم ، ليجمعوا حسنة الدنيا وحسنة الآخرة .

وأن يعلم كل مسلم — بعد هذا — أن عليه واجبا آخر ، هو التعريف بالإسلام ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . فلا يكره الناس على الإسلام .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ .

بل يعرض عليهم محاسنه حتى يرغبوا فيه ، ولا يدعوا بلسان مقاله فقط ، بل بلسان حاله ، بأن يكون المجتمع الإسلامي صورة مجسمة لمبادئ الإسلام لا بأن يكون صورة مشوهة لها ، تنفر منها وتبعد عنها كما هي الحال الآن . بأن يكون الداعي قوي العقل ليقيم الحجة . عالماً بالإسلام ليحسن العرض ، مثقفا بثقافة العصر . ليكلم الناس بلغة العصر ، وأن يكون لطيف المدخل ، خفيف الظل . لا فظا ولا غليظا ، ولا جافيا عاتياً .

وأن يعلم أن الإسلام لا يفزع من المناظرة ، ولا يهرب منها ، وأن كل شيء فيه بالدليل وبالحجة والبرهان ، وأنه يضال بالذليل حتى ممن يدعي ما يخالف الإسلام :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ .

ولو كان له برهان ... ولكن يستحيل إقامة الدليل على خلاف التوحيد . ولو وجد هؤلاء الدعاة إلى الله ، لدخلت الدنيا كلها في دين الله ، والله أنزل هذا الدين ، وهو قد تعهد بحفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

فالإسلام باق لا يزول ، والنتيجة له ، ولكن إما أن نعود — نحن المسلمين — إلى ديننا ، فيكون لنا شرف النصر في الدنيا ، وثواب الله في الآخرة ، وإما أن يستبدل بنا قوما غيرنا يدخلون في الإسلام ، ويتولون الدعوة

إليه والدفاع عنه .

ونعوذ بالله من أن يستبدل بنا ، ونسأله أن يردنا إلى ديننا ، وأن يكتب
النصر له على أيدينا ، وأن يغفر لنا ويرحمنا .
وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	قصة هذا الكتاب
١٥	بين يدي الكتاب
٢٧	دين الإسلام
٣٥	تعريفات
٣٩	قواعد العقائد
٥٥	الإيمان بالله
٦٧	توحيد الألوهية
٨٥	مظاهر الإيمان
١٠٣	الإيمان باليوم الآخر
١٣١	الإيمان بالقدر
١٤٣	الإيمان بالغيب
١٤٩	الإيمان بالملائكة والجن
١٦١	الإيمان بالرسل
١٨٧	الإيمان بالكتب
١٩٣	خاتمة

من آثار المؤلف

- ١ - رسائل الإصلاح هـ ١٣٤٨
- ٢ - بشار بن برد هـ ١٣٤٨
- ٣ - رسائل سيف الإسلام هـ ١٣٤٩
- ٤ - الهيثميات هـ ١٣٤٩
- ٥ - في التحليل الأدبي هـ ١٣٥٣
- ٦ - عمر بن الخطاب جزآن هـ ١٣٥٢
- ٧ - كتاب المحفوظات هـ ١٣٥٥
- ٨ - في بلاد العرب هـ ١٩٣٩
- ٩ - من التاريخ الإسلامي م ١٩٣٩
- ١٠ - أبو بكر الصديق ط ٣ م ١٩٨٦
- ١١ - قصص من التاريخ ط ٤ م ١٩٨٣
- ١٢ - رجال من التاريخ ط ٧ م ١٩٨٦
- ١٣ - صور وخواطر ط م ١٩٨٢
- ١٤ - قصص من الحياة ط م ١٩٨٠
- ١٥ - في سبيل الإصلاح م ١٩٥٩
- ١٦ - دمشق م ١٩٥٩
- ١٧ - أخبار عمر ط ٨ م ١٩٨٣
- ١٨ - مقالات في كلمات ط م ١٩٥٩
- ١٩ - من نفحات الحرم ط ٢ م ١٩٨٠
- ٢٠ - سلسلة حكايات من التاريخ م ١٩٦٠
- ٢١ - هتاف المجد م ١٩٦٠
- ٢٢ - من حديث النفس ط ٣ م ١٩٨١
- ٢٣ - الجامع الأموي م ١٩٦٠

- ٢٤ — في أندونيسيا ١٩٦٠ م
- ٢٥ — فصول إسلامية ١٩٦٠ م
- ٢٦ — صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق) ط ٢ ١٩٧٨ م
- ٢٧ — فكر ومباحث ١٩٦٠ م
- ٢٨ — مع الناس ١٩٦٠ م
- ٢٩ — بغداد ١٩٦٠ م
- ٣٠ — سلسلة أعلام التاريخ ط ٢ ١٩٧٩ م
- ٣١ — فتاوي علي الطنطاوي ط ٢ ١٩٨٦ م
- ٣٢ — ذكريات علي الطنطاوي ج ١ ١٩٨٥ م
- ٣٣ — ذكريات علي الطنطاوي ج ٢ ١٩٨٥ م
- ٣٤ — ذكريات علي الطنطاوي ج ٣ ١٩٨٦ م
- ٣٥ — ذكريات علي الطنطاوي ج ٤ ١٩٨٦ م
- ٣٦ — ذكريات علي الطنطاوي ج ٥ ١٩٨٧ م

وله مئات من البحوث والمقالات في عشرات من الصحف والمجلات

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٠٣٦ / ٨٦

الترقيم الدولي ٣ - ٩٣ - ١٤٢٠ - ٩٧٧

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلکس : DWFA UN ٢٤٠٠٤